

التجسس وصاحب الخبر في العصر العباسي

تأليف

د. نسرين محمود علي



التجسس

وصاحب الخبر في العصر العثماني

تأليف

د. نسرين محمود علي

الدار العربية للموسوعات

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٣٠ - م ٢٠١٠

الدار العربية للموسوعات



الحازمية - مفرق جسر البasha - ستر عكاوي - ط 1 - بيروت - لبنان

ص.ب: 511 الحازمية - هاتف: 00961 5 952594 - فاكس: 00961 5 459982

هاتف نقال: 00961 3 525066 - 00961 3 388363 - بيروت - لبنان

الموقع الإلكتروني: www.arabenchouse.com البريد الإلكتروني: info@arabenchouse.com

مؤسسها ومديرها العام: خالد العاني

الْأَهْلَكُاء

إِلَى زَوْجِي

وَوَلَدِي مَازُونْ وَرَامُو

أَهْلَكِي

هَذَا الْكِتَابُ



مكتبة لسان العرب

www.lisanarb.com

رابط بديل lisanerab.com

السقاية

ومنهج البحث

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة ومنهج البحث

حين استقر الرأي على دراسة الموضوع (التجسس وصاحب الخبر في العصر العباسي) وجدت نفسي أمام جملة من القضايا التي أخذت تستوّقني لأقف عليها، لا كمجرد ناقل أو ناسخ كما اعتاد البعض في حقل الدراسات التاريخية، إنما لأنّه منحى باحث يقتضي الواقع والأحداث ويتحرّى ما جاء في سياق المصادر وابتغاء وجه الدقة في التوصل إلى المنابع الأصيلة للأحداث، لذا بذلت أمّا أمرتين: إما النقل الآلي لكل مصدر أو رواية، والوقوف منها موقف المتفرج، أو الوقوف موقف التدقّيق والتّمحّص وصولاً إلى اليقين، وكان رائدي في هذا المسار مناقشة الآراء والأخبار والروايات التي وردت في سياق البحث، ولهذا لم تكن مهمتي كباحث سهلة وميسرة في الطريق الذي سلكته.

أما الأسباب التي حفزتني لاختيار هذا الموضوع والسير به إلى نهاية المطاف ، فهي دراسة التجسس وصاحب الخبر في العصر العباسي ، لأن أكثر الدراسات التي قام بها بعض الباحثين تركزت على البريد في الإسلام بشكل عام دون الربط بينه وبين صاحب الخبر والتجسس ، فكان من المهم توضيح الوظيفة التي يقوم بها صاحب البريد والخبر خصوصاً في العصر العباسي ، بغية كشف نفسيته وفوائد他的 الجمة .

كان البريد معروفاً قبل الإسلام وفي عهد الرسول ﷺ، وأول من استحدثه نظام الخليفة الأموي معاوية بن أبي سفيان. ولما كان العصر العباسي هو أكثر العصور العربية الإسلامية ازدهاراً وحضارة، نظراً لما اتسم به من طرائق وتنظيم ودقة تدوين وسعة تأليف وعمق رؤية وصلة اتصال بالشعوب الأخرى.

وفي العصر العباسي، اهتمَ الخلفاء العباسيون اهتماماً كبيراً بنظام البريد، وأفردوا له ديواناً خاصاً به في حاضرة الخلافة، ووظفوه في شئ مناحي الحياة الخاصة والعامة.

أما صاحب البريد، ف يأتي بالمرتبة الوظيفية الثانية بعد الخليفة، فهو يتولى استلام الأخبار من أصحاب الأخبار في الأقاليم وتجميعها بعد فرزها، ثم تقديمها للخليفة، ولا يستطيع أحد التدخل في شؤونه أو الاطلاع على رسائله.

وكان صاحب الخبر مختصاً بجمع الأخبار كافة في مركز الخلافة ويقدمها للخليفة مباشرة.

والعيون هم الأشخاص الذين يعينهم الخليفة أو صاحبُ الخبر أو البريد، فالعيون عناصر عسكرية تؤدي خدمات لا غنى للقيادة عنها.

إن هذا البحث يوضح بجلاء، عظمة أمتنا في سالف عصورها، ومبلغ ما وصلت إليه من تنظيم واهتمام بالبريد وأصحاب الأخبار، ورغبة في إظهار قوتها، وحجمها، وشدة بأسها، وجلال دورها، في حماية الدولة الإسلامية المترامية الأطراف.

من هنا لا بد من الاعتراف بأنني واجهت صعوبات كثيرة، منها تشتبه النصوص التاريخية في العديد من المصادر والمراجع، فكنت التقط الرواية التاريخية الخاصة بموضوعي من بطون الكتب بعد جهد شاق.

علمًا بأن ظروف سكني الخاصة دفعتني إلى البحث عن تلك المصادر بشق الأنفس، لأنني أتنقل بين محافظات أربيل والموصل وبغداد، وقد أخذ مني كل ذلك الكثير من الجهد والوقت.

وفي الختام أرجو أن أكون قد وفقت في إنجاز هذا البحث، ولو بعض التوفيق من أجل أن تكتسب هذه الدراسة أهمية بين الدراسات التاريخية التي أخذت تحتل مكانتها اللائقة في المكتبة العربية الإسلامية، ولست ممن يدعى الكمال لكل جوانب البحث، ولني في ذلك عذر، وحسبني أن أردم الثغرات التي تكشف مساره مستقبلاً إن شاء الله، وشفيعي في ذلك قول العmad الأصفهاني: «إني رأيت أنه لا يكتب أحد كتاباً في يومه إلا قال في غده: لو غير هذا لكان أجمل، وهذا من أعظم العبر، وهو دليل على استيلاء النص على جملة البشر».

شمل الموضوع دراسة أربعة فصول، بحث في الفصل الأول: صاحب البريد تعريفه لغة واصطلاحاً، فضلاً عن معالمه وتطوره التاريخي، وسماته وواجباته. ثم يتطرق البحث إلى أنواع البريد البري والبحري والجوي.

أما الفصل الثاني فقد بحث فيه استخدامات البريد في المجالات الخاصة بال الخليفة والخلافة معاً. فضلاً عن توظيف البريد في المجالات العسكرية التي تحكم بسير المعارك ورسم نتائجها.

وأما الفصل الثالث، فقد عرضت بتعريف صاحب الخبر وواجباته وأنواعه. ثم تأتي بعده أقسام صاحب الخبر، ابتداء من الوزير والوالى وصاحب الشرطة. ثم يتطرق البحث إلى دراسة أنواع أصحاب الأخبار ومهامهم بدءاً بالوزراء والقضاة والعسكر والفقهاء والشعراء، ثم رفع التقارير عنهم إلى الخليفة.

وأخيراً قدم الفصل الرابع دراسة موضوع العيون والتّجسس على

العامة، ثم دراسة وسائل أخرى، كالدسّ والتنكر والمراصد والمسالح، واستنطاق الوفود والتجار القادمين من الأقاليم بشأن ما يجري في أرجاء الخلافة الإسلامية. وكذلك تكليف الغلمان والجواري والنساء في سلك المراقبة والترصد لتصييد الأخبار التي تهمّ أمن الخلافة العباسية وسلامتها من المخاطر.

تحليل المصادر

أجد من الواجب لإكمال هذه الدراسة أن أعرض بالنقد والتحليل لأهم المصادر والمراجع التي اعتمدت، والتي قدمت مادة جيدة لاستكمال هذه الدراسة تاركةً ذكر أسماء المصادر والمراجع الأخرى ومؤلفيها في قائمة المصادر في آخر البحث.

يعد المؤرخ أبو الفضل أحمد بن طاهر الكاتب المعروف بابن طيفور (ت: ٢٨٠ هـ / ٩٣٨ م)، وكتابه (تأريخ بغداد) أحد المصادر الأساسية، إذ أunanني هذا الكتاب على التعريف بصاحب البريد والخبر ودورهما في مراقبة ومتابعة أخبار الوزراء والأمراء وأصحاب الجسور والنساء، إلا أنه من ناحية أخرى اهتم بنشر أصحاب الأخبار على أربعاء بغداد لمتابعة العامة وإيصالها إلى الخليفة بغية اتخاذ ما يلزم بشأنهم.

وانتفعت من أحمد بن يعقوب بن جعفر بن وهب المعروف باليعقوبي (ت: ٢٩٢ هـ / ٩٠٥ م) في كتابه (تأريخ اليعقوبي) الذي احتوى معلومات خاصة عن العلوين ومتابعاتهم ومطاردتهم من قبل الخلفاء العباسيين لا سيما محمد وأخيه إبراهيم، ومن سار سيرتهم كأحمد بن عيسى وأحمد بن يحيى بن زيد.

ويقف كتاب (تأريخ الرسل والملوك) للطبراني (ت: ٣١٠ هـ / ٩٢٢ م)،

بلا جدال في مقدمة المصادر التاريخية التي اعتمدناها، فإن روایاته اتسمت بالدقة أحياناً، ويتحدث عن صاحب البريد والخبر وعلاقتهما بال الخليفة ورفع تقاريره إخبارية عن الوزراء والولاة والمراسد والخانات إلى حاضرة الخلافة العباسية في بغداد، بغية الاطلاع عليها، هذا فضلاً عن متابعته لأسعار المواد والسلع يومياً وإرسالها إلى العاصمة.

وهو يتناول أخبار المعارضين للسلطة والزنادقة والبرامكة، ثم يستمر في الإشارة إلى دور العيون والتجسس على مناوئي الدولة، واستخدام طريقة التنكر في استقصاء أخبار الرعية. إن ما قدمه الطبرى، كان المادة الأولى والمصدر الأفضل لتبني أحداث فترة هذه الدراسة.

أما المسعودي (أبو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي ، ت: ٢٤٦ هـ / ٩٥٧ م)، في كتابه (مروج الذهب ومعادن الجوهر) فكان ظهيراً لإظهار البحث بالصورة التي ظهر بها، لتطرقه إلى معلومات تمثل في إيراد روایات عديدة عن متابعة صاحبي البريد والخبر أخبار كبار موظفي الدولة ابتداءً بأصغر مسؤول فيها. هذا فضلاً عن ذكر حركات المعارضة للسلطة والزنادقة.

ومن المؤرخين وكتبهم المنتفع بها في إعداد البحث، جاء كتاب الجهيسياري، وهو أبو عبيد الله بن عبدوس (ت: ٣٣١ هـ / ٩٢٣ م) وإذا أغني كتابه (الوزراء والكتاب) الرسالة بالعديد من الروایات التي تحدثت عن دور أصحاب الأخبار من خلال مراقبة الخاصة بتکلیف من الخليفة شمل أبناء الخليفة أيضاً، وليس لأحد من الولاة والعمال على صاحب البريد حكم ولا سلطة وله ديوان خاص في حاضرة الدولة. ثم يتطرق المؤرخ إلى أخبار صاحب الشرطة والرقاء التي توزع في أرباع بغداد، وإيصالها إلى صاحب الخبر للاطلاع عليها قبل رفعها إلى الخليفة، فضلاً عن استخدام البغال والإبل في البريد. وحين ينتقل إلى الرشيد، فإنه يولي اهتماماً خاصاً بعقوبة

البرامكة وأسبابها، فضلاً عن استنطاق الوفود والتجار القادمين إلى حاضرة الخلافة، بغية معرفة أخبار الراعي والرعاية.

أما أبو الفرج الأصفهاني علي بن الحسين بن محمد القرشي الأموي الكاتب (ت: ٩٦٦ هـ / ٣٥٦ م) فإن كتابه (الأغاني) هو من أشهر الكتب التي عالجت نواحي شتى منها أخبار المعارضة العلوية والزنادقة والشعراء وأصحاب الجسر والعسكر، من خلال التقارير التي يرفعها أصحاب البريد والخبر والعيون عن تحركاتهم ونشاطاتهم المعادية للخلافة العباسية.

وانتفعت بكتابه الآخر وهو (مقاتل الطالبيين) الذي احتوى معلومات كثيرة عن العلويين، و موقف الخلفاء العباسيين منهم، وإيراده الأحداث التي ألمت بالعلويين بشيء من التفصيل.

واستفادت من ابن القاسم عبد الله بن الخراساني الملقب بابن خرداذبة (ت: ٨٩٧ هـ / ٢٨٠ م) فقد ركز على صفات صاحب البريد وواجباته ثم تعينه من قبل الخلفاء.

ويعقوب بن إبراهيم الملقب أبا يوسف (ت: ١٩٢ هـ / ٨٠٧ م) وكتابه (الخرجاج) تحدث عن سمات صاحب البريد، والشكاوى التي ترفع في بعض الأحيان ضده، هذا فضلاً عن متابعة أخبار الزراعة والزراعة ومرتبات الجندي، التي كان يرفعها بشكل تقارير دورية إلى مقام الخليفة بغية الإطلاع عليها.

وما زالت حلقات سلسلة المؤرخين تتتابع وينضم إليها القاضي التنوخي أبو علي المحسن بن علي بن محمد (ت: ٣٨٤ هـ / ٩٩٤ م)، إذ يؤكد في كتابه (الفرج بعد الشدة) حيث كان الخلفاء يكلفون أصحاب البريد والأخبار بمراقبة الوزراء ومن على شاكلتهم من كبار موظفي الدولة برفع تقارير إخبارية عن نواياهم، ويشمل دورهم أيضاً متابعة الرقاع التي توزع في أرباع بغداد من قبل المعارضة، جاهداً في جمعها، ومن ثم إيصالها إلى مقام الخليفة.

وفي كتابه الآخر (نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة)، يكاد يدرج نفس المعلومات المتوافرة في كتب المؤرخين.

فضلاً عما سبق من المؤرخين ومؤلفاتهم، استفدت من مسكونيه أبي علي أحمد بن محمد مسكونيه الخازن (ت: ٤٢١ هـ / ١٠٣٠ م) عبر كتابه (تجارب الأمم وتعاقب الهمم) فقد ركز على قضايا معينة ذات صلة بالمعارضة كالقراطمة، وتحدث عن البريد الجوي لا سيما الحمام الزاجل في نقله الرسائل وربطها بأجنبته إلى الأماكن المعدّة لذلك، أضف إلى ذلك أنه كان يقوم بمتابعة أخبار الوزراء والقضاة وأصحاب العسكر من خلال التّجسس عليهم.

أما قدامة بن جعفر وهو أبو الفرج الكاتب البغدادي (ت: ٣٢٠ هـ / ٩٣٢ م) وكتابه (الخرج وصنعة الكتابة)، فقد اهتم بسمات صاحب البريد ومعالمه، ومعرفة أحوال الخراج والضياع من خلال صاحب الخبر.

وهناك مؤلف مجهول، غير أن مجھوليته لم تمنع من الانتفاع بكتابه (العيون والحدائق في أخبار الحقائق) إذ أورد فيه كثيراً من أخبار أصحاب البريد والخبر التي تكررت في المؤلفات السابقة، فضلاً عن متابعة شؤون المسالح والمراسد.

وتستمر حلقة أخرى في سلسلة المؤرخين الذين اعتمد البحث عليهم، تمثل بابن الجوزي وهو أبو الفرج عبد الرحمن بن علي (ت: ٥٩٧ هـ / ١٢٠٠ م)، وكتابه (المنتظم) الذي يمتاز بانفراده بمعلومات وافية عن جوانب لم يشبعها غيره من المؤرخين لا سيما الروايات التي تتحدث عن الطير والظواهر الطبيعية، وإبراز دور السعاة في إيصال الأخبار من الأقاليم إلى مركز الخلافة في فترة البويميين.

وهناك مؤرخ آخر كان ظهيراً للبحث بالصورة التي ظهر بها، وهو عز الدين ابن الأثير (ت: ٦٣٠ هـ / ١٢٣٢ م)، وكتابه (الكامل في التاريخ)،

فالكتاب يكاد يدرج المعلومات نفسها المتوافرة في كتب المؤرخين، هذا فضلاً عن متابعة أخبار الرعية والعسكر من خلال وضع العيون والثقات والجواسيس في الأنصار وحاضرة الخلافة العباسية، عن طريق إيصال البريد أخبار هؤلاء وما يدور هناك من الأعمال والأمور التي تمسّ أمن الخلافة.

أما القلقشendi (ت: ١٤١٨هـ / ٢١٨م) في كتابه (صبح الأعشى في صناعة الإنسا)، فإن أهمية رواياته أفادتني في حقل البريد وأنواعه، ولم تقتصر أهمية هذا الكتاب على هذه الناحية بل زودنا بمعلومات قيمة عن الأبراج والبراجين.

وتجنباً لإنفصاله وعدم اتساع المقام لذكر أسماء المؤرخين والباحثين ومصادرهم، لكثرتها آثرت الاستغناء عن الإسهاب والإفاضة، وقصرت الأمر على الإشارة إليهم بصورة مقتضبة مكتفيّة بذكر أسمائهم ومؤلفاتهم التي استقى البحث المعلومات المتعلقة به بقدر أو باخر: الخطيب البغدادي (ت: ٦٤٦هـ / ١٠٧٠م) وكتابه (تأريخ بغداد)، وابن خلkan (ت: ٦٨١هـ / ١٢٨٢م) وكتابه (وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان)، وابن خلدون (ت: ٨٠٨هـ / ١٤٠٥م) وكتابه (تأريخ ابن خلدون)، وابن أعثم الكوفي (ت: ٣١٤هـ / ٩٢٧م) وكتابه (الفتوح)، وابن قتيبة (ت: ٢٧٦هـ / ٨٨٩م) وكتاباه (إمامية والسياسة) و(عيون الأخبار)، والجاحظ (ت: ٢٥٥هـ / ٨٦٨م) وكتاباه (الحيوان) و(التاج في أخلاق الملوك) وياقوت الحموي (ت: ٦٢٦هـ / ١٢٢٨م) وكتاباه (معجم البلدان) و(معجم الأدباء)، وابن كثير (ت: ٧٧٤هـ / ١٣٧٢م) وكتابه (البداية والنهاية في التاريخ)، والحنبي (ت: ١٠٨٩هـ / ١٦٧٨م) وكتابه (شدرات الذهب في أخبار من ذهب)، وعبد الرحمن بن سبسط قنيلتو الإربلي (ت: ٧١٧هـ / ١٣١٧م) وكتابه (خلاصة الذهب المسبوك).

ولقد بذلت ما في وسعي من جهد لإنفادة من المعاجم والقواميس،

لتوضيح بعض المفردات التي تستوجب الشرح وإزالة الغموض لمعالم البريد، أو اسم مهنة مندرسة أو وسيلة مستعملة في المراقبة والترصد.

أما بخصوص المراجع الحديثة، فقد أمدتني بعضها بمعلومات كثيرة وساعدتني في تعزيز ما ورد في هذه الرسالة التي تفاوتت في أهميتها، ومن هذه المراجع، محمد حسين الأعرجي (جهاز المخابرات في الحضارة الإسلامية)، وكتاب نعمان بن ثابت (الجندية في الإسلام) ونظير سعداوي وكتابه (نظام البريد في الدولة الإسلامية)، وأبو زيد شلبي وكتابه (تاريخ الحضارة الإسلامية والفكر الإسلامي)، وعلي حسين المسرى وكتابه (تجارة العراق في العصر العباسي).

ومما لا مناص منه والالتفات إليه وعدم إغفال دوره، هو الرجوع إلى بعض المراجع المعاصرة التي لعبت هي الأخرى دورها الملحوظ في إخراج هذه الرسالة، بالشكل الذي نراه اليوم. فضلاً عن الاعتماد على بعض المراجع الأجنبية، لا سيما الإنكليزية التي رأيت من الصواب الانتفاع بها طمعاً في إغناء الرسالة.

كمالاً لأهم المقالات المنشورة في بعض المجلات العلمية ومادتها عموماً تكرار لما أوردته المصادر والمراجع التي سبقت الإشارة إليها. وقد تمت الاستعانة بها لتوضيح بعض الجوانب المماثلة في البحث، ومن الله التوفيق.

قائمة

بالمسافات المستعملة آنذاك^(*)

- ١ - الفرسخ = ٣ أميال.
- ٢ - الميل = ٤ آلاف ذراع.
- ٣ - الذراع = ٣ أشبار.
- ٤ - البريد = ٤ فراسخ.
- ٥ - المرحلة = ٦ فراسخ وثلاثة فرسخ.

(*) انظر: ابن رسته، الأعلاق النفيسة، ص ٢٢. شيخ الربوة، نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، ص ١٣. ياقوت، البلدان، ج ١، ص ٢٥-٣٩.

لليل بالرموز المستخدمة في الكتاب

- ١ - ت : توفي.
- ٢ - ج : الجزء.
- ٣ - مج : المجلد.
- ٤ - ق : القسم.
- ٥ - ص : الصفحة.
- ٦ - ط : الطبعة.
- ٧ - هـ : الهجري.
- ٨ - مـ : الميلادي.
- ٩ - دـ.ت : بدون تاريخ.
- ١٠ - دـ.مـ : بدون مكان.
- ١١ - مـ.نـ : المصدر نفسه.
- ١٢ - Ibid : المرجع نفسه.
- ١٣ - Op. cit. : المرجع السابق نفسه.

الفصل الأول

البريد أنواعه وواجباته

أولاً : مهني البريد وتطوره التاريخي

أ - البريد لغة واصطلاحاً

ب - محالم البريد

ج - التطور التاريخي للبريد

ثانياً : صاحب البريد سماته وواجباته

أ - سماته الأساسية

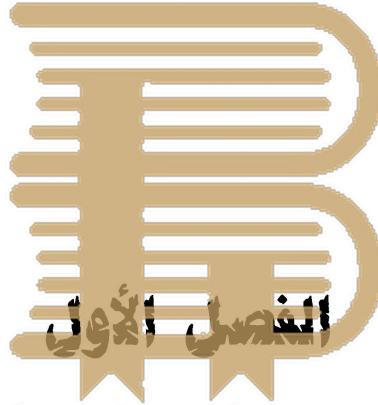
ب - واجباته

ثالثاً : أنواع البريد

أ - البريد البري

ب - البريد الجوي (الحمام الراجل)

ج - البريد البحري وإشعال النار



shiabooks.net
البريد أنواعه وواجباته

أولاً: معنى البريد وتطوره التأريخي:

أ- البريد لغةً واصطلاحاً:

تعني كلمة البريد لغةً: مسافة معلومة مقدرة باثني عشر ميلاً، واحتج بذلك الجوهرى بالبيت التالي^(١):

فدىك غراب البوم أمي وخالتى وناقتى الناجي إليك بريدُها!

يريد بذلك سيرها في البريد.

وقد أجمعـت المصادر على أن المسافة بين محطة بريد وأخرى أربعة فراسخ، والفرسخ ثلاثة أميال أي اثني عشر ميلاً كما مر^(٢).

(١) الرازى، مختار الصحاح، (الكويت: ١٩٨٣م) ص ٢٧. ابن منظور، لسان العرب، (بيروت: ١٩٥٦م) ج ٣، ص ٨٢. القلقشندى، صبحى الأعشى فى صناعة الإنسـاـن، (القاهرة: ١٩٦٣م) ج ١٤، ص ٤٤١.

(٢) ابن طباطبا، الفخرى، ص ٨٨. أبو زيد شلبي، تاريخ الحضارة الإسلامية والفكر الإسلامي (القاهرة: ١٩٦٤م) ص ١٣٨. أحمد شلبي، موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية (القاهرة: ١٩٧٨م) ج ١، ص ٤١٩. بطرس البستانى، محـيـطـ المـحيـطـ، (بيـرـوـتـ: ١٩٧٧م) ص ٤.

وأختلف المؤرخون في أصل الكلمة البريد، فقال بعضهم: إنها من أصل عربي من الفعل (برد) إذا ثبت، لأنه يأتي بما تستقر عليه من الأخبار^(١). وذهب بعضهم إلى أنها فارسية معربة، وأصلها بالفارسية (برده ده م)، وبمعناها مقصوص الذب^(٢). وذلك لأن ملوك الفرس كان من عادتهم أنهم إذا استعملوا بغلًا في البريد قصوا ذنبه^(٣)، للدلالة على كونه من بغال البريد، فيتعرّف الناس على هويته وماهية عمله^(٤). وأنشد الجوهرى لامرئ القيس: على كلّ مقصوص الذنَبِي معاود بريد السُّرَى بالليل من خيل بربرا^(٥) ويبدو أن العرب اهتموا بالبريد منذ فترة مبكرة والدليل على ذلك ما أشار إليه امرؤ القيس في البيت أعلاه.

ويرى آخرون أن الكلمة مقتبسة من اللاتينية ولفظها *Verdus*، ومعناها خيل البريد أو حصان البريد أو ناقل البريد أي ساعيه، ثم تحور معناها بعد تطور استعمالها، فأطلقت الكلمة على النظام البريدي بعد أن كانت تطلق على البريد ذاته على ما بينهما من تماثل للمتفحصين^(٦).

(١) القلقشندى، صبح، ج ١٤، ص ٤١٢.

(٢) الأصفهانى، تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء، (بيروت: ١٩٦١م) ص ٣٨. آدم متز، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ترجمة عبد الهاذى أبو ريدة (القاهرة، ١٩٥٧م) ج ٢، ص ٤١٠.

(٣) القلقشندى، صبح، ج ١٤، ص ٤١٢. آدم متز، المرجع السابق، ج ٢ ص ٤١٠. نعمان ثابت، الجنديبة في الدولة العباسية (بغداد: ١٩٨٧م) ص ٤٠. عبد المنعم ماجد، تاريخ الحضارة الإسلامية (بغداد: ١٩٨٤م) ص ٣٧.

(٤) القلقشندى، المصدر السابق، ج ١٤، ص ٤١٢.

Laposte Oux dans L'empire des Chevaux Savaget Leipzig, 1964, Mamelouks, Paris, 1941, p.100.

عبد المنعم ماجد، تاريخ، ص ٣٧. أبو زيد شلبي، تاريخ، ص ١٣٩.

(٥) القلقشندى، صبح، ج ١٤، ص ٤١٢. عبد المنعم ماجد، تاريخ، ص ٣٧.

(٦) بارتولد، تاريخ الحضارة الإسلامية، ترجمة حمزة طاهر (القاهرة: ١٩٦٨م) ص ص =

ويشير ابن طباطبا إلى نظام البريد، ويوضح أن العرب كانت تجعل خيل مضمرات على أهبة الاستعداد في أماكن متعددة، بقصد نقل الأخبار المستعجلة إلى غياتها بالسرعة المستطاعة حال وصولها، وكثيراً ما يستعان بأفاس أخرى إذا أنهك الفرس التعب من جرّاء السير السريع، وهكذا كانت تستمر حالة التبديل والاستبدال كلما شعرت وسائل النقل هذه بالإنهاك والتعب، إلى أن تبلغ الغاية وراءها في نقل العاجل من الأخبار إلى المعين بها^(١)، وكان القائمون على شؤون البريد يضعون الإرساليات البريدية المتمثلة في الأموال والأخبار الخاصة بالمستجدات من الأحوال في أماكن أمينة حفاظاً على سلامتها وكتم سرها^(٢).

إن أصل الكلمة البريد عربي بناءً على الإشارات التي وردت في مصادر التاريخ والأدب العربي. وعلى سبيل المثال نورد رأي الخليل بن أحمد الفراهيدي الضالع في أسرار اللغة والعليم بدقة أسرارها والخير بكنياتها. إذ يقول: إنها مشتقة من برد بمعنى ثبت وأبردته: أرسلته. وقولهم اليوم بارد سموه أي ثابت^(٣).

أما تنظيم البريد فقد أفرد له المسلمون ديواناً خاصاً في الحاضرة يسمى ديوان البريد، حيث ترد إليه الكتب والرسائل من مختلف الأمصار

= ٩٢١، ٩٣٩. أحمد مختار العبادي، قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام، (الإسكندرية: ١٩٨٢م) ص ٢١١. هامilton جب، دراسات في حضارة الإسلام، ترجمة إحسان عباس، (بيروت: ١٩٦٤م)، ص ٦٥. هارتمان، دائرة المعارف الإسلامية (القاهرة: ١٩٦٩م) مج ٧، ص ١٧٩. عبد المنعم ماجد، تاريخ، ص ٣٧.

(١) ابن طباطبا، الفخرى، ص ٨٨.

(٢) غودا فرا، النظم الإسلامية، ترجمة د. فيصل السامر، د. صالح الشمام، (بيروت: ١٩٦١م)، ص ١٩.

Nikita Elipessed: Lorient Musulman and Moyen Age, 1977, p.150.

(٣) الفيومي، المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، صحيحة مصطفى السقا، (القاهرة: ١٩٥٠م) ج ١، ص ٤٩. القلقشندي، صبح، ج ١٤، ص ٤١٢.

والنواحي، ثم تُعرض بعد فرزها على الخليفة للبت فيها وإصدار التوجيهات بقصد ما ينبغي فعله إزاءها^(١).

وكان لصاحب البريد أيضاً مقره في قصبات الإقليم^(٢)، وكان لكل مدينة صاحب خبر وبريد ينهون أخبارهم إلى صاحب البريد بناحيةهم^(٣). ولم تقتصر وظيفة البريد على نقل الأخبار والمستجدات من الأحوال الرسمية، بل شملت القيام بأعمال الشرطة السرية، إذ عُرف رجاله بالعيون كما عُرف رئيسهم بصاحب الخبر^(٤). هذا فضلاً عن القيام بنقل الأخبار المتصلة بشؤون العمال والفرق الصغيرة المعادية لكيان الدولة عن الجند^(٥)، وكذلك ممارسة النشاطات الاستخبارية عند اقتضاء الضرورة^(٦). كما كان يشرف على نقل أمتعة البلات وعماله بغية التعرف على محتوياتها^(٧) والتثبت من خلوها مما يمس أمن الدولة والأمصال^(٨).

(١) قدامة بن جعفر، الخراج وصناعة الكتابة، شرح وتعليق، د. محمد حسين الزبيدي (بغداد؛ ١٩٦٠م) ص ١٨٤. البحترى، ديوان البحترى، تحقيق، حسن كامل الصيرفى (القاهرة: ١٩٦٣م) ج ١، ص ٥٢١.

(٢) النرشخي، تاريخ بخارى، ترجمة، أمين عبد المجيد بدوى، نصر الله مبشر (القاهرة: ١٩٦٥م) ص ٤٤.

(٣) ابن حوقل، صورة الأرض (بيروت: د.ت) ص ٣٦١.

(٤) العباسى، آثار الأول في تاريخ الدول، (القاهرة: ١٢٩٥هـ) ص ٨٢. المقرizi، الموعظ والاعتبار بذكر الخطط والأثار، (بيروت: ١٨٥٣م) ج ٤، ص ٨٨.

(٥) هارتمان، دائرة، مج ٧، ص ١٧٩-١٨٠.

(٦) هارتمان، دائرة، مج ٧، ص ١٧٩-١٨٠. عبد المنعم ماجد، تاريخ، ص ٣٧.

Boissannads, Le Lravildan, L'Europe Chrétienne au Moyen Age, Paris, 1921, p.66.

(٧) عماد الدين الأصفهانى، الفتح القسي في الفتح القدسى، تحقيق محمد محمود صبيح (القاهرة: ١٩٦٥م) ص ١٧٧. عبد المنعم ماجد، تاريخ، ص ٣٧. هارتمان، السابق، مج ٧، ص ١٧٩.

(٨) القلقشندي، صبح، ج ١، ص ٣٦٦، ٣٩٨. المقرizi، الموعظ، ج ١، ص ٣٦٦ -

لقد اعتمد العاملون في مضمار البريد لنقل مواد البريد المادية والمعنوية على وسائل متعددة كالدّواب وبخاصة الخيل والجمال والبغال وفقاً لمقتضيات الأحوال وطبيعة الأرض، كما استعان البريد بالحمام الزاجل في حالة تعذر إرسال الأخبار، لوجود طوارئ وموانع تحول دون تحقيق البعثة بريًّا وهذا ما يشبه البريد الجوي في عصرنا الحاضر، وقد عرف هذا النوع من الحمام بجناح المسلمين^(١)، ثُم نقل الرسائل خاصة عند البوهيميين والفااطميين والقراطمة^(٢).

لقد حقق البريد تطوراً مطرداً رويداً حتى وصل إلى مستوى جيد في العصر الأموي واستقر بناءه بعد أن وضع الخليفة الأموي معاوية بن أبي سفيان الأسس الخاصة لنظام البريد وجعله تابعاً لنظام التراسل^(٣). ثم إن الخليفة عبد الملك بن مروان مضى به نحو التطور المتدرج بعد أن أحكم تلك الأسس ووضع له قواعد جديدة^(٤)، ويشير البعض إلى أن ذلك النظام منقول عن البيزنطيين الذين كانوا يطلقون عليه اسم الطريق العام^(٥).

= ٣٦٧. العمري، التعريف بالمصطلح الشريف، (القاهرة: ١٣١٢هـ)، ص ١٨٤ . حسين علي الداقوقى، نظام البريد في الحضارة العربية، مجلة المورد العدد (١) المجلد (١٨)، ١٩٨٩م، ص ٨٧. حسن إبراهيم، تاريخ الإسلام (القاهرة: ١٩٦٧م) ج ٢، ص ١٦٩.

(١) الأصفهانى، الفتح، ص ١٧٧. هارتمان، دائرة، مج ٧، ص ١٧٩-١٨٠. كامل مصطفى، رجال المخابرات في التراث العربي، آفاق عربية (بغداد: ١٩٨٢م) العدد (٧)، ص ٦٧.

(٢) محمود إسماعيل، تاريخ الحضارة العربية الإسلامية (الكويت: ١٩٩٠م) ص ٧١.

(٣) السيوطي، الوسائل إلى مسامرة الأوائل، تحقيق الدكتور أسعد طلس (بغداد ١٩٥٠م)، ص ٩٨.

(٤) القلقشندى، صبح، ج ١٤، ص ٣٦٨، ٣٩٨. المقرizi، الخطط، ج ١٦، ص ٣٦٦-٣٦٧.

(٥) حسين علي الداقوقى، نظام، ص ٨٨. مولوى حسين، الإداره العربية، ترجمة د.

وقدِيماً لم يكن البريد مؤسسة عامة تقدم خدماتها إلى المواطنين جمِيعاً، وإنما كانت حكراً على الدولة وكأنها سلاح من أسلحتها المختلفة التي تستعين بها على البقاء والنمو والدفاع والهجوم وما إلى ذلك من وسائل المحافظة على بقاء الدولة وديمومتها وجودها^(١).

أما جهاز البريد أيام العباسين استقر بناءه وأفرد له ديوان خاص من بين الدواوين التي كانت تخضع للإدارة المركزية في بغداد، وتجسد طبيعة عمله في نقل الأخبار بين الولايات والمركز والأمور المتعلقة بالموظفين في تلك الأمصار والولايات ومتابعة ما يجري فيها^(٢)، وكان على رأس هذا الجهاز مسؤول يسمى (صاحب البريد) وظيفته تلقّي الأخبار وتلخيصها وإيداع تلك التلخيصات في مخزن حفظ الوثائق المعروف بالأرشيف في يومنا هذا^(٣).

إن أهم غرض يهدف إليه عمل البريد هو إيصال أوامر الخلفاء إلى ولاتهم في الأمصار وبالعكس، ثم توسيع مهمات البريد فجعلوا صاحبه عيناً للخلفاء، فهو فضلاً عن نقله الأخبار كان بمثابة رقيب على الولاة والعمال يترصد أخطاءهم ويحصي حر كاتهم ويسجل نشاطاتهم ملخصاً كل ما وقع تحت أنظاره ليرفع به تقريراً إلى الخليفة يتفحص ما ورد فيه، ويتخذ الإجراء المناسب بتصديه، وفضلاً عن ما سبق كان صاحب البريد يتजسس على الأعداء للتعرف على ما يبيتونه من التوايا السيئة التي تسهدف النيل من الخلافة، فيتأهب عندها الخليفة لدرء الأخطار، ويُستتتج من ذلك، أن أحد

- إبراهيم العدوبي (القاهرة: د.ت) ص ٣٣٢. حسين إبراهيم، تاريخ، ج ٢، ص ٢٧٠.

(١) حسين إبراهيم، تاريخ، ج ٢، ص ٢٧٠. أبو زيد شلبي، تاريخ، ص ١٣٨. عبد المنعم محمد حسين، دولة السلجوقة (القاهرة: ١٩٧٥م)، ص ١٤٨.

Von Kremer: Culturges Chichte des Orients Unterden Chalifen, 2 Bände Wienna, 1875-1877, p.333.

(٢) محمود إسماعيل، تاريخ، ص ٧٢.

(٣) حسين علي، البريد، ص ٨٨. حسن إبراهيم، السابق، ج ٢، ص ٢٧٠.

أغراض البريد في تلك الأونة كان شبهاً بدائرة المخابرات العامة في عصرنا الحاضر^(١).

ومما يستحق التنبيه إليه والاستقرار عليه، هو أن صاحب البريد، لم يكن بوسعي الانفراد والنهوض بكل تلك المهام البريدية، بل كان يؤازره موظفون آخرون أنيطت بهم إدارة بعض شؤون البريد بحسب صلاحيات كل فرد لما يسند إليه، وهم يعملون تحت إشراف صاحب البريد، مستجيين لتوجيهاته عاملين بإرشاداته ساعين إلى مد السلطة المركزية^(٢) بالمعلومات عن العمال والولاة في مختلف الولايات والنشاطات المعادية إن وجدت في بقعة من أرجاء الخلافة^(٣)، وبذلك يعذّون بمثابة عيون على هؤلاء وأولئك الأمر الذي كان يحفّز العمال والولاة على توخي الدقة في التحرك والتصرف طلباً للنجاة من الوقع في الشرك المنصوب حولهم من قبل الخليفة^(٤).

ولا يقتصر عمل صاحب البريد على ذلك فقط، بل تعداده إلى تلبية رغبة الخليفة في شخصه وإنفاذ جيش يهمه أمره إلى جهة معينة. مما يتطلب منه معرفة الطرق والسكك بحيث يجب أن يكون لديه إلمام ومعرفة تامة به^(٥).
كان صاحب البريد أشد تخوفاً من الخليفة أو الأمير، ولذلك يجب

(١) حسن إبراهيم، تاريخ، ج٢، ص٢٧٠. أبو زيد شلبي، ص١٣٨. عبد المنعم محمد حسين، تاريخ، ص١٤٨.

Von Kremer: Ibid, p.333.

(٢) فيليب حتّي وأخرون، تاريخ العرب، (بيروت: ١٩٧٤م)، ص٣٩٢.

(٣) كامل مصطفى، رجل المخابرات، العدد (٧)، ص٦٢. مولود حسيني، الإدارة، ص٣٣٢.

(٤) عريب، صلة تاريخ الطبري، دي غويه (ليدن، بربيل: ١٨٩٧م) ص٦٢. مولود حسيني، السابق، ص٣٣٢. أحمد أمين، ظهر الإسلام (القاهرة: ١٩٦٢م) ج٢، ص٢٥٥.

(٥) قدامة، الخراج، ص١٨٥.

عليه أن يكتب عن كل ما يمس أمن الدولة أو الإمارة بسوء أو يعرضها للخطر، وعليه أن يعي مسؤولياته بأمانة وإخلاص ولا يكتوم عن السلطة ما تحتاجه من الأخبار لئلا يتعرض صاحب البريد لخطر العقوبة^(١).

بـ- معالم البريد:

أما معالم البريد فتتمثل في كون صاحب ديوان الإنشاء بالأبواب السلطانية متولياً أمر البريد ومنفذًا أمره في الإيراد والإصدار، وكان للبريد ألواح مصوغة من الفضة وأمر التعرف بها منوط بكاتب السر بالأبواب السلطانية، وتعتبر تلك ألواح شارة البريد الخاصة في العصر العباسى^(٢)، وهي عبارة عن قطعة من الفضة بقدر كف اليد تعلق على أكتاف العمال، مكتوب على إحدى صفحاتها البسملة واسم الخليفة، وعلى الأخرى آية من التنزيل الحكيم وهي ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾^(٣).

وكان إذعان أرباب المراكز لصاحب البريد يترتب على مشاهدة هذه الشارة، فهي بمثابة الهوية التي تثبت الانساب إلى ذلك الديوان فتسليم إليه اللوازم البريدية ومتطلقاتها فينطلق بها إلى حيث ينبغي الانطلاق إليه والعودة منه^(٤)، والشارة ما زالت معلقة على كتفه لإثبات هويته وتحديد وظيفته وبعد

(١) ابن طيفور، تاريخ بغداد (بغداد: ١٩٤٩م) ص ٦٤. مسكونيه، تجارب الأمم وتعاقب الهمم (اليدن: ١٨٧١م) ج ٦، ص ٤٥٣.

(٢) قدامة بن جعفر، الخراج، ص ١٨٤. البحتري، ديوان، ج ١، ص ٥٢١. محسن محمد حسين، الجيش الأيوبى، ص ١٧٣. محمد جمال الدين سرور، تاريخ الحضارة الإسلامية في الشرق (القاهرة: ١٩٦٥م) ص ١٠٢.

(٣) القرآن الكريم، سورة الأحزاب، الآية: ٤٥. القلقشندي، صبح، ج ١٤، ص ٤١٠. جمال الدين، الموسوعة الفلسطينية (دمشق: د.ت) ج ١، ص ٣٨٩.

(٤) ابن الأزرق، بداعن السلوك في طبائع الملك، تحقيق، الدكتور سامي النشار، (بغداد: ١٩٧٧م) ج ٢، ص ٥٢. أبو زيد شلبي، تاريخ، ص ص ١٣٨، ١٤٠.

الانتهاء من أداء المهمة البريدية يتم تسليم الشارة إلى ديوان الإنشاء^(١): وزيادة في التنبه عليه إبراز هوية العمل البريدي، إذ كانوا يعلقون الجلاجل في أنفاق الدواب بقصد إعلام الناس بوصول البريد أو مروره^(٢).

ومن معالم البريد الأخرى وجود مراكز ومحطات بريدية تفصل بينها مسافات معينة تحدد بفرسخين أي ستة كيلومترات في الوقت الحاضر، وأحياناً بأربعة فراسخ وهي مزودة بالمأكولات والمشرب وبعد مناسب من الخيول والبغال والإبل المخصصة لخدمة البريد، مع كميات وافية من علف الدواب^(٣).

فضلاً عن وجود أبراج بريدية خاصة مهمتها نقل البريد الجوي عن طريق الطيور، ويصح أن يطلق على هذا النوع من النشاط البريدي (البريد الطائر) وكانت تلك الأبراج منفصلة عن بعضها، بمسافة محددة وفيها موظفون مختصون بالنشاطات البريدية ويسمون البراجين نسبة إلى عملهم^(٤).

فضلاً عن ما سبق فهناك وظيفة تمثل في إرشاد صاحب البريد والموظفين والمرتبين إلى السكك وهذا العمل يقوم به أشخاص موظفون يسمون الفراونقين^(٥).

(١) القلقشندي، صبح، ج١٤، ص٤١٧.

(٢) ابن الداية، المكافأة، (القاهرة: ١٩٤١م)، ص٤٧. نعمان ثابت، الجندي، ص٤٢.

(٣) الجهشياري، الوزراء والكتاب، (القاهرة: ١٩٣٨م) ص٤٢، ١٢٦. المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، (لبن: ١٩٠٦م) ص٦٦. جهادية القره غولي، العقلية العربية في التنظيمات الإدارية والعسكرية في العراق والشام خلال العصر العباسي الأول، (بغداد: ١٩٨٦م)، ص١٢٤.

(٤) القلقشندي، صبح، ج١٤، ص٤١١. أحمد مختار العبادي، قيام دولة المماليك ص١٧٠.

(٥) الفرقن، كلمة معربة عن برونك الفارسية معناها منذر أو دليل. انظر: نعمان ثابت، الجندي، ص٤٥.

لقد بلغ اهتمام العباسين بالبريد حداً كبيراً ويلوح هذا الاهتمام للنظر في دقة التخطيط ورصد الأموال وتوفير الوسائل له ضماناً لسرعة وصول الأخبار من الأمصار إليها، فقد بلغ عدد السكك البريدية في عهدهم نحو من (٩٣٠) سكة وبلغت نفقات الدواب وأثمانها وأرزاق الموظفين (١) ١٥٩١٠٠ دينار في السنة الواحدة.

كما كان البريد مقسماً إلى ثمانية خطوط كبرى أي عمومية، وذلك بين العاصمة والولايات التابعة لها (حلب، الشام، الحجاز، اليمن، مصر، العراق، أرمينية، حدود فارس) ومع هذا الاتساع، فقد كانت الأمور سائرة بكل دقة في مواعيد السفر والوصول، وكان لكل خط مشرف (فرنق) يلاحظ سير الساعة والخيالة وحالة المحطات وهؤلاء المشرفون بمثابة مفتشين يتولون تيسير شؤون البريد^(٢)، وهم مسؤولون عن رفع تقارير يضمونها كل صغيرة وكبيرة حول هذه الخطوط إلى الإدارة العامة في بغداد^(٣)، ثم يقوم الرئيس العام بتلخيص مضامين تلك التقارير بغية تقديمها إلى الخليفة لينظر في أحوال البريد وعماله ويصدر الأوامر بتعيين الرؤساء، وتحديد رواتبهم، وكانت للبريد لوائح عمومية تحتوي على قوانين البريد وسير العمل وجغرافية الطرق وبيان الأسفار^(٤).

ومنما أشارت إليه المصادر أنه كان للديوان المركزي في بغداد فروع في أنحاء الدولة، خصصت له المبالغ الطائلة لتهيئة وسائل النقل السريعة كالنوق

(١) نعман ثابت، العسكرية في عهد العباسين (بغداد: ١٩٨٧م) ص ٤٠. حسن إبراهيم، تاريخ، ج ١، ص ٨٥. جرجي زيدان، تاريخ التمدن الإسلامي، مراجعة حسين مؤنس (القاهرة: ١٩٢٤م) ج ١، ص ٢٢.

(٢) فخرى الزيبي، هارون الرشيد، (بغداد: ١٩٨٨م)، ص ٦٢.

(٣) نعمان ثابت، الجندي، ص ٤٥. حسن إبراهيم، تاريخ، ج ١، ص ٤٠.

(٤) نعمان ثابت، العسكرية، ص ٢٧٠.

الخفيفة السير والبغال النشطة والحمام الزاجل مع إصلاح الطرق وبناء
المحطات وإقامة الجسور^(١).

وكان مواعيد سفر عمال البريد يعلنها المؤذنون على أبواب المساجد
والأسوق وال محلات العامة^(٢)، وكانوا يسجلون وصول البريد في دفاتر
تسمى الإسكندر^(٣).

ويذكر الطبرى: «إن طرق العراق كانت مقسمة إلى محطات سكك
وفيها بدلات من الدواب والراكبين ويقدر طول ما بين المحطتين
بفرسخين أو أربعة فراسخ»^(٤).

وقد استخدمت الخرائط في البريد، إذ كان صاحب البريد مسؤولاً عن
ديوان (الخرائط)^(٥) أحياناً، لذلك سمي صاحب البريد والخرائط^(٦).

كما استخدمت الأختام في البريد، فكانت الرزم البريدية ترتيب على
أشكال أسطوانية وتحتم بالشمع وترزم. وإن شمع العمل المستخدم في إسبانيا
لختم الرسائل يقابل في الشرق نوع من الشمع الأحمر المماثل لما يستخدم
حالياً في صناعة الأختام، وكان يستورد عن طريق سيراف، حيث كانت

(١) عبد الجبار الجومرد، دائرة العرب أبو جعفر المنصور، (بيروت: ١٩٧٦)
ص ص ٣٢٢-٣٢٣.

(٢) نظير حسان سعداوي، نظام البريد في الدولة الإسلامية، (القاهرة: ١٩٥٣)
ص ص ٦٩، ٧٠، ٨١.

(٣) الخوارزمي، مفاتيح العلوم، (القاهرة: ١٣٤٢هـ)، ص ٦٣.

(٤) الطبرى، تاريخ الرسل والملوك، (القاهرة: ١٩٦٦م)، ج ٨، ص ٨١.

(٥) الخرائط: عبارة عن وعاء من أدم أو دياج أو خزف أو ليف هندي أو خيش أو نحوها،
يشرح على ما فيه ويوضع في داخل هذه الخرائط كتب الولاية والعمال أو الدرام التي
ترد إلى العاصمة أو غيرها. انظر: الصابى، رسوم دار الخلافة (بغداد: ١٩٦٤م)،
ص ١٨.

(٦) الصابى، تحفة الأمراء، (القاهرة: ١٩٥٨م)، ص ١٥٩.

لقد تأصل الاهتمام بالبريد في نفوس الخلفاء العباسيين، فأفردوا له رعاية خاصة بغية اجتياز الحوادث المترادفة باطمئنان وسلام، ولم يقتصر عمل البريد على الأغراض المدنية ضمن إطار أرجاء الخلافة، بل انسحب نشاطاته على مضمار الحروب^(١) والشاهد على ذلك ما فعله الخليفة المهدى، عندما قام ابنه هارون الرشيد بغزو الروم، إذ أنشأ خطًّا بريديًّا خاصًّا بينه وبين معسكر أبيه، يوا فيه بكل ما يستجد من الأحداث والأنباء المتصلة بها، ليكون على بينة من الأمر عن كثب، وحين قفل نجله راجعًا ألغى ذلك الخط لانتفاء الحاجة إليه^(٢).

ومما تقدم يصبح بالإمكان إدراك كون البريد مطلوبًا ومهمًا في الحقلين المدنى والعسكري على السواء.

وبعدما تحول المهدى إلى قصره المسمى (عيسى آباد)^(٣) سنة (١٦٦هـ / ٧٨٢م)، أمر بإنشاء خط يريد تتجه شعبه إلى مكة والمدينة وإلى اليمن، لاصطياد الأخبار ومعرفة الأحداث ذات الاتصال بالتأثير على الخليفة والخلافة سلباً وإيجاباً^(٤)، والعودة بها إلى الحاضرة ليقوم بفرزها صاحب البريد الذي كان بمثابة صمام الأمان لحياة الخليفة ومصير الخلافة عن طريق غربلة هذه الأنباء وتقديم تقارير دقيقة تحمل إلى الخليفة ما ينبغي الإطلاع عليه ومن المعروف تاريخياً أن الخليفة المهدى هو أول من أقام الخط البريدي للربط بين العراق والحجاز تيسيراً للإطلاع السريع على الأمور^(٥).

= أبو زيد شلبي، تاريخ، ص ١٤١.

(١) القلقشندى، صبح، ج ١٤، ص ٤١٤.

(٢) الطبرى، تاريخ، ج ٨، ص ١٥٢.

(٣) عيسى آباد، محلة كبيرة كانت بشرق بغداد منسوبة إلى عيسى بن المهدى. انظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، (بيروت: د.ت) ج ٤، ص ١٧٢.

(٤) الطبرى، تاريخ، ج ٨، ص ١٦٨. فخرى الزبيدى، هارون الرشيد، ص ص ٦١-٦٢.

(٥) الطبرى، تاريخ، ج ٨، ص ١٦٨. ابن كثير، البداية والنهاية في التاريخ، (القاهرة: =

وتجدر بالذكر الإشارة إلى حادثة تكاد تكون فريدة النمط في نوعها، وهي ركوب الهدى من جرجان إلى بغداد قاطعاً المسافة خلال عشرين يوماً آتياً بالبريد إلى عاصمة الخلافة، وهذا الحدث غير مسبوق إليه إذ لم يمارس على امتداد تاريخ الخلافة، ولا من قبل ولا من بعد وذلك عام (١٦٩هـ / ٧٨٥م)^(١)، ولا غرابة فيما إذا انطلق الفكر محللاً هذه الفعلة اليتيمة، إذ قد يكون وراء الأكمة ما ورائها من أمر عجيب يتطلب القيام به على هذا المستوى المرموق كي لا ترعب أصحاب الشأن المخاوف التي قد تكون ضاربةً بأطناها في أغوار النفوس وترغمهم على خوض معركة الصراع مع أطواط العزم الشامخ إن بقي الجبل على الغارب، وترك السبيل أمامها فيستبد شعار الذعر بالقلوب. وما يحمل على الاعتقاد المستفيد من التحليل هو أن الخليفة الهدى أراد بفعله، قطع دابر تفاقم حجم المسألة قبل استفحال أمرها. فأقدم على ما أقدم عليه، حرصاً على صيانة الحكم مما يتربص به من عاتيات الأمور في المقبل من الأيام^(٢).

ولما آلت مقاليد الخلافة إلى الرشيد، وغدت طوع بنانه ذكره (يحيى ابن خالد البرمكي) بما أقدم عليه أبوه في تطوير الأنظمة البريدية. وتشعب فروعها قائلاً «لو أن أمير المؤمنين أمر بإجراء على ما كان عليه صار صلاحاً لملكه، فاستحسن الرأي فأمر بترتيبه على نهج السالفين ومنهم الأمويون، جاعلاً البغال في المراكز البريدية بصورة تستجيب للضرورات بلا عجز. ولم يكن بمقدور أحد الاقتراب مما ينبلج البريد بين أرجاء الخلافة إلا الخليفة وصاحب البريد ابتغاء السرية التامة وحجب الأخبار عن التداول من قبل من

= (١٩٣٢م) ج ٩، ص ٤٩. السيوطي، تاريخ الخلفاء، تحقيق محمد أبو الفضل، (القاهرة: ١٩٧٥م) ص ٢٧٣.

(١) الطبرى، تاريخ، ج ٨، ص ١٨٩. البافعى، مرآة الجنان، تحقيق، عبد الله الجبورى، (بيروت: ١٩٨٤م)، ج ١، ص ٣٧٢.

(٢) الطبرى، تاريخ، ج ٨، ص ١٨٩.

لا يمت إليه بالصلة^(١). ويدرك أنه ورد على الرشيد كتاب صاحب البريد بخراسان^(٢). وكان يحيى بن خالد البرمكي مائل بين يديه، جاءه فيه أن الفضل بن يحيى تشغل بالصيد والإدمان على الملذات، ونأى بجانبه عن النظر في أمور الرعية، فلما قرأه الخليفة دفعه إلى يحيى، وقال له: اقرأ هذا الكتاب ثم وجه إليه كتاباً رادعاً يحمله على الإقصاء عما هو فيه، وما كان من يحيى إلا أن مد يده إلى دواة الخليفة الرشيد، وكتب إلى الفضل على ظهر كتاب صاحب البريد ما مؤداه «حفظك الله يابني ومتعني بطول بقائك، لقد انتهى أمر ما أنت عليه إلى أمير المؤمنين من التشتاغل بالصيد ومداومة غرف الملذات والركض وراء مصادر الملذات مهملاً النظر في تعريف شؤون الرعية حسب مقتضيات الوظيفة، والواجب يحتم عليك الإقلاء عما أنت إليه ونبذ هذه الممارسات التي لا تليق بك فعد إلى ما يزينك وكف يديك عما يشينك وكتب في أسفل الكتاب أبياتاً من الشعر تحثه على الرجوع إلى سبيل الصواب المضفي إلى الرشد تاركاً خلفه المثالب التي تنتقص من قيم الرجال وشيمهم^(٣). والخليفة الرشيد ينظر إلى ما يكتب ولما فرغ يحيى بن خالد، قال له: أبلغت يا أبتي وهذا نداء كان الرشيد يخص به يحيى لعلو مقامه عنده، وما إن ورد الكتاب إلى الفضل حتى اعتكف في المسجد طوال نهاره يقلب النظر فيما بدر ونادماً ما صدر منه، موطداً العزم على عدم الالتفات إلى سابق أيامه لا من قريب ولا من بعيد^(٤).

(١) القلقشندي، صبح، ج١٤، ص٤١٤. هارتمن، دائرة، مج٧، ص١٨٠.

(٢) خراسان، بلاد واسعة أول حدودها يلي العراق وآخر حدودها ما يلي طخارستان وغزنة وسجستان وكرمان. انظر: ياقوت، معجم البلدان، ج٢، ص٣٥٠. اليافعي، مرآة الجنان، تحقيق، عبد الله الجبوري، (بيروت: ١٩٨٤م)، ج١، ص٤٣٧.

(٣) المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، (القاهرة: ١٩٤٨م)، ج٣، ص٣٧٧.

(٤) الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، حيدر أباد، (الدكن: ١٩٣١م) مج١، ج١، ص٣٣١-٣٣٢. أحمد فريد الرفاعي، عصر المأمون، (القاهرة: ١٩٢٨م)، ج١، ص١٤٠.

وتشير هذه الحادثة إلى أن المواقف كانت لها أصدائها في النفوس طابعة إياها بمسحة الاستجابة الفورية للأحداث، والدليل على ذلك هو إقدام يحيى السريع على تناول دواة الرشيد، والكتابة على ظهر كتاب صاحب البريد ولو لم يكن الأمر كذلك لنهض يحيى من مقامه وذهب لجلب الدواة والقرطاس من مكان آخر، دون أن يجرأ على ما أقدم عليه في حضرة الخليفة الرشيد، لكن الأمر كان جسيماً إلى الحد الذي أذهل يحيى وحمله على أن يأتي بما أتى به استجابةً لجلال الموقف بناء على الإيحاءات النفسية التي أوحت له بذلك.

ومما لا يرتاب فيه مرتب، هو أن للبريد دوراً فعالاً لا يمكن التغافل عنه، وهذا عين ما أدركه الخليفة الأمين، لذلك لجأ إلى توظيف دور البريد في خلع أخيه المأمون عن طريق الاطلاع بما يتصل به من أسرار وأخبار.

ومما يروى أنه أبلغه صاحب البريد قتل ابن ماهان قائد جيشه وما لحقت به من هزيمة مرة ناجمة عن عدم مصداقية الموقف لكون أنصاره موسومين بختم الموت على أيدي الخصم، وهو منهمك باصطياد السمك، قال لصاحب البريد: «ويلك! دعني، فإن كوثراً قد اصطاد سمكتين، وأنا ما اصطدت شيئاً بعد...»^(١) ولم أظفر بطائل مما أنا بصدده، وأطلق هذه العبارات والندم يعصر قلبه ويحصر نفسه في أضيق دائرة وتتأجج نيران الندامة في باطنـه على خلع أخيه، وطمع الأـماء فيه مع كونـه قد فرق عليهم أموالاً طائلـة دون جدوـي، وقد أـسرـفـ في الإنفاقـ إلى حدـ أـوشـكتـ الخزانـةـ معـهـ علىـ الإـفـلاـسـ^(٢).

وهذا يشير إلى أن المال إن كان قادرـاً على خلقـ المعجزـاتـ في مقـامـاتـ

(١) الطبرـيـ، تاريخـ، جـ٨ـ، صـ٣٩٥ـ. اليـافـعيـ، مرآـةـ الجنـانـ، جـ١ـ، صـ٤٥٢ـ.

(٢) ابنـ السـاعـيـ، مـختـصـرـ أـخـارـ الـخـلـفـاءـ، (الـقـاهـرـةـ: ١٣٠٩ـهـ)، صـ٣٦ـ. الـذـهـبـيـ، العـبـرـ فـيـ خـبـرـ مـنـ غـبـرـ، تـحـقـيقـ، صـلاحـ الدـينـ الـمنـجـدـ، (الـكـوـيـتـ: ١٩٦٠ـمـ)، جـ١ـ، صـ٣١٧ـ.

معينة فإنه أقل شأنًاً من أن يستحوذ على الإرادة وسلبها، إن لم يكن مشفوّعاً رمّيًّا بتطوير الأذهان ونوعية العقول وتغذيتها بما ينسجم مع إسناد دور المال لخلق الموقف المراد، في كل الأحوال والتبيّنة الصائبة المترتبة على هذا الرأي مائلة للعيان يمكن الإحساس بها دون كبير عناء فلو كان الإنفاق قادرًاً على توطيد الاتصال والوصول في كل حين وأن لبرز دوره في تحلي أنصار بن ماهان بدرجة أعلى من رباطة الجأش والثبات على الموقف وعدم التخلّي عن القائد عند الضرورات أمر نابع عن عظيم القيم ونبيل الشيم فأين كان أولئك من ذلك^(١).

ولما تولى الخليفة المأمون زمام السلطة، لم يكن أقل اهتمامًا بالبريد من سابقيه ، وتروي المصادر التاريخية أن أبا سعيد العلاف حين اتصل الخليفة المأمون لشأن من الشؤون وجده بصحبة أخيه المعتصم وهما جالسان على نهر البدندون، واضعين رجليهما في الماء^(٢) فلما أبصرتهما على هذا الحال هممّت المشاركة معهما ففعلت ما كانا يفعلان بعد تلقّي أمر منهما يضفي إلى ذلك وطفقت أتلوا عليهم شيئاً مما تيسّر من التنزيل الحكيم، وما إن فرغت من التلاوة المباركة، حتى بادر قائلًا هل ذقت يا سعيد أذب من هذا الماء الزلال وأبرد منه قط وأردف متابعاً قوله أتحب أكل رطب أزاد، وبينما نحن نتجاذب أطراف الحديث، وإذا بخيول البريد مقبلة وعلى ظهورها حقائب مملوءة بالألطاف، ولما رأى الخليفة تلك الخيول سأل من فوره قائلًا: هل هم حاملون رطب أزاد العراق، فأجاب بنعم، ثم حملوا إليه سلتين وشرعوا يأكلون منها وينهلون من ذلك المنهل العذب^(٣).

(١) الطبرى، تاريخ، ج٨، ص٣٩٥. ابن الساعى، مختصر، ص٣٦. الذهبي، العبر، ج١، ص٣١٧.

(٢) الطبرى، تاريخ، ج٨، ص٦٤٥. مؤلف مجهول، كتاب العيون والحدائق في أخبار الحقائق، (لدين: ١٨٧١م)، ج٣، ص٣٧٧-٣٧٨.

(٣) الطبرى، تاريخ، ج٨، ص٦٤٥. غرس النعمة الصابى، الھفوات، تحقيق، الدكتور =

ويستتتج مما سبق أن الخليفة كان على اتصال وثيق بالبريد في كل حين وأن بما فيه حله وارتحاله وأذناء إدارته شؤون الرعية، أو الانصراف إلى التمتع بمعالم الحياة الشخصية على السواء. وكان عليه أن يوافيه بكل صغيرة وكبيرة بما فيها جلب الفواكه الشهية إلى الخليفة دون النظر إلى الوقت وحالة الخليفة الذاتية فلولا الاتصال الوثيق المنوه به قبلًا، لما اهتدى صاحب البريد إلى مكان تواجد الخليفة بهذه الدرجة من اليسر^(١).

وفي عهد الخليفة العباسي المعتصم (٢١٨-٢٢٧ هـ / ٨٤١-٨٣٣ م) نال البريد اهتماماً خاصاً حيث أولاً الخليفة الجديد اهتمامات عديدة، وتتجلى تلك الاهتمامات فيما حصلت عليه الخلافة من نتائج إيجابية في حل معضلة (بابك الخرمي)، سنة ٢٢٣ هـ / ٨٣٧ م، إذ وظف البريد في هذه المسألة خير توظيف. فقد كان الخرمي منهمكاً في قيادة حركة مناوئة للخلافة العباسية، فأقر المعتصم قائده الأفشين بمعادرته وتزويد الخليفة بكل تحركاته أولاً بأول إلى أن وقع في الشرك وألقى عليه القبض ثم قتل، وكان الذي استدرجه وأوقع به أحد الرعاة^(٢).

وقد نال الخرمي جزاءً وفاقاً على ما اقترفت يداه ضد سلطة الخلافة، وغدا عبرة لمن لم يعتبر على مر الزمان، ويبدو من دراسة الرواية السابقة، أن ذلك الراعي لم يكن إلا أحد العيون المنبثة في طول البلاد وعرضها من قبل صاحب البريد، وإلا كيف تسنى لمن يمتهن الرعي القيام بتلك المهمة الصعبة التي ألت القبض على أكبر معارض للدولة^(٣).

وفي زمن الخليفة المقتدر (٢٩٥-٣٢٠ هـ / ٩٣٢-٩٠٧ م) أيضاً خطأ البريد خطوة هامة على طريق تقصي المعلومات من مصادر متعددة وغاية

= صالح الأشتر، (دمشق: ١٩٦٧ م)، ص ١٨٣-١٨٤. الحنبلي، شذرات، ج ٢، ص ٤٢.

(١) الطبرى، تاريخ، ج ٨، ص ٦٤٥. مؤلف مجهول، العيون، ج ٣، ص ٣٧٧-٣٧٨.

(٢) الطبرى، تاريخ، ج ٩، ص ٥٢-٥٤. ابن كثير، البداية، ج ١٠، ص ٢٨٤.

(٣) الطبرى، تاريخ، ج ٩، ص ٥٢-٥٤. ابن كثير، البداية، ج ١٠، ص ٢٨٤.

ما ابتغاه البريد جمع الأخبار واستقصاء الأسرار من خلال معلمي الصبيان الذين كانوا يسألون أولاد الجندي عما يقوله ويفعله آباؤهم في منازلهم أثناء فترة إجازاتهم، ثم يرفعون التقارير الدقيقة عن كل ما تجمعت لديهم من مكونات الأسرار إلى الخليفة للاطلاع عليها، وبالتالي استئصال الشر من مكمنه، وسوق مركب السلطة إلى مأمنه، وكان هذا الأمر مناطاً (بشفيع اللؤلؤي) المتقلد ديوان البريد في بغداد آنئذ^(١).

وعند استحواذ البوبيهيين على مقاليد الأمور في العراق، التفتوا نحو البريد لإدراكهم دور هذه المؤسسة الخطيرة وتأثيرها على سير السلطة في مختلف جوانبها، فصبووا جل اهتمامهم على استثمار البريد إلى أقصى حد ممكن رغبة منهم في الوقوف على جميع شؤون الدولة^(٢).

وكان المراسلات تجري بين الخليفة والأقاليم التابعة له، وعند ورود الرسائل كان الأمير البوبي يلتقط أهمها ويرسل البقية إلى ديوان البريد لتوزيعها على المعنيين بها، وكثيراً ما كانت الرسائل المهمة تقرأ على عضد الدولة، فيردُ على الحساس منها بنفسه، ويأمر كتابه بالرد على التي أقل منها شأناً، وبعد ذلك تختتم وتحمل إلى ديوان البريد بعد إجراء التصحيحات إن لزم الأمر ذلك، ثم تصدر إلى الجهة المرادة^(٣).

وكان الأمير البوبي يراقب وصول البريد في الوقت المحدد له، فإن تأخر حاسب المقصرين، علماً بأن الأخبار الواردة عن طريق البريد من شيراز^(٤) إلى بغداد، كانت تستغرق سبعة أيام، فضلاً عن الرسائل وكان البريد يحمل الفواكه الطريئة إلى الأمير البوبي^(٥).

(١) مسکویه، تجارب، ج١، ص٢٤.

(٢) ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم (بغداد: ١٩٩٠م)، ج٧، ص١١٥.

(٣) م.ن، ج٧، ص١١٥.

(٤) شيراز، بلد عظيم مشهور، وهو قصبة بلاد فارس في الإقليم الثالث، انظر: ياقوت معجم البلدان، ج٣، ص٣٨٠.

(٥) ابن الجوزي، المنتظم، ج٧، ص١١٥.

ثانياً: صاحب البريد - سماته وواجباته:

أ- سماته الأساسية:

كان يشترط في اختيار البريدي أن توفر المميزات الضرورية والملحة التي تؤهله لاعتلاء ذلك الموقع الحساس كالكفاءة والأمانة والذكاء والصدق^(١) في الفعل والقول والاستجابة السريعة لتلقي التوجيهات والتوصيات والعمل على تنفيذها بلا تردد إضافة إلى التعقل المفضي إلى امتلاك الخبرة والتجربة الثرية والقدرة على الفهم والاستيعاب وسرعة التفاعل مع المستجدات والتمكن من تنسيق الكلام جرياً على قواعد اللغة ومقتضياتها والتفنن في الصياغة لإخراج العبارة منمقة جذابة تسحر المخاطب وتستميل قلبه إلى ما يملئ عليه، فياخذ بشغاف فؤاده ويستحكم أثره في نفسه. فضلاً عن السلامة الفكرية وصحة المزاج، على أن يتوسّم فيه التمكن من البيان الجلي ولين الطبع والبراءة من الطمع^(٢) تغلب عليه المنعة بعد اكتسابه المناعة ضد المغريات فضلاً عن عزة النفس والاعتزاز بها وعدم الانزلاق في مهاوي الجشع والخداع، مع الاتسام بالقدرة على كتمان السر وستر العورات وكف اللسان عن الكذب والفضول^(٣).

والصفة الغالبة على البريدي هي قوة الأجسام والمعرفة بالسبيل والفجاج في طول البلاد وعرضها زيادة في التحوط من التعرض للمساوي أثناء الانتقال من مصر إلى مصر وإقليم إلى إقليم^(٤).

(١) أبو يوسف، الخراج، (القاهرة: ١٩٣٣م)، ص ١٨٦. قدامة بن جعفر، الخراج، ص ٥٠-٥١.

(٢) القلقشندى، صبح، ج ١، ص ١٥١.

(٣) السبكي، معيد النعم ومبيد النقم، تحقيق محمد علي النجار وأخرون، (القاهرة: ١٩٤٨م)، ص ٣٢.

(٤) ابن الأزرق، بدائع، ج ٢، ص ٥٢٠.

ومن موالصاته أيضاً أن يكون ملماً بأسماء المواقع وذكر المنازل ومدركاً المسافات بالفراشخ وغير ذلك مما يتصل بعمله في هذا المضمار بغية الإسراع في إيصال المعلومات البريدية إلى الجهات المراده والعودة بمثيلاتها إلى مراديها وإذا حدث تأثير أو عطل كان له القدرة على تشخيص الأسباب وإيجاد الحلول لتلافيها في القادرم^(١).

ويبدو أن زيادة الاهتمام بالجانب الأمني دفع الخليفة إلى إسناد منصب صاحب البريد ببعض القضاة اعتماداً على الأمانة والثقة ولعل السبب في ذلك يعود إلى كثرة الشكاوى الواردة ضد أصحاب البريد في بعض الأحيان لتمييزهم بين الرعية وتفضيل بعضهم على بعض والانحياز إلى من يحابونهم دون غيرهم وسوء التصرف بالصلاحيات الممنوحة لهم، كما تقتضي بذلك الإشارات التي أوردها القاضي أبو يوسف في كتابه الخراج، ودعا الخليفة إلى تعين أناس ثقات لا تعرف مزايا السوء سبيلها إلى قلوبهم^(٢).

بـ- واجبات صاحب البريد:

من خلال دراسة أوصاف المتولى للبريد تبدو أن مهام وواجبات صاحب البريد كانت جليلة ويمكن تحديد أهمها وهي :

- ١- معرفة الطرق والمسالك وطبيعة الأرض التي يعمل فيها ومناذتها وصيانتها.
- ٢- معرفة طرق الأعداء ومناطق تقربهم وتسليهم.
- ٣- الخبرة بحيل الجواسيس في الدخول والخروج والتّخفي.

(١) م.ن، ج٢، ص٥٢٠.

(٢) أبو يوسف، الخراج، ص١٢٢.

٤- دراسة كتب البريديين في الشعور والولايات والأطراف وعرضها على الخليفة بعد إيصالها بأسرع ما يمكن وبأقصر السبل^(١).

٥- الإشراف على موظفي البريد في المراكز والمحطات وصرف رواتبهم وصرف أرزاقهم وأرزاق دوابهم.

٦- تقليل أصحاب الخرائط مسؤولياتهم^(٢).

٧- نقل الضرائب إلى الخزينة المركزية^(٣).

ومن مقتضيات وظيفته الهامة اطلاعه على جميع الأخبار في كل الجهات بحيث لا تخفي عليه خافية والمقصّر لم يكن يفلت من العقاب المادي والمعنوي، فالعقوبات المادية كانت تفرض على المهمّل بداعف القصور أو جهل بمتطلبات وظيفته، ومن العقوبات المعنوية^(٤) التي أنزلت القصاص ببعض المقصرين قول الشاعر:

وَهَتْكَ بِعَلَّةِ الْحَمَّامِ فَوْزٌ وَهَالَتِ فِي الطَّرِيقِ إِلَى سَعِيدٍ
أَرَى أَخْبَارَ بَيْتِكَ عَنْكَ تَخْفِي فَكَيْفَ وَلِيَتِ دِيوَانَ الْبَرِيدِ^(٥)

يتبيّن مما سبق أن المختار لوظيفة صاحب البريد لم يكن بالمستوى المطلوب لافتقاره إلى سعة المعرفة والخبرة بمجال عمله وعدم اطلاعه بصورة وافية على ما يجري في مؤسسته لذلك لامه الشاعر قائلاً: إذا كنت لا تدرّي ما يجري في زوايا بيتك الصغير فكيف تستطيع أن تلم بما يجري في

(١) A. Mazaheri, Grtacagda, Musliman Larin Yasay islartre, p.105.

(٢) ابن خرداذبة، المسالك، ص ص ١٨٢-١٨٣ قدامة بن جعفر، الخراج، ص ٧٧-٧٨.
محمد جمال الدين سرور، تاريخ، ص ١٠٢.

(٣) ابن الأزرق، بدائع، ج ٢، ص ٥٢٠.

(٤) ابن طيفور، تاريخ، ص ٦٤. ابن الأزرق، بدائع، ج ٢، ص ٥٢٠.

(٥) البحري، ديوان البحري، ج ١، ص ٥٢١.

مؤسسة حساسة كمؤسسة البريد، ومن كان هذا شأنه فكيف يجوز له أن يتولى ما ليس بمقدوره تصريف شؤونه^(١).

وهكذا اهتم العباسيون بصاحب البريد اهتماماً كبيراً لاعتمادهم عليه في ضبط الأقاليم ومعرفة ما يجري بها، فكانوا يكتبون عهداً لصاحب البريد عند توليته زمام الأمور ويوضّعون فيه الخطة التي يجب أن يسير عليها خلال قيامه بالعمل في ديوان البريد^(٢)، كما يصدر في يومها مرسوم جمهوري بتولية كبار مسؤولي الدولة مناصبهم.

وقد ذكر قدامة بن جعفر سنة (٩٢٧ هـ / ١٥٣١ م) عهد ولاية البريد وذكر «أنه يجب أن يعرف حال عمال الخراج والضياع فيما يجري عليه أمرهم ويُتبع ذلك تتبعاً شافياً ويستشفه استشفافاً بليغاً، وينهيه على حقه وصدقه وأمره أن يتعرض حال عمارة البلاد وما هي عليه من الكمال والاختلال، ويجري في أمور الرعية فيما يعاملون به من الإنصاف، والجور والرفق والتعسف، فيكتب به مشروهاً ملخصاً مبيناً مفصلاً. وأمره أن يتعرف ما عليه أحوال الحكام في أحکامهم، وسيرتهم وسائل مذاهبهم...»^(٣). وأمره «أن يتعرف حال دار الضرب، وما يجري عليه مما يضرب فيها من العين والورق. وما يلزم الموردون من الكلف، والمؤمن ويكتب بذلك على حقه وصدقه. وأمره أن يوكل بمجلس عرض الأولياء وأعطياتهم، ومن يراعيه ويطالع ما يجري فيه...، وأمره أن يكون ما ينهيه من الأخبار شيئاً يثق بصحته، ولا يدخل شبهه

(١) م.ن، ج١، ص٥٢١.

(٢) محمد حسين الزبيدي، العراق في العصر البوبي، هـ٣٣٤-٤٤٧، (القاهرة ١٩٦٩ م)، ص٩١.

Von Kremer: Ibid, p.333.

(٣) قدامة بن جعفر، الخراج، ص ٣٥-٣٧. محمد حسين، العراق في العصر البوبي، ص٩٢.

في شيء منه، ويوعز إلى خلفائه وأصحابه أن لا ينهو إليه إلا ما يثبتونه أو كانوا على ثقة...»^(١).

لقد ثبت أن مهمة صاحب البريد لم تقتصر على نقل الأخبار الرسمية فحسب، بل كان بمثابة العين الساهرة والأذن الصاغية للحكام، فكان من واجبه حضور مجالس الناس وولائهم ومجالس الوعظ والأسواق حيث يجري في هذه الأماكن ما ينبغي الاطلاع عليه^(٢)، مستعيناً بجوايس مهرة حاذقين ينجبوه في أداء مهمته^(٣).

ومن واجبه أيضاً تقديم تقارير سرية بشكل منظم عن حالة الزراعة والزراعة^(٤) وأوقات دفع مرتبات الجندي والاطلاع على مقدار تلك المرتبات وإذا ما كانت قد وضعت عند استحقاق آجالها أو لا^(٥). وعليه أن لا يكتم على الخليفة شيئاً من أمر الناس، وتعزيزاً لهذا المذهب في الرأي نورد قول الصولي. أن (أحمد بن يزيد المهلبي) قال عن أبيه، قلد الخليفة المتوكّل ابن الكلبي منصبي البريد والخبر معاً ثم استحلفه بالطلاق طالباً منه أن لا يخفي عنه شيئاً من أمر الناس ولا من أمره هو ذاته شيئاً، وقد كان عند حسن ظن الخليفة إذ نفذ اليمين حرفيّاً ولم يجترئ على المساس بما عاهد عليه طوال بقائه في منصبه^(٦).

(١) قدامة بن جعفر، الخراج، ص ص ٣٥-٣٧. محمد حسين الزبيدي، العراق، ص ٩٢
محمد جمال الدين، تاريخ، ص ص ١٠٢-١٠٣.

(٢) العباسى، آثار، ص ٨٢. محمد حسين الزبيدي، العراق، ص ٩٢.

(٣) محمد حسين الزبيدي، العراق، ص ٩٢.

(٤) أبو يوسف، الخراج، ص ص ١٨٥-١٨٦. عجمي خطاب الجنابي، هارون الرشيد ومؤسسات الخلافة في عهده، (بغداد: ١٩٨٩م)، ص ٤٢.

(٥) مجموعة مؤلفين، حضارة العراق، (بغداد: ١٩٨٥م) ج ٦، ص ١٤٦ وما بعدها.

(٦) الأصفهاني، الأغاني، تحقيق عبد السلام أحمد فرج، (بيروت: ١٩٦١م) ج ١٠
ص ٥٧. الصابي، الھفوات، ص ٢٩٣.

ولم تقتصر قائمة الواجبات على ما سبق سرده بل يضاف إليها الإشراف على إدارة البريد واستحداث منازل جديدة طبقاً للمتطلبات الجديدة وتوفير الدواب والاستفادة من السفن في مواطن معينة^(١).

مع تولييه أمر (القصداد) وهم الرجال الذين يحملون الرسائل السرية التي يتعدى إرسالها بالبريد زيادة في الحيطة والحرص على مضمونها وخوفاً من وقوعها بأيدي الخصم الذي ينفع بها دون ما ريب أو جدل^(٢)، وكان هؤلاء يسرون ليلاً ويكتمنون نهاراً^(٣) متشددين في التحوط والحذر من الطوارئ غير المحسوبة سلفاً ويطلق على هؤلاء اسم السعاة أو اسم بيك أو فيج^(٤).

ثالثاً: أنواع البريد:

أ- البريد البرّي:

لقد تطور فن استخدام البريد زمن العباسيين تطوراً متناحياً وهادياً وحادياً إياهم إلى موئل لا تخذلهم فيه المعضلات إذ شمل تنامي هذا التطور البر والبحر والجو تفصل بينها مسافات معينة مزودة بالطعام والمؤن وفيها عدد من الخيول الخاصة بخدمة البريد والعاملين فيه^(٥).

وقد قسمت طرق البريد البري إلى محطات تسمى السكك وفي كل مركز أو محطة خيول وبغال مسرّجة ومجهزة لنقل الأخبار والخرائط أو

(١) خدابخش: Islamic Culture، ١٩٢٨م، ص ص ٤٣٣-٤٣٤. فخرى الزبيدي، هارون الرشيد، ص ٦٢.

(٢) منير العجلاني، عقرية الإسلام في أصول الحكم، (دمشق: ١٩٦٣م)، ص ٢٩٩.

(٣) العباسي، آثار، ص ٦٨، ٨٤.

(٤) فيج: جمعه فيوج، فيج هو خادم الديوان الذي يدفع الكتب ويجيء بها والجمع فيوج، والفيج الذي يحمل الكتب من بلد إلى بلد، انظر: Bull Etud Orien, 1952.

(٥) قدامة بن جعفر، الخراج، ص ص ٢٢٧-٢٢٩. د. محمد جمال الدين سرور، تاريخ، ص ٣٠٣.

لتغيير اللوازم، ولم تكن هذه المحطات والسكك متساوية المسافة بل متفاوتة الأبعاد حسب اقتضاء الضرورة طبقاً لبعد مصدر المياه أو بعد القرى عن بعضها حتى أن الساعي كان يجد المركز البريدي الواحد بقدر مركزين بريدين^(١).

وذكر المقدسي أن طول السكة الواحدة في العراق اثنا عشر ميلاً بينما كان طول السكة في الشام وخراسان بقدر ستة فراسخ، وفي خراسان كان على كل فرسخين رباط ورتب فيه أصحاب البريد^(٢).

وكانت للبريد أثناء الخلافة العباسية وسائل متعددة كالدواب وبخاصة الخيل والبغال^(٣)، فضلاً عن استخدام الإبل لنقل البريد مضافاً إلى ذلك استعمال الجمازات وهي الإبل السريعة القادرة على العمل في القفار والصحاري^(٤).

وكان يحق لصاحب البريد استحداث منازل برية جديدة كلما اقتضى إلى ذلك^(٥) وغالباً ما كانت خانات تقام في هذه المراكز للمبيت^(٦).

وقد وصفت المواصلات البرية في العراق بسرعتها لا سيما المتعلقة بالبريد، وقد ذكر الجاحظ بأن الحوادث الواقعة في البصرة والكوفة كانت

(١) القلقشندي، صبح، ج١٤، ص٤١٨. أحمد مختار العبادي، الحمام، ص١٧٠.

(٢) أحسن التقاسيم، ص٦٦. قحطان عبد الستار الحديشي، أربعاء خراسان (البصرة ١٩٩٠م)، ص١٢٨.

(٣) الخوارزمي، مفاتيح، ص٤٢. Laposte aux dans, p.625.

(٤) مسکویه، تجارب، ج٢، ص١٠١. الثعالبي، لطائف المعارف، تحقيق، إبراهيم الأبياري (القاهرة: ١٩٦٠م)، ص١٥.

(٥) خودابخش، Islamic Culture ١٩٨٢م، ص ص ٤٣٣-٤٣٤. حسين علي الداقوقى، البريد، ص٨٨.

(٦) القلقشندي، صبح، ج١٤، ص٤١٨. أحمد مختار العبادي، الحمام، ص١٧٠.

تنقل أخبارها إلى بغداد على جناح السرعة بحيث لا يغيب بياض اليوم حتى تكون الحادثة قد بلغت مرامها دون تأخير^(١).

وكان الخلفاء شغوفين باختيار الجمال لسرعتها الفائقة بالقياس إلى غيرها لا سيما الحجازية منها، وكان المتأول المستعين بهذه الجمال لنقل الأخبار يسمى (النَّجَاب)^(٢).

وبناء على سلامة فطرتهم المبنية على المعرفة بالتضاريس التي تنسجم مع نوع معين من الدواب، فقد كانوا يستعملون البغال في إيران والإبل في المغرب، ولكل من هذين الصنفين من الحيوانات سنته الخاصة المتلائمة مع الطبيعة الجغرافية التي تتطلب العمل فيها وتنقاضي الاعتماد على نوع المختار المنسجم مع القصد المراد ومهما يكن من شيء فإن النظام البريدي ظل مرنًا، فلطالما أقدم الخليفة أو الوزير أو الوالي على تعزيز مركز بريدي وتطويره على طريق معين لأسباب سياسية أو عسكرية وبما أن البريد يعد مرفقاً رسمياً للدولة، فإنه لم يكن يتولى إلا نقل الرسائل ذات الاتصال بشؤون الدولة باستثناء بعض الحالات الشاذة المستثنى من القاعدة^(٣).

ومما يستلزم التنويه به هو أن الحمير كانت وسيلة نقل عمال الدولة من وإلى أماكن عملهم، أما بقية الأصناف من الحيوانات فكانت توظف في الأمور البريدية لتفوقها على المطاي من أوجه عديدة كالسرعة والقوة^(٤).

والذي يتطلب التأكيد عليه هو أن أمراء البويميين كانوا يتroxون السرعة

(١) الحيوان، (القاهرة: ١٩٦٥م)، ج١، ص ص ٩٦-٩٧. حسين علي الداقوفي ، البريد، ص ١٨٣.

(٢) عبد العزيز الدوري، تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري (بغداد: ١٩٤٨م)، ص ١٤٤. حسين علي الداقوفي ، البريد، ص ١٨٣.

(٣) الجهشياري ، الوزراء والكتاب، (بيروت: ١٩٦٤م) ص ٦٧. هارتمن ، دائرة ، مج ٧، ص ١٨١.

(٤) هارتمن ، دائرة ، مج ٧، ص ١٨١.

والّتعجل في التعامل مع الأحداث ومتطلباتها المقتضية والداعية إلى الاستعجال في أمر من الأمور، فكانوا يلجؤون إلى انتقاء أسرع الحيوانات وأقدرها على السير مسافات طويلة فاستعانوا بالجمازات عوضاً عن غيرها بغية تحقيق الغرض المطلوب وليس أدل على ذلك من إقدام (الوزير أبي الفتح ابن العميد) على اتخاذ هذه الوسيلة للّحاق بالأمير ركن الدولة بن بويه في فارس سنة (٣٦٤ هـ / ٩٧٤ م) والضرورة الملजئة إلى هذا التصرف نابعة عن رغبة أولئك البوهيين في تنفيذ المهام لتحقيق الأغراض المنشودة، فلو تيسر لهم أسرع من الجمازات لبادروا إلى إيثاره على غيره، ولكنهم اقتصرتُوا على الاستعانة بها لعدم توفر وسائل أخرى تفوقها سرعة وقدرة وصبراً على احتمال المشاق في تلك الحقبة، وللسبب نفسه استخدموها الجمازات في نقل البريد أثناء الحروب حتى لا تختلف الأخبار المتعلقة بسير المعارك عن ركب الأحداث الناجمة عنها^(١).

ومما لا يرقى الارتباط إليه ويتعذر التردد في قبوله هو أن المعنيين لم يكونوا يقدمون على شيء ذي بال يتصل بالبريد ويخدم تطوره عبثاً أو اعتباطاً بل كانوا يحسبون لكل شيء حسابه بحكم الدراية والخبرة والإدراك السليم فكانوا يضعون كل شيء في موضعه بعد تمحيق دقيق ويتجنبهم التردي في هوة الزلل والخلل، ومن هذا المنطلق أقدموا على رسم معالم الطرق البريدية وحدّوها بشكل مدروس مستفيض وصولاً إلى نتائج سليمة مستعصية على الانتقاد والطعن ومن تلك الطرق البريدية الهامة نذكر الطرق التالية:

أولاً: الطريق الممتد من بغداد إلى المغرب ويمر بالموصل، ثم يخترق أرض الجزيرة إلى سنجار ونصيبين والرقة ومنبج وحلب وحماء

(١) محمد جمال الدين، تاريخ ص ص ١٠٤-١٠٥. وانظر إلى:

وحمص وبعلبك ودمشق وطبرية واللّجون، ومن اللّجون، ثم الرملة وهي قصبة في فلسطين ومنها إلى القاهرة فالإسكندرية ومن ثم إلى الرقة^(١).

ثانياً: الطريق الممتد من بغداد إلى الشام مروراً بالضفة الغربية للفرات ثم الأنبار وهيت إلى دمشق.

ثالثاً: الطريق الممتد من بغداد إلى المشرق ويمر بحلوان وهمدان والري ونيسابور ومره وبخارى وسمرقند، ويمتد من هذه المدينة حتى الوصول إلى الصين^(٢).

ومن باب الحفاظ على عدم انفراط عقد الموضوع فلا بأس من الإشارة إلى أن العباسيين قد استخدمو القصاد في المهام البريدية بمعنى السّعاة^(٣)، إلا أن (المستكفي بالله أول من أظهر السّعاة في بغداد)^(٤)، ومعز الدولة البويمي هو من طور مفهوم السّعاة والأغراض التي يودونها، وبعد أن وقع الصلح بين ناصر الدولة ومعز الدولة وعودة ابن حمدان إلى بلده الموصل، واستقرار أمر معز الدولة في بغداد، شرع معز الدولة باستعمال السّعاة لإبلاغ أخيه ركن الدولة الأخبار الضرورية عند الملمات ابتعاء الاطلاق على مضامينها^(٥). ثم هبوا للتدريب الأشخاص على هذه المهمة فكسب

(١) فخرى الزبيدي، هارون الرشيد، ص ٦٣.

(٢) جهادية القره غولي، العقلية العربية في التنظيمات الإدارية والعسكرية في العراق والشام، (بغداد: ١٩٨٦م)، ص ١٠٠. د. محمد جمال الدين، تاريخ، ص ص ١٠٣-١٠٤. آدم متز، الحضارة، ج ٢، ص ص ٤٠٦-٤٠٧. حسن إبراهيم حسن تاريخ، ج ٤، ص ٣٤٤.

(٣) منير العجلاني، عقريمة الإسلام، ص ٢٩٩.

(٤) السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص ٣٩٧.

(٥) ابن الجوزي، المتنظم، ج ٦، ص ٣٤١. ابن الأثير، الكامل، ج ٧، ص ٢٢. ابن كثير، البداية، ج ١١، ص ٢١٣.

المتدربون الخبرة والمهن على أمثل وجه بحيث صار بعضهم يقطع نيفاً وثلاثين فرسخاً في يوم واحد^(١).

والواقع أن السعاة ظهروا في الشرق لأول مرة في العصر العباسي وكان لهم العداؤون لإيصال الأخبار. وشاع استخدام السعاة في العراق زمن البويهيين وخير دليل على ذلك قول الحسن بن عبد الله إذ يقول: «أهل العراق يتغالون في السعاة»^(٢)، واصفاً إياهم قائلاً: «هم رجال خفاف تعودوا الجري السريع والصبر على المتابع والسير الطويل والقدرة على قطع ثلات مراحل في مرحلة واحدة»^(٣).

إن السعاة قد ظهروا في الشرق أول الأمر في عهد البويهيين بالمفهوم الواسع للكلمة، ودرءاً للغفلة عن الأمر نقول إن العباسيين قد استعنوا بالعدائين لإيصال الأخبار إلى مبتغاها اقتصاداً في الوقت وتوخيأً للانتفاع بمردود فعلهم إيجابياً لأن العدائين كانوا أقدر من غيرهم على أداء المهمة بحكم التمرن والمراس^(٤).

وقد حدث طفرة نوعية استبدت بالإعجاب واستقطبت أنظار الناس في زمن معز الدولة تجسست في بروز ساعيين هما (فضل ومرعش) اللذان فاقا جميع السعاة في حقل عملهما، إذ كان كل منهما يقطع نيفاً وأربعين فرسخاً أي بزيادة عشرة فراسخ على من كان الآخرون يقطعونه في العمل المثير للانتباه حمل الناس على التعصب لهما إعجاباً بتفوقهما غير سابق المثل^(٥). وفي زمن الخليفة القادر بالله عام (٩٩١هـ/١٣٨١م) الذي كان يمشي ذات

(١) م.ن، ج ١١، ص ٢١٣.

(٢) العباسي، آثار، ص ٨٨. محمد حسين الزبيدي، العراق، ص ٩٥. حسن إبراهيم حسن، تاريخ، ج ٤، ص ٤٣٤.

(٣) العباسي، آثار، ص ٨٨. محمد حسين الزبيدي، العراق، ص ٩٥.

(٤) نعمان ثابت، الجندي، ص ٤٢.

(٥) ابن الجوزي، المنتظم، ج ٦، ص ٣٤١. ابن الأثير، الكامل، ج ٧، ص ٢٢.

ليلة في أسواق بغداد، تناهى إلى مسمعه صوت شخص يقول «قد طالت دولة هذا المشؤوم وليس لأحد عنده نصيب»^(١) فأمر خادمه بإحضاره بين يديه، بهدف البطش به، لكنه تريث قليلاً عن إنفاذ القصاص به سائلاً عن مهنته، فرد على الخليفة قائلاً: إني كنت من السعاة الذين يستعين بهم أرباب هذا الأمر على معرفة أحوال الناس، ومنذ تولى أمير المؤمنين تم إقصاؤنا والاستغناء عن خدماتنا فتعطلت معيشتنا وانكسر جاهنا، فاجابه الخليفة أتعرف من هم على شاكلتك من السعاة في بغداد قال: نعم، ثم طلب من الساعي تدوين أسمائهم لإحضارهم وقد فعل ما أمر به، وما كان من الخليفة إلا أن أجرى لكل منهم معلوماً ثم نفاهم جميعاً إلى الشغور القاصية ورتبهم هناك عيوناً على أعداء الدين والدولة، ثم التفت إلى من حوله وهو يقول «اعلموا أن هؤلاء ركب الله فيهم شرّاً وملأ صدورهم حقداً على العالم، ولا بد من إفراغ ذلك الشر فال أولى أن يكون ذلك في أعداء الدين دون أن تنغض بهم المسلمين»^(٢).

بـ البريد الجوي: (الحمام الراجل)

علاوة على ما سبق من بالغ الرعاية التي رصدت للبريد البري فإنهم حيال البريد الجوي أعطوا زيادة في التوخي سرعة نقل الأخبار لأنه الوسيلة الوحيدة المستخدمة لنقل أسرع الأخبار.

وقد أطلقت تسمية البريد الجوي الطائر زمن العباسيين مشيرين بذلك إلى الحمام الراجل الذي شاع استخدامه في نقل الأخبار والرسائل منذ أقدم العصور، ويعدُّ الحمام الراجل^(٣) من أبرز سبل الاتصال البريدي في العصور القديمة والوسطى^(٤).

(١) الكتبى، فوات الوفيات، تحقيق، دكتور إحسان عباس، (بيروت: ١٩٧٣م) ص ٥٩.

(٢) م.ن، ص ٥٩. فخرى الزبيدي، هارون الرشيد، ص ٦٧.

(٣) الأصفهانى، فتح، ص ٣٦٠. فخرى الزبيدي، هارون الرشيد، ص ٦٢.

(٤) آدام متز، الحضارة، ج ٢، ص ٤١٦. إبراهيم العدوى، الحمام الراجل في العصور =

ففي القرن السادس قبل الميلاد أخذ اليونانيون من الفرس استعمال هذه الوسيلة موظفين إياها في الأغراض الرياضية بإطلاقهم الحمام الزاجل أثناء انعقاد المباريات الرياضية لنقل أخبار المباريات بين المدن اليونانية، ثم انتقل فن استخدامه إلى الرومان ولكن للأغراض الحربية، والحالات الطارئة المستعجلة الأخرى الحديثة، نظراً لتمتعه بالذكاء المتميز وسرعة طيرانه واهتدائه إلى وكره دون أن يلتبس عليه الأمر تحت أي ظرف من الظروف التي تعرضه وإن غاب عن موطنه بضع سنين ولذا علا شأنه وارتفع قدره في ميدان البريد، ولكن عنابة المسلمين به فاقت غيرهم من الأقوام المذكورة ويعود لهم فضل تنظيم نقل المعلومات عن طريقه^(١).

ويقول الشاعبي : إن المثل يضرب بدقة اهتمام الحمام الزاجل إلى وكره فحمام الهدى كان معروفاً في الشام والعراق وكان يشتري بأثمان باهظة فيطلق من أصقاع قاصية وهو محمل بالرسائل لإيصالها إلى المكان المراد ثم يعود محملاً بالأجوبة عنها^(٢).

لولا استعمال حمام الهدى في البريد لما جاز أن يعلم أهل بغداد بما يدور في البصرة أو الكوفة في اليوم الواحد، فما كان يحدث غدوة النهار ينطلق خبره إلى المدن الأخرى عشية وهذا مشهود له ومتعارف عليه تأريخياً، وينبغي العلم بأن حمام الهدى هو النوع المخصوص والأعلى قيمة والأعلى رتبة ويعرف بالحمام الرسائلى، الذي اتخذه الملوك لحمل المكاتبات^(٣).

= الوسطى، مجلة تاريخية مصرية، (القاهرة: ١٩٤٩م) العدد (١) مج ٢، ص ١٣٢.

(١) آدم متز، الحضارة، ج ٢، ص ٤١٦. إبراهيم العدوى، الحمام، مج ٢، ص ١٣٢.

(٢) الشاعبي، ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، تحقيق، محمد أبو الفضل، (القاهرة: ١٩٦٥م)، ص ٤٦٨.

(٣) الجاحظ، الحيوان، ج ١، ص ص ٩٦-٩٧. حسين علي المسرى، تجارة العراق في العصر العباسي، (الكويت: ١٩٨٢م)، ص ١٨٣.

وقد اعنى بهذا النوع بنى العباس اعتناءً بالغاً كما ثبت ذلك في روايات تاريخية عديدة، فعلى سبيل المثال أورد مسكونيه رواية تشير إلى التّوسيع في استعماله، ففي كل ساعة كان الحمام يأتي من مختلف أنحاء البلاد عائدًا إلى أو كاره بعد أداء وظيفته، ونذكر من بين الخلفاء العباسين الذين عولوا على استعمال الحمام الزاجل بكثرة الخليفة المعتصم في سامراء^(١)، فعند وقوع الخرمي في قبضة الأفшиين أطلق الطيور من النوع المذكور، وهي حاملة بشري الفتح والانتصار على خصمه فعممه بدوره على الأمصار المختلفة في العالم الإسلامي^(٢).

ومما ذكر عن ذلك الطائر ما أوردته الحميري مفاده أن الناس تنافسوا فيما بينهم على اقتنائه حتى بلغ ثمن الطائر الواحد سبعمائة دينار^(٣)، أما المنسوب إلى خليج القسطنطينية فقد بلغ ثمنه ألف دينار، وكانت البيضة الواحدة لهذا الطائر تباع بعشرة دنانير، ولا تفوتنا الإشارة إلى أن الناس قد احتفظوا بسجلات خاصة دونوا فيها أنسابه للتفریق بين الجيد والأجود حتى بلغ بهم الأمر حدًّا لا يختلف معه الأدنى عن الأعلى في الاهتمام به إذ لم يكن يمتنع الرجل الجليل أو الفقيه أو العدل من اتخاذ بعض منه لأغراض المنافسة بوصف أخبارها وأثارها، ولهذا الطائر متجر خاص في بعض الأقاليم الإسلامية لا سيما البصرة ومصر. وكانت المخابرات والمراسلات متواصلة بواسطته بين الإسكندرية وبغداد، والقسطنطينية والبصرة، وقطع هذه المسافات الطويلة ينفرد به النوع الذي كان ثمنه ألف دينار دون غيره من الأنواع الأخرى^(٤).

(١) مسكونيه، تجارب، ج ٥، ص ٢٩٨. فخرى الزبيدي، هارون الرشيد، ص ٦٢-٦٣.

(٢) ابن النديم، الفهرست، تحقيق، رضا تجدد، (طهران: ١٩٧١م)، ص ٦٤. يوسف حسن غوانمة، التاريخ الحضاري لشرق الأردن في العصر المملوكي، (عمان: ١٩٨٢م) ص ٦٥. محمد جمال الدين سرور، تاريخ، ص ١٠٥.

(٣) الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق، إحسان عباس، (بيروت: ١٩٧٥م)، ج ١٤، ص ٤٣٥. أبو زيد شلبي، تاريخ، ص ١٤٣.

(٤) الحميري، الروض، ج ١٤، ص ٤٣٥. فخرى الزبيدي، هارون الرشيد، ص ٦٢.

ولما كانت تلك الطيور تعامل كسلعة تجارية تستوجب النقل إلى الأمكنة النهائية، فإنهم ابتكروا آلات خاصة لنقلها والإبقاء عليها حية عن طريق عدم تعريضها لموجبات الأذى ومن الجدير ذكره هو أن هذا الطائر لعب دوراً متفرداً وقام بوظيفة نقل الأخبار من وإلى الغابات والأماكن المنشودة أثناء الحروب والحصار مضافة إليها أغراض المدينة وقت السلم^(١).

والبريد الجوي شأنه شأن البريد البري حيث خصّصت له مراكز ومحطات متعددة مقامة ضمن المسافات المطلوبة والمعلومة وانشئت في هذه المراكز أبراج خاصة وكلّ بها موظفون يقومون بأداء أعمالهم خير قيام يعرفون بالبراجين أو الخفراء^(٢)، تمثل وظائفهم في الاعتناء والتدريب والإطعام والإراحة والإطلاق والاستقبال^(٣). وكانت هذه المراكز مزودة بالدواب والأقفال لتوجيه هذه الطيور إلى أماكن شتى علمًا بأن المسافات بين كل محطة وأخرى أطول في الجو منها على الأرض^(٤). ويدرك المؤرخ الروسي بارتولد : إن شبكة من الأبراج أقيمت للحمام الزاجل تمتد إلى مراكش^(٥).

ومما كان يميز الحمام الزاجل من غيره وضع خلاخيل ذهبية في أرجله وألواح مميزة في أغناقه، هذا وكان المسلمون يستعملون أثناء الحروب اصطلاحاً أشبه بما يعرف اليوم بالشفرة فيحملها الحمام تكتب بها الأخبار ثم تعلق على أجنهته^(٦)، وكان الورق المستخدم لهذه الغاية خفيقاً تلافياً

(١) نعمان ثابت، الجنديّة، ص ٤٢. فخرى الزبيدي، هارون الرشيد، ص ٦٢.

(٢) اليوني، ذيل مرآة الزمان، حيدر آباد (الدكن: ١٩٥٤م)، مج ١، ج ٣، ص ٢٦١.
القلقشندى، صبح، ج ١٤، ص ٤٣٦.

(٣) محسن محمد حسين، الجيش الأيوبى في عهد صلاح الدين (بيروت: ١٩٨٦م)
ص ١٨١.

(٤) أحمد مختار العبادي، الحمام، ص ١٧.

(٥) بارتولد، تاريخ، (القاهرة: ١٩٦٢م)، ص ٥١.

(٦) الأصفهاني، فتح، ص ١٧٧. عبد المنعم ماجد، تاريخ، ص ٣٧.

لزيادة ثقل الوزن الذي يجهد الطائر أكثر مما ينبغي، أما سبب العزوف عن الكتابة الصريحة والاستعاضة عنها بالشّفرة، فيعود إلى الاحتفاظ الدقيق بسرية الأخبار المرسلة وعدم السماح للشخص بالاطلاع على الأسرار ولقد نتج هذا الابتكار البديع من طول الخبرة وترانيم المعرفة بشؤون البريد وكيفية التعامل معها طلباً لمزيد من الحيطة والحذر على الصعيد الأمني^(١).

وأما فيما يتعلق بكيفية التعامل وتدریب هذا الطائر^(٢) العجيب فإنهم أقاموا أبراجاً خاصة فوق أسطح المنازل والمباني، بقصد التمرين والتربية^(٣) وكانوا يقسمون الحمام المراد تدريبه إلى مجموعات يتم تمرينها تدريجياً على تعلم سلوك المسالك والطرق، بعد حمله على الاستيعاب الكامل لما يدرّب عليه، وكان المشرفون على التدريب يقضون ساعات طوال تحت الشمس دون الاكتثار للسعة الحرارة، وسلوانهم في ذلك مراقبتهم لتلك الطيور وهي طائرة في أسراب أسراب^(٤).

ولم يقع الاختيار على هذه الطيور من قبل الدول اعتباطاً أو عفو خاطر، بل جاء نتيجة للدراسة بما تسم به لشدة سرعتها وقوتها طيرانها^(٥). وكانوا يتبعون في التدريب أسلوباً مبنياً على تقسيم المسافات إلى مراحل قصيرة بادئ الأمر فكانت تطلق لأول وهلة من مسافة إلى أخرى، ثم يعاد التكرار

(١) الأصفهاني، فتح، ص ١٣٧. عبد المنعم ماجد، تاريخ، ص ٣٧.

(٢) القلقشندي، صبح، (القاهرة: ١٩٦٣م) ج ١، ص ١٥٤. يوسف حسن غوانمه، التاريخ، ص ٦٨.

(٣) الثعالبي، خاص الخاص (القاهرة: ١٩٠٩م) ص ٤٤. ابن الإخوة القرشي، معالم القرابة في أحكام الحسبة، (كامبردج: ١٩٣٧م)، ص ٢١٤. بدري محمد فهد، العامة في بغداد في القرن الخامس الهجري، (بغداد: ١٩٦٧م)، ص ٢٤٠.

(٤) ورام الأشتري، تنبية الخواطر ونرفة النواظر، (طهران: د.ت) ج ١، ص ٩٢. بدري محمد فهد، العامة، ص ٢٤٠.

(٥) الجاحظ، الحيوان، ج ١، ص ٩٧. فخرى الزبيدي، هارون الرشيد، ص ٦٢.

إلى أن تستوعب المسافة المطلوبة، ثم تستأنف التدريب من مسافة تلي سابقتها وتتكرر العملية أيضاً لنفس الغرض إلى أن يتم استيعاب جميع المسافات المراد تدريبيها^(١) عليها، وقد نتج عن هذا الأسلوب تمكين هذه الطيور من الطيران والتحليق في الجو لمسافة تبلغ ثلاثة آلاف فرسخ في اليوم الواحد أحياناً^(٢).

وكانت الطريقة المتبعة لتعليمها الطيران مثيرة للإعجاب فعندما كانت ترسل من مسافات بعيدة تحلق في الجو بشكل مدور لتعلو مختربة كبد السماء تدريجياً، وتنتمر في علوها كي تستطيع مشاهدة موطنها ثم تهبط بالسرعة^(٣)، عند إدراكها بلوغ المرام، لذا استعملها الجماعات السرية فضلاً عن الوزراء والقادة المبيتين النية على حياكة المؤامرات بمعزل عن متناول السلطة المركزية^(٤).

لقد لجأت الحركات المعارضة ضد الخلافة العباسية إلى الاستفادة من الحمام الزاجل على نطاق واسع، ويتجسد ذلك في إقدام حمدان بن الأشعث مؤسس المذهب القرمطي على اتخاذ هذا الطائر في نقل الأخبار من مختلف البقاع إلى مقره في العراق^(٥).

ولقد تكشف الاعتماد على هذا الطائر لنقل الرسائل والمعلومات المهمة إلى المعنيين بها لا سيما في القرن الرابع الهجري وبالتحديد عام (٩٢٥هـ/١٣١٣م) حين اشتد خطر القرامطة على الخلافة العباسية، فاضطر

(١) الجاحظ، الحيوان، ج٣، ص٢١٧. ابن سيده، كتاب المخصص (بيروت: د.ت) ج١٠، ص١٧٠.

(٢) الدميري، حياة الحيوان الكبرى (بيروت: د.ت)، ج١، ص٢٥٨.

(٣) القزويني، عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات، تحقيق فاروق سعد، (القاهرة: ١٩٥٦م)، ص٢٤٦.

(٤) الهمданى، تكميلة تاريخ الطبرى، (بيروت: ١٩٦١م)، ص١٦٣.

(٥) محمد جمال الدين سرور، تاريخ، ص١٥. فخرى الزبيدي، هارون الرشيد، ص٦٢.

إثر ذلك الوزير (علي بن عيسى) إلى تسليم مائة طائر إلى مائة رجل بهدف نقل الرسائل وربطها بأجنحة هذه الطيور لتحملها إلى حيث ينبغي التوجه^(١).

ويشير أحد المؤرخين إلى أن أبا طاهر القرمطي عندما اقترب من الأنبار أنفذ أبو علي بن مقلة صاحبأ له ومعه خمسون طائراً وأمره بالإقامة فيها، لموافاته بالأخبار عن كثب، ففعل ذلك وصارت الأخبار ترد من جهة إلى الخليفة على يد نصر الحاجب^(٢).

و مما تجدر الإشارة إليه، أن البويهيين تفتقروا في الاستعانة بالحمام الزاجل ومن ذلك ما رواه ابن الأثير قوله: «كان بختيار البويمي قد تواطأ مع والدته وإخواته»^(٣) حيث إنه إذا كتب إليهم بالقبض على الأتراك الذين يظهرون أن بختيار البويمي قد مات ويجلسون للعزاء متخدzin من هذا الإجراء مصيدة منصوبة لاصطياد من يراد الإيقاع به من الأتراك، ولما حضر سپكتكين عندهم قبضوا عليه، ثم كتب بختيار إلى الأمراء بعد إنفاذ حيلته ونجاح خطته وعلق المكتوب على أجنحة هذه الطيور يزف إليهم بشري التوفيق فيما كان يصبوا إليه معرفاً إياه بما تحقق من إنجاز مخطط لاصطياد الأتراك وينم هذا العمل عن البراعة في التدبر والتَّدبير والتَّصرف والتَّصريف^(٤)؟

ولقد كانت الرسائل لا تستغرق وقتاً طويلاً في الوصول من الرقة والموصل وواسط والبصرة والковة إلى بغداد من البويهيين بواسطة تلك الطيور بحيث لم يتجاوز الوقت يوماً وليلة في كل الأحوال^(٥).

(١) مسكونيه، تجارب، ج٥، ص٢٩٨. محمد جمال الدين سرور، تاريخ، ص١٠٥.

(٢) ابن الأثير، الكامل، (القاهرة: ١٣٠٣هـ)، ج٨، ص٥٧. محمد جمال الدين سرور، تاريخ، ص١٠٥.

(٣) محمد جمال الدين سرور، تاريخ، ص٥٧.

(٤) ابن الأثير، الكامل، ج٧، ص٥٣. محمد حسين الزبيدي، العراق، ص٩٤.

(٥) ابن الأثير، الكامل، ج٧، ص٥٣. أبو زيد شلبي، تاريخ، ص١٤٣. آدم متز، الحضارة، ج٢، ص٤١٨.

وفي نهاية القرن الرابع الهجري كانت عند محمد بن عمر أبي الحسن الشريف طيور كوفية ويعني بالковية طيور بغداد، فإذا حمل الطير رسالة من الكوفة إلى بغداد تحقق وصول الخبر في وقت قياسي مذهل^(١).

جـ- البريد البحري وإشعال النار:

١ـ البريد البحري :

ومن الوسائل المهمة إسهاماً جدياً في تعضيد المخلافة وإسناد موقفهم ودعم متطلباتهم البريدية، البريد البحري المعتمد على السفن، إذ كان البريد في العصر العباسي يسير بالسفن عند السواحل والأنهار، كنهر دجلة الذي تسير فيه السفن للأغراض البريدية، وتتسم بالجودة والسرعة^(٢). وكثيراً ما كان أصحاب البريد يأذنون لعامة الناس من المسافرين بركوب تلك السفن بغية التمويه وإخفاء الحقائق التي تنتقل عن طريق البريد إلى الجهات المراداة^(٣) ثم إنهم لديهم طريقة أخرى لإيصال الأخبار في النهر عدا استخدام سفن البريد، وهي أن يضعوا الرسائل في قصبة تربط بربطة من حشيش وترمى في النهر^(٤).

إن البريد الحكومي المنظم بصورة المختلفة كان معتمداً على السفن والبغال والطيور والسعادة والنيران والأدخنة والطبول، وهذه الوسائل جميعها كانت في خدمة البريد تساهم مساهمة جادة موفية بالغرض في إيصال الأخبار والمراسلات والمكاتبات من وإلى الخليفة بأقصى سرعة ممكنة كي لا تفاجئه الظروف ولا تأخذه الغفلة أى مأخذ في بنية الخلافة^(٥).

(١) أبو زيد شلبي، تاريخ، ص ١٤٣. آدم متز، حضارة، ج ٢، ص ٤١٨.

(٢) حسين علي الداقوقى، البريد، ص ٨٩. فخرى الزبيدي، هارون الرشيد، ص ٦٢.

(٣) حسين علي الداقوقى، البريد، ص ٨٩.

(٤) فخرى الزبيدي، هارون الرشيد، ص ٦٢. نعمان ثابت، العسكرية، ص ٣٨.

(٥) الجهشيارى، الوزراء، ص ص ١٦٠-١٦٢.

ويقدر المسعودي طول مجرى نهر دجلة على وجه الأرض بحوالي ثلاثة فرسخ أو أربعين فرسخ^(١)، ولم يقتصر استخدام نهر دجلة على نقل البضائع فقط، بل استخدم أيضاً نقل المسافرين بين مدن العراق أو إلى الخارج فقد حدث في عام (٩٥٩هـ / ٣٤٨م) أن ركب جماعة من الحجاج من الموصل في عدد من الزوارق الكبار وفي أثناء الرحلة النهرية غرق بعض السفن، وقدر عدد من هلك من الحجاج غرقاً بنحو ألف نسمة^(٢). وكانت دجلة تستخدم أيضاً للمواصلات العسكرية، فقد ورد في عام (٣٧٩هـ / ٩٨٩م) أن الوزير خواشة نقل جيشه من الموصل إلى بغداد بالقوارب واعتمد البريديون في كثير من الأحيان على نهر دجلة في نقل جيوشهم، فقد أرسل أمير البطيخة جيشه سنة (١٠٠٣هـ / ٣٩٤م) في السفن لضرب أحد المعارضين واستخدم دجلة في الأجزاء الشمالية منه للنقل في اتجاه معاكس لتيار النهر حتى مدينة الموصل، وكان التيار إلى الشمال من تكريت قوياً، فكانت السفن تسير فيه بمعدل فرسخين في اليوم^(٣).

٢- وسيلة إشعال النار:

وفضلاً عما فصلنا فيه القول بصدق البريد ومتعلقاته فهناك أساليب أخرى كانت تفعل فعلها في أداء المهام البريدية بشكل جيد وإيجابي مستندين في ذلك إلى تقنين دقيق يستعصي على الخلل ومن هذه الأساليب

(١) المسعودي، مروج، (القاهرة: ١٩٤٨م)، ج١، ص١٠٥. حسين علي المسرى، تجارة، ص١٦٨.

(٢) مسكويه، تجارب، (القاهرة: ١٩١٢م)، ج٢ ص ١٧٦-١٧٧. حسين علي المسرى، تجارة، ص١٦٨.

(٣) مسكويه، تجارب، (القاهرة: ١٩١٦م)، ج٣، ص١٧٦. ابن الأثير، الكامل، ج٧، ص٢٢٤. عبد العزيز الدورى، تاريخ العراق الاقتصادي، ص١٤٣. حسين علي، تجارة، ص١٦٨.

إشعال النار إذ كان التّخاطب يجري بينهم عن طريق إشعال النار التي يمكن رؤيتها من بعيد وهذه الإشارة متفق عليها في قاموس المفردات البريدية^(١) المعهود بها أيام العباسين، بيد أن أبا العباس السفاح أوغل في إدخال أساليب جديدة على الوظائف البريدية واقتبس معالم معينة ثم سخرها بعد تطويرها لصالح الأغراض البريدية مستفيداً من خبرة الحجاج بن يوسف الثقفي الذي قد عوّل على ما كان لدى اليونان من خبرة في هذا المجال^(٢)، المتمثل في بناء الأبراج على طريق الحج الممتد بين الكوفة ومكة المكرمة^(٣) حيث أقام المنائر بعد مسح المسافة الواقعة بين المدينتين وتقسيمتها إلى أميال عن طريق ذرعها بالأذرع الهاشمية، واضعين لكل ميل رقمه الخاص به فإذا أكمل الميل أشير إليه برقم واحد وإلى الميل الثاني برقم اثنين وهكذا دواليك بالقياس إلى بقية المسافة حيث تتسلسل الأميال والأرقام من الكوفة إلى مكة المكرمة^(٤)، وقد جعلوا هذه المنائر بمثابة إشارات يهتدي بها السائرون في الفيافي، وهذه الإشارات المنبعثة من إشعال النار على تلك الأبراج كانت خير وسيلة تقود السائرين إلى أهدافهم وتقيمهم خطر فقدان الطريق المؤدي إلى الهلاك المحتموم^(٥)، كما كانت هذه المنائر تمثل خير سبيل لبث الأخبار المنتقلة من مرحلة إلى أخرى شطر الأماكن المقصودة، والقصد بالمنائر مواضع تشعل فيها النيران ليلاً ويطلق منها الدخان نهاراً، ليستدل بها على اختلاف حالات رؤية العدو تارة من حيث العدد وغير لك من الرموز المتفق عليها للدلالة على المقصود تارة أخرى، فضلاً عن وضع نظارات في كل منور لرؤيه ما ورائهم أو أماهم،

(١) نعمان ثابت، الجندي، ص ص ٣٩-٤٠.

(٢) أبو زيد شلبي، تاريخ، ص ص ١٤٣-١٤٤.

(٣) القلقشندي، صبح، ج ١٤، ص ص ٤٤٥-٤٤٦.

(٤) نعمان ثابت، الجندي، ص ص ٣٩-٤٠.

(٥) أبو زيد شلبي، تاريخ، ص ص ١٤٣-١٤٤.

وكان المكلفوون بهذه الأعمال يتقاضون مرتبات مقررة^(١) يطلق عليها الجوامك^(٢).

هذا وقد كانت الوسائل البريدية تتفاوت في سرعة نقل الأخبار وقد بذل المهتمون بشؤون البريد أقصى ما يمكن من جهد لتسهيل سرعة انتقال الأخبار ويظهر هذا التفاوت جلياً عند النظر في الوسائل المستعملة، فالبرية أسرع من غيره من الوسائل التي دونه، والحمام الزاجل أسرع من البريد المعتمد على الدواب، والمناور ترسل الأخبار بما هو أكبر من سرعة الحمام، لذلك لم يكن مستغرباً إذا طار الخبر من مصر إلى مصر في غضون يوم وليلة^(٣).

وكان صاحب البريد يتولى مهمة اتخاذ المراقب والمشرف والأعلام وعليها النيران المشتعلة في الليل والدخان المنطلق في النهار، وهذه الإشارات كانت ذات مغزى معروف لدى العاملين في حقل البريد وكان صاحب البريد هو الذي يقررها وينظمها ثم يعممها على المعنيين للعمل بموجبها^(٤).

(١) القلقشندى، صبح، ج٤، ص٤٤٧. أبو زيد شلبى، تاريخ، ص١٤٤.

(٢) الجوامك: هي الرواتب بالمصطلح المتعارف عليه في يومنا هذا ومفردتها جامكية.
انظر: القلقشندى، صبح، ج٤، ص٤٤٦.

(٣) هارتمان، دائرة، مج٧، ص١٨٠.

(٤) العباسي، آثار، ص٦٦، ص٨٤.

الفصل الثاني

استخدامات البريد

- أولاً** : استخدامات البريد الخاصة
- ثانياً** : نقل أخبار الدولة ومنشوراتها
- ثالثاً** : استخدامات البريد العسكرية
- رابعاً** : استخدامات عامة أخرى

الفصل الثاني

استخدامات البريد

أولاً: استخدامات البريد الخاصة:

لا مناص من الإشارة إلى أغراض البريد العديدة والتي لها أهميتها التاريخية وتقدم لنا صورة حية لتأريخ البريد وأول تلك الأغراض هو استخدام البريد بشكل خاص لشؤون الخليفة والخلافة معاً.

ففي سنة (١٥٨ هـ / ٧٧٤ م) توفي الخليفة أبي جعفر المنصور في مكة المكرمة وتمَّ أخذ البيعة للمهدي قبل دفن والده من رؤوس بنى هاشم فضلاً عن القواد المصاحبين له، لأداء فريضة الحج، وبعد إتمام مراسيم البيعة بادر الربع الحاجب إلى إرسالها مع صاحب البريد إلى المهدي الذي كان في بغداد وقتئِذ، وما إن مثل بين يديه حتى سلم عليه بالخلافة وسلمه كتاب البيعة. وهنا يظهر بجلاء دور البريد في التعامل مع الحدث وبصورة فورية (١) فبدونه كان متعدراً التعامل مع الموقف الجديد المتمثل في وفاة الخليفة وبيعة ولبي عهده وإبلاغ ذوي الشأن بالموضوع:

ويلي ما سبق من الأغراض البريدية الخاصة غرض متصل بشؤون

(١) مؤلف مجهول، كتاب العيون والحدائق في أخبار الحقائق، (ليدن: ١٨٧١ م) ج ٣، ص ٢١٧. ابن كثير، البداية والنهاية في التاريخ (القاهرة: ١٩٣٢ م) ج ١٠ ص ١٢٩.

الخلافة، وفي عام (١٦٤ هـ / ٧٨٠ م) وجه الخليفة المهدى كتاباً إلى هارون الرشيد الذي كان مستقراً في الرقة^(١) حينذاك، طالباً منه أن ينحدر على البريد، فنفذ إرادة والده، وانطلق من حران^(٢) ووصل إلى بغداد في أيام بسيرة، فولأه المهدى الموصل والجزيرة وأذربیجان وأرمénie والشام وإفريقية^(٣).

هذا وقد كتب الرشيد عام (١٦٩ هـ / ٧٨٥ م) إلى الأمصار الإسلامية كافة نعي المهدى وأخذ البيعة للهادى ثم سير نصیر الوصیف على دواب البريد إلى الهادى بقصد إبلاغه خبر الوفاة مرسلًا معه القضیب والبردة والخاتم، وجد البريد في السیر مستوفياً من الجهد أقصاه فبلغ مدينة السلام في عشرين يوماً^(٤).

وما دام سرد الأغراض الخاصة متصلةً فإن الضرورة تستوجب إدراج غرض آخر يتعلق باستقدام طبيب ذي حظ وافر من المهارة والحداقة ونصيب أوفر من البراعة في مداواة العلل الطارئة، والأقسام المزمنة، ففي عام (١٧١ هـ / ٧٨٧ م) مرض الخليفة الرشيد إذ أصابه صداع شديد من الطب ولوازم التطيب، ثم طلب من يحيى استقدام من لا يجد الارتياح سبيلاً إلى فقهه في حقل الطب، فقفز إلى ذهن يحيى اسم (بختشیوں بن جیورجیس)، فأمر

(١) الرقة، وهي مدينة مشهورة على الفرات بينها وبين حران ثلاثة أيام. انظر ياقوت الحموي معجم البلدان، ج ٣، ص ٥٨-٥٩.

(٢) حران: وهي مدينة عظيمة مشهورة من جزيرة افور وهي قصبة ديار مصر بينها وبين الرقة يومان، انظر: ياقوت، معجم، ج ٢، ص ٢٣٥.

(٣) الأزدي، تاريخ الموصل، تحقيق د. علي حبیبة (القاهرة: ١٩٦٧ م) ص ٢٤٥.

(٤) الطبرى، تاريخ، ج ٨، ص ١٨٩. الجهمي، الوزراء والكتاب، ص ١٢٥. مؤلف مجهول، العيون، ج ٣، ص ٢٨٣. ابن الأثير، الكامل في التاريخ (بيروت: ١٩٦٦ م) ج ٥، ص ٧٤. الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، (حیدر اباد الدکن ١٩٣١ م) مج ١، ج ١، ص ٢٦٩.

صاحب البريد بالانطلاق السريع لاحضاره من جند نيسابور، فلبى صاحب البريد الطلب وأدى ما عليه خبر أداء^(١)، والبريد هو الذي نعى لل الخليفة الرشيد وفاة ابن عمه إبراهيم^(٢).

ومن الأغراض التي اشتغل عليها البريد وأدى مهامه الخاص فيها دوره في حج الخليفة الرشيد عام (١٨٠ هـ / ٧٩٦ م)^(٣) حين عزم على القيام بأداء فريضة الحج راجلاً أو عز إلى عمرو بن مسعدة بالقيام بتأمين الطريق بين بغداد ومكة المكرمة من جميع الجوانب، وإعداد المستلزمات المختلفة من مأكل ومشرب وأماكن الراحة والاستحمام، فضلاً عن تهيئة البريد بعد توفير جميع اللوازم المطلوبة، كما قسم الطريق إلى مراحل متعددة في طول المسافة لتجنب الخليفة متابعة السفر، ولا سيما أن زوجته زبيدة كانت برفقته الأمر الذي استلزم الوصول بالإجراءات الأمنية إلى أقصى درجاته^(٤)، فامثل عمرو بن مسعدة أمر الخليفة وأنجز ما أُسند إليه من المهام أحسن إنجاز، واستغرق العمل عاماً بطوله، ثم باشر الخليفة الرشيد السير ميمماً شطر الكعبة قاطعاً مرحلة واحدة من المراحل التي قسم إليها الطريق الممتد من بغداد إلى مكة المكرمة كل يوم واستغرقت رحلته إلى مرمأه ثلاثة أشهر بعد أن قضى الحج بأداء ناسكه قفل راجعاً قاصداً بغداد فكان البريد يوافي بالأخبار يومياً على الصعيدين البري والجوي عن طريق توفير المتطلبات الالزامية لكل منها إذ كان البريد البري يستلزم النجائب والبريد الجوي يتطلب الحمام الزاجل^(٥).

(١) ابن العبري، تاريخ مختصر الدول (بيروت، ١٩٥٨م) ص ص ١٣٠ ، ١٣٢.

(٢) الأصفهاني، الأغاني، (بيروت: ١٩٥٥م)، مج ٢٢، ص ص ٥٢-٥٣.

(٣) الطبرى، تاريخ، ج ٨، ص ٢٦٦.

(٤) ابن قتيبة، الإمامة والسياسة، تحقيق، طه محمد الزيني، (بيروت: د.ت)، ج ٢، ص ١٦١-١٦٢.

(٥) ابن قتيبة، الإمامة، ج ٢، ص ص ١٦١-١٦٢.

ولم ينقطع سيل الأخبار الوافدة عليه من السبيلين على السواء لذا كان على بينة من كل شيء ودرأة بكل حدث، ولم تخف عليه خافية بفضل مهام البريد ورجاله وفي عام (١٩٣ هـ / ٨٠٨ م) حمل البريد خبر وفاة الخليفة هارون الرشيد^(١) إلى نجله الأمين وهو في بغداد حينئذ^(٢).

وفي السنة ذاتها بُويع محمد الأمين بن هارون الرشيد، والمأمون وقتئذٍ في مرو، وقد كتب حمويه صاحب البريد بطوس^(٣) إلى بغداد يعلن خبر وفاة الرشيد^(٤). وكان المأمون أخوه يكتبه باستمرار ويحمل إليه البريد الأخبار والمكاتبات^(٥).

وحين استقر أمر الخليفة الأمين وقويت شوكته بإسناد من الفضل بن الربيع، ومن معه من الأجناد كتب إلى المأمون يسأله التخلّي عن بعض الأعمال في خراسان، كتعيين شخص يتقلّد البريد ليوافيه بما ينبغي الإطلاع عليه غير أن المأمون امتنع ولم يلب مطلب أخيه^(٦).

وأول ما بدأ به الخليفة الأمين من أعمال هو الاعتماد على رأي الفضل ابن الربيع فيما ينبغي فعله ثم كتب إلى جميع العمال في الأمصار جميعها

(١) الطبرى، تاريخ، ج٨، ص ٣٦٤-٣٦٥. ابن الأثير، الكامل، ج٦، ص ٢١١.

(٢) ابن الكارزونى، مختصر التاريخ من أول الزمان إلى متهى دولة بنى العباس، تحقيق مصطفى جواد، (بغداد: ١٩٧٠ م)، ص ١٣٠. ابن سبط قنیتو الإربلي، خلاصة الذهب المسبوک في مختصر سير الملوك، تحقيق، مكي السيد جاسم، (بغداد: ١٩٤٣ م)، ص ١٧١.

(٣) طوس: وهي مدينة بخراسان بينها وبين نيسابور عشرة فراسخ. انظر: ياقوت، معجم البلدان، ج٤، ص ٤٩.

(٤) الطبرى، تاريخ، ج٨، ص ٣٦٥. ابن الأثير، الكامل، ج٦، ص ٢١١-٢١٢. ٢٢١.

(٥) مؤلف مجهول، العيون، ج٣، ص ٣٢١. ابن الأثير، الكامل، ج٦، ص ٢٣٠.

(٦) الجهشيارى، الوزراء، ص ٢٣٦-٢٣٧.

بالدعاء لابنه (موسى) مع الإبقاء على الدعاء للمأمون والقاسم^(١)، ولما بلغ المأمون ما أمر به الخليفة الأمين من عزل أخيه القاسم مما أسنده إليه الرشيد، أحسن بنوایاہ المبیتة الرامية إلى خلعه، أمر بقطع البريد ثم أسقط اسمه من الطرز والضرب^(٢).

ثم تواصلت المجافاة بين الأخرين حتى غدت مشاحنات حادة تحولت فيما بعد إلى كارثة أدت بحياة الخليفة الأمين، ففي عام (١٩٨ هـ / ٨١٣ م) حوصل الأمين من قبل جيش المأمون ثم وقع في الأسر ونقل إلى دار إبراهيم ابن جعفر البخاري بباب الشام وقد جمع عنصر المصادفة بينه وبين صاحب مظالمه أحمد بن سلام الذي سبق أن أسره الأمين، ولما وقع عليه نظر خليفته وعرفه ناداه يا أحمد ما فعل أخي فأجابه أحمد: إنه حي يرزق، فرد الخليفة الأمين قائلاً: «قبح الله صاحب البريد ما أكذبه لقد كان يقول إنه قد مات»^(٣).

تشير هذه الرواية بما لا غبار عليه إلى أن البريد كان يلعب دوراً خطيراً في المحاسن والمساوئ على حد سواء، فإن أراد الإساءة والإيقاع بأحد وجد سبيلاً إلى ذلك ميسراً، وإن أراد خلاف ذلك فإنه لم يكن يعد المفضية إلى تحقيق ما يصبو إليه.

ولم يكن يقتصر دور البريد على نقل الأخبار والمكاتبات فحسب بل كان يتخذ وسيلة للنجاة في بعض الأحيان كما يتجلى ذلك في رواية تاريخية حصلت عام (٣٣١ هـ / ٩٤٢ م)، تتمثل في هيجان الأمراء على (سيف

(١) الطبرى، تاريخ، ج٨، ص٣٧٥. ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، (بغداد: د.ت)، مج ٣، ص٢٣٢. السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص٢٩٧.

(٢) الطبرى، تاريخ، ج٨، ص٣٧٥. مؤلف مجهول، العيون، ج٣، ص٣٢٢. ابن كثير، البداية، ج٩، ص٢٢٤.

(٣) مؤلف مجهول، العيون، ج٣، ص٣٣٩-٣٤٠ ابن الأثير، الكامل، ج٦، ص٢٨٦.

الدولة^(١)) الذي صاقت فيه السبل وقلب النظر في الوسائل المتاحة لإنقاذه فوجد ظالته في البريد وما كان منه إلا الفرار بواسطته صوب بغداد، وهذا غداً البريد وسيلة فعالة لنجاة سيف الدولة من الشر المترbus به ولو لا وجوده لكان متوقعاً سوء عاقبته^(٢).

لقد امتد استعمال البريد في التفنن والإحاطة بالأغراض الخاصة فضلاً عن العامة إلى أن بلغ مبلغاً لم يدع حتى النوادر التي تلفت الانتباه الممتزج بشيء من الغرابة، ففي عام (٢٤٧ هـ / ٨٦١ م) ضم مجلس المتوكل جمعاً من الندماء^(٣) من بينهم البحيري الشاعر، ودار الحديث حول السيف الفاخرة فقال أحدهم لل الخليفة المتوكل : إن رجلاً بصرياً يملك سيفاً هندياً ليس له نظير^(٤) ، وعلى الفور أمر المتوكل صاحب البريد بالكتابة إلى عامله في البصرة يطلب شراءه أيّاً كان ثمنه، وجاء البريد يحمل خبراً مفاده أن رجلاً من اليمن قد اشتراه، فأمر الخليفة المتوكل صاحب البريد بالتحرّي عنه حتى في اليمن وبينما هم جالسون عند المتوكل دخل عليهم عبيد الله بن يحيى والسيف معه، هذه الرواية تبرز بلا جدال النشاط البريدي الممتد إلى كل حدب وصوب^(٥).

(١) سيف الدولة، أبو الحسن علي بن عبد الله بن حمدان، توفي سنة (٩٦٦ هـ / ٣٥٦ م). انظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان في أبناء أبناء الزمان، تحقيق، إحسان عباس، (بيروت: ١٩٧٢ م) ج٤، ص٤٠١.

(٢) ابن خلدون، تاريخ، مج٣، ص٤١٥. السيوطي، تاريخ، ص٣٩٥.

(٣) ابن الأثير، الكامل، ج٧، ص٩٦.

(٤) المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق، محمد محى الدين عبد الحميد (القاهرة: ١٩٤٨ م)، ج٤، ص١١٩.

(٥) المسعودي، مروج الذهب، ج٤، ص١١٩.

ثانياً: نقل أخبار الدولة ومنشوراتها:

لم يتهاون البريد في أداء أية مهمة تدخل ضمن نطاق اختصاصه بما في ذلك الالتزام بكتم الأسرار على أدق صورة، ففي عام (١٤٤ هـ / ٧٦١ م) تابعت الأخبار على الخليفة أبي جعفر المنصور حول ما فعل زياد بن عبيد الله، فتم توجيهه إلى أهل خراسان من قبل صاحب البريد، ومعه كتاب وقد ألزم بعدم قراءته إلى أن ينزل الأوصى، وحيث بلغ المكان المحدد له قرأه فإذا فيه تولية عبد العزيز بن عبد المطلب بن عبد الله المدينة، وكان قاضياً (لزياد) ثم صودرت ممتلكات المخالفين والمقصرين الذين أخذوا إلى بغداد بمن فيهم زياد نفسه للمسائلة والمحاسبة بين يدي الخليفة المنصور^(١).

لقد توغل البريد عميقاً في الأسرار الخاصة بالعمال والولاة وتولى سير أغوارهم للوقوف على مسلك كل منهم، وما يصدر عنهم من تصرفات ذاتية، قد ترتب عليها الإساءة إلى المكانة الشخصية والوظيفية معاً.

ففي عام (١٨٤ هـ / ٧٧٤ م) أمر الخليفة المنصور بتولية رجل على حضرموت فترصدَه البريد ووْجده منهمكاً بما يشغلُه عن أداء وظيفته كما ينبغي، فكتب صاحب البريد إلى الخليفة بخبره بأن الوالي يكثر الخروج طلباً للصيد، ولما علم الخليفة المنصور بأمره عزله بعد أن عاتبه عتاباً شديداً، قائلاً له: «ثكلتك أمك وعدمتك عشيرتك، نحن استكفيناك أمور المسلمين ولم نستكفك... للنكاية في الوحش»^(٢) ثم طلب منه تسليم مقاليد الأمور إلى شخص آخر أصلح منه لهذه المكانة. تشهد هذه الحادثة بلا ريب أن المقصرين كانوا ينالون جزاء تقصيرهم، وأما الملتزمين فكانوا يحظون

(١) الطبرى، تاريخ، ج٧، ص٥٢٩.

(٢) الطبرى، تاريخ، ج٨، ص٦٨. حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام السياسي والدينى والاجتماعي، (القاهرة: ١٩٧٤ م)، ج٢، ص٢٧٠.

بنصيبهم من التقدير لقاء التزامهم وأن للبريد المكانة الكبيرة في كشف
أساليب المقصرين^(١).

وفي العام نفسه ولـ الخليفة المنصور محمد بن عبد الله بن محمد بن سليمان بن محمد بن عبد المطلب البلقاء ثم عزله وصادر ممتلكاته المتضمنة ألفي دينار وبعض الأمتنة الشخصية وتولى صاحب البريد نقل هذه العائدات إلى الجهة التي ينبغي إيداعها فيها^(٢).

ولا مفر من الإشارة إلى استمساك الخليفة المهدي بالنهج الذي سار عليه والده في مراقبة الولاة والعمال ومحاسبتهم عند توفر الأدلة على وجود خلل وظيفي ما دام الكلام متصلًا بدور صاحب البريد في الأمصار المختلفة، لأن أصحاب البريد كانوا بمثابة أعين ساهرة تميط اللثام وتكشف النقاب عن مواطن الضعف في أداء الوظائف والحسابية الإجمالية من هذا العرض هي أن الخليفة المهدي قد عزل موسى بن مصعب الخولاني عن الموصل (١٦٧ هـ / ٧٨٣ م) وولاه مصر^(٣). وكان سبب ذلك يعود إلى أن فريق جباية الخراج في الموصل رفع تقريرًا إلى الخليفة المهدي أشار إلى نقص فاحش في إحدى الضيعات^(٤)، فكتب الخليفة المهدي إلى صاحب البريد يطلب جلب موسى ابن مصعب الخولاني ليمثل بين يديه لتقديم كشف بالأسباب المؤدية إلى ذلك^(٥).

وحدثت زمن الخليفة المهدي حادثة أخرى عام (١٦٩ هـ / ٧٨٥ م)، تتجسد بأن الخليفة المهدي طلب هشام الكلبي، ولما حضر بين يديه وجد

(١) حسن إبراهيم، تاريخ، ج٢، ص٢٧٠.

(٢) الطبرى، تاريخ، ج٨، ص٨١.

(٣) م.ن، ج٨، ص١٦٦.

(٤) الأزدي، تاريخ، ص٢٤٨ - ٢٤٩.

(٥) الطبرى، تاريخ، ج٨، ص٢٧٢ - ١٧٣. الأزدي، تاريخ، ص٢٤٨ - ٢٤٩.

كتاباً عنده فتناوله وقرأ منه قسطاً يسيراً فاستفطع مضمونه أنه من أمير الأندلس، فرد الكلبي أن هذا الرجل غارق في المثالب حتى أذنيه، وأن أبويه نظيراه فيها، وحين استرسل في تعداد تلك المثالب طلب منه الخليفة إملاءها كلها على كاتب السر ففعل وأخذ يذكر المثالب دون أن يدع شيئاً منها وعندما فرغ من استعراضها عرضها على الخليفة، فنالت إعجابه وفازت برضائه فختم الخليفة الكتاب ودفعه إلى صاحب البريد آمراً إياه بالانطلاق صوب الأندلس على جناح السرعة بعد أن أوصاه بكتمان سر ما سمع، وعلى الفور أحضرت له «بلغة ملجمة ومسرجة لتحمله إلى غايته كما وحبه مكافأة سنية تجسمت في أثواب عديدة من أجود الأنواع فضلاً عن كمية وفيرة من المال يستعين بها على سفره»^(١).

يتضح مما سبق ذكره أن البريد لم يكن غافلاً عن آية شاردة أو واردة بل كان يطبق بأذرعه على كل شيء ومن باب الاستدلال على ما نقوله نشير إلى تمكنه من متابعة آية خلل من مبتداه إلى منتهاه في إحدى الضيغفات لم يفلت من قبضة صاحب البريد بل أعلم به الخليفة، وبعد التدقيق والتحقيق استقر الرأي على ما آل إليه الأمر إيجابياً، وهكذا فإن البريد كان متبعاً كل الزوايا الخاصة بشخصيات العمال والولاة وغيرهم من القائمين على شؤون الدولة المختلفة وتجلى ذلك في إبلاغ الخليفة بمثالب صاحب الأندلس ولم يقتصر الأمر عليه بل شمل أبويه أيضاً^(٢).

عندما كان إبراهيم بن المهدى المعروف بابن شكلة وهو أخو الخليفة الرشيد والياً على دمشق، اعتزل الناس في دار معاوية بن أبي سفيان هرباً من الصخب والضجيج ثم استدعي كاتبه وطلب منه أن يكتب إلى صاحب المتزل بعض حوائجه ولم تكن أدوات الكتابة موجودة في تلك الساعة وتطلب

(١) الطبرى، تاريخ، ج، ٨، ص ص ١٧٢-١٧٣. الأزدي، تاريخ، ص ص ٢٤٨-٢٤٩.

(٢) الطبرى، تاريخ، ج، ٨، ص ١٧٣. الأزدي، تاريخ، ص ص ٢٤٨-٢٤٩.

الأمر الاستعجال فتناول فحمة وكتب مشيئه الخليفة على خرقه ثم رمى الفحمة فتلقيتها سليم الحاجب^(١)، وكتب ما يوحى بنوع من التهكم، ولفت ذلك انتباه صاحب البريد فقرر إبلاغ الخليفة الرشيد بما جرى، وكتب مضمون ما دار ثم وجهه إلى الخليفة الرشيد للاطلاع عليه وبعد أن أطلع على فحوى الكتاب قرر عزله عن دمشق وحمل صاحب البريد كتاب العزل إليه، وإثر ذلك توجه إبراهيم نحو الرقة حيث تواجد الخليفة الرشيد ولما بلغها حبسه الخليفة مائة يوم، وبعد أن صفح عنه وجهه إلى مكة المكرمة ليحج بالناس سنة (١٨٦ هـ / ٨٠٢ م)^(٢)، وكان عليه اجتياز طريق يمر بجبل فيه صخرة عظيمة لا مناص من المرور تحتها وكانت تلك الصخرة تنذر بالسقوط بين لحظة وأخرى فاجتازها بأقصى سرعة ممكنة على جواده مضطرباً. وحين لاحظ صاحب البريد ذلك المسلك كتب إلى الخليفة يطلعه على أمره وما داخله من رباع مفضع وحين أطلع الخليفة على الكتاب نعته بالجبن وأمر بعزله عن دمشق وتولية العباس بن محمد بن إبراهيم الإمام وشاءت الأقدار أن تمر تحت الصخرة هذه جماعة من الحجاج وبينما هم سائرؤون سقطت عليهم الصخرة فقتلت خلقاً كثيراً وإبراهيم بن المهدي يؤدي مناسك الحج، فبادر صاحب البريد إلى إخبار الخليفة بما حدث فأبطل أمر العباس واستصوب رأي إبراهيم وكفأه بثلاثين ألف دينار^(٣).

ويذكر أن صاحب بريد همدان أخبر الخليفة المأمون وهو في خراسان آنذاك، بكون كاتب صاحب البريد المعزول أطلعه على سر يتمثل في أن صاحب البريد المعزول تواطأ مع صاحب الخراج إذ اختلسا مبلغاً قدره مائتا ألف درهم من بيت المال واقتسماه بينهما. وحين تناهى الكتاب إليه،

(١) ابن عساكر، تهذيب تاريخ دمشق الكبير، هذبه الشيخ عبد القادر بدران، (بيروت: ١٩٧٩ م) ج ٢، ص ٢٦٦، ٢٧٢.

(٢) الطبرى، تاريخ، ج ٨، ص ٢٧٥.

(٣) ابن عساكر، تهذيب، ج ٢، ص ٢٦٦، ٢٧٢.

عَقَبَ عَلَيْهِ قَائِلًا مَا مُضْمِنُه إِنْ قَبُولَ السَّعَايَة أَخْطَرُ مِنَ السَّعَايَةِ ذَاتِهَا لَأَنَّ السَّعَايَةَ قَبِيحةٌ وَإِنْ كَانَتْ صَحِيقَةً فَهِيَ دَلَالَةٌ وَقَبُولُهَا إِجْازَةٌ فَلَوْ كَانَ السَّاعِي صَادِقًا كَانَ لَئِمًا فِي وَشَايَتِهِ لِصَالِحَةِ، وَذَلِكَ لِكُونِهِ لَمْ يَحْفَظْ حِرْمَةَ الْأَخْوَةِ وَلَمْ يَسْتَرِ عَيْبَ أَخِيهِ إِنْ هَذَا التَّعْقِيبُ عَلَى السَّعَايَةِ مِنْ قَبْلِ الْخَلِيفَةِ الْمَأْمُونِ عَلَامَةَ دَالَّةَ بِمِنْتَهِيِّ الْجَلَاءِ عَلَى دَمَاثَةِ خَلْقِهِ وَحَسْنِ تَبَاعِهِ وَتَأْصِيلِ جُذُورِ الشَّيْمِ فِي أَغْوَارِ نَفْسِهِ وَإِلَّا لِمَا عَقَبَ بِهَذَا الْمَسْتَوِيِّ مِنَ الْمَرْوَةِ وَالْمَرْوَنَةِ^(١).

لَقَدْ لَعِبَ الْبَرِيدُ دُورًا نَشِيطًا فِي تَنَاوِلِهِ الْمَظَهَرَاتِ وَتَحْرِيِ الْمَضَمَرَاتِ لِلْوَقْفِ عَلَى الْخَفَافِيَا وَإِنْ بَانَ شَيْءٌ مِنْهَا أَسْرَعَ إِلَى اطْلَاعِ الْخَلِيفَةِ عَلَيْهِ تَجْنِبًا لِمَا قَدْ يَنْجُمُ عَنْهُ مِنْ خَطَرٍ يَزْحِفُ نَحْوَ الْاسْتَفْحَالِ وَالْتَّفَاقِمِ.

وَمِنَ الشَّوَاهِدِ الَّتِي يُمْكِنُ إِقَامَتِهَا عَلَى مُؤَازِرَةِ الْبَرِيدِ لِلْسُّلْطَانِ وَتَوْطِيدِ أَرْكَانِ سُلْطَتِهِ مَا جَرِيَ فِي عَامِ (٤٠١٠ هـ / ١٠١٠ م) إِذَا نَهَتِ إِلَى السُّلْطَانِ وَشَايَةَ فَأَرَادَ الْوَقْفَ عَلَى الْبَيْنَةِ الَّتِي لَا تَقْبِلُ الطَّعْنَ وَأَرْسَلَ فَارِسًا إِلَى (هَرَة)^(٢) وَبَعْدَ وَصْوَلِهِ حَطْمَ الْقَفْلَيْنِ الَّذِيْنَ كَانَا عَلَى بَابِ الْغَرْفَةِ الْمَرْتَابِ فِيهَا، وَدَخَلُوهَا بِقَصْدِ التَّفْتِيشِ وَالتَّحْرِيِّ فَلَمْ يَجِدْ مَا يَعْزِزَ الْوَشَايَةَ لَكِنَّ قَلْبَهُ لَمْ يَطْمَئِنْ فَأَمْرَ الأَمِيرِ مُسَعْدِ مُحَمَّدِ بْنِ يَحْيَى بْنِ الْمُسَعْدِ بِإِخْلَاءِ الْقَصْوَرِ وَالدُّورِ كَافِةً بِحَجَّةِ سَفَرَةِ جَمَاعِيَّةٍ إِلَى أَحَدِ الْبَسَاطَيْنِ فِي إِحْدَى الْمَنَاطِقِ الْحَصِينَةِ الْقَرِيبَةِ مِنَ الْبَلَدِ، وَحِينَ أَضَحَّتِ الْقَصْوَرُ خَالِيَّةً مِنْ سُكَّانِهَا جَرِيَ تَفْتِيشُهَا زَاوِيَّةً فَزَاوِيَّةً مِنْ قَبْلِ قَتْلِعِ تَكِينِ بَهْشَتِيِّ وَالْمَشْرُفِ وَصَاحِبِ الْبَرِيدِ وَالْفَارِسِ مَعْهُمْ بِيَدِ أَنَّ التَّفْتِيشَ لَمْ يَتَمْكِّنْ عَنِ الْهَدْفِ الَّذِي أُرْسِلَ مِنْ أَجْلِهِ الْفَارِسِ وَتَبَيَّنَ زُورُ مَا تَنَاهَى إِلَى السُّلْطَانِ فَحَرَرُوا مَحْضَرًا بِوَاقِعِ الْحَالِ ثُمَّ أُعْطِيَ الْفَارِسُ عَشْرَةَ آلَافَ دَرَهْمٍ فَعَادَ إِلَى السُّلْطَانِ بِالْخَبْرِ^(٣).

(١) م.ن، ج٢، ص٢٦٦، ٢٧٢.

(٢) هَرَة: مَدِينَةٌ مشْهُورَةٌ مِنْ أَمْهَاتِ مَدِينَاتِ خَرَاسَانَ، انْظُرْ: يَاقُوتُ الْحَمْوَى، مَعْجمُ الْبَلَادَنَ، ج٥، ص٣٩٦.

(٣) الْبَيْهَقِيُّ، تَارِيخُ الْبَيْهَقِيِّ، تَرْجِمَةُ، يَحْيَى الْخَشَابُ وَصَادِقُ نَشَأتَ، (بَيْرُوتُ: ١٩٨٢ م).

إن صاحب البريد قد أدى دوره تجاه ما كان مسؤولاً عنه في باب الإخلاص لوظيفته وتكريس الحقيقة بمعزل عن التحريف والتزييف وإبلاغ السلطان بها.

وفي زمن الخليفة المتوكل لم يركن البريد إلى السكون والتهاون وإنما استمر على نشاطه بتعریف الخليفة بكل ما يجب الإلمام به من الشؤون ذات الاتصال بالراعي والرعية معاً، وكان أصحاب البريد مهتمين بنقل المعلومات من كل الأمصار الإسلامية إلى الخليفة ومنهم حسين الخادم الطواشي المعروف (برق الموت)، الذي كان يتولى إدارة البريد في مصر ثم عاد إلى بغداد واستقر في خدمة المعتمد، ثم ولـي بريد مصر رجلاً يدعى يعقوب بن إبراهيم البازغيسـي مولـي الخليفة الهادي المعـروف (قوصـره)، وأـسندـ إـلـيـهـ مـهـمـةـ تـوـلـيـ الـبـرـيدـ مـنـ مـصـرـ وـإـسـكـنـدـرـيـةـ وـبـرـقـةـ وـنـوـاـحـيـ الـمـغـرـبـ،ـ عـامـ (٢٤١ـ هـ / ٨٥٥ـ مـ)ـ^(١).

وتذكر الروايات التاريخية أن الـبـجـةـ اـمـتـنـعـتـ عـنـ أـدـاءـ الـخـرـاجـ لـبـيـتـ الـمـالـ لـسـنـوـاتـ عـدـيـدـةـ (ـمـتـابـعـةـ)ـ فـكـتـبـ يـعـقـوبـ صـاحـبـ الـبـرـيدـ إـلـىـ الـخـلـيـفـةـ الـمـتـوـكـلـ،ـ يـقـولـ إـنـ الـبـجـةـ قـدـ نـقـضـتـ الـعـهـدـ الـذـيـ قـطـعـتـهـ عـلـىـ نـفـسـهـاـ تـجـاهـ الـمـسـلـمـينـ وـقـتـلـ أـهـلـهـاـ عـدـدـاـ غـيرـ يـسـيرـ مـنـ الـمـسـلـمـينـ الـذـينـ كـانـواـ يـرـوـمـونـ اـسـتـخـرـاجـ مـعـادـنـ الـذـهـبـ وـالـجـوـهـرـ عـلـىـ التـتـخـومـ الـوـاقـعـةـ بـيـنـ الـبـجـةـ وـبـلـادـ الـمـسـلـمـينـ،ـ فـضـلـاـ عـنـ إـطـلاقـهـمـ سـيـلـ مـنـ الشـتـائـمـ وـالـسـبـابـ عـلـىـ ذـرـارـيـ الـمـسـلـمـينـ وـنـسـائـهـمـ^(٢)ـ،ـ مـحـتـجـيـنـ بـأـنـ مـكـانـ اـسـتـخـرـاجـ هـذـهـ الـمـعـادـنـ يـقـعـ فـيـ نـطـاقـ حـدـودـ بـلـادـهـمـ وـسـوـفـ لـنـ يـأـذـنـواـ لـلـمـسـلـمـينـ بـدـخـولـ مـنـطـقـتـهـمـ لـغـرضـ مـشـاطـرـتـهـمـ فـيـ الـحـصـولـ عـلـىـ هـذـهـ الـمـعـادـنـ،ـ وـقـدـ أـحـدـثـ هـذـاـ الـفـعـلـ حـالـةـ مـنـ

= ص ص ١٣٠-١٢٩ . ابن عساكر، تهذيب، ج ٢ ، ص ص ٢٦٦-٢٦٧ .

(١) الطبرـيـ، تاريخـ، جـ ٩ـ، صـ ٢٠٣ـ .

(٢) مـنـ، جـ ٩ـ، صـ صـ ٢٠٣ـ-٢٠٤ـ .

الذعر والهلع بين المسلمين، فانصرفوا عنها خشية أن يلحق بهم وبذراريهم الخطر ويصيبهم الضرر ونجم عن فعل أهل البجة^(١) حرمان الخليفة من حق الخامس من المعادن المستخرجة^(٢).

وأيًّا كان رد فعل الخليفة تجاه عصيان أهل البجة وانقطاع النسبة المتفق عليها من الخراج، فإن صاحب البريد لم يغفل دوره، ولم يركن إلى ما يستشف منه التفاسع، بل قد وافى الخليفة بالأمر بكل تفاصيله والحرية تركت للخليفة فهو أجرد باتخاذ ما يراه صائباً من الإجراءات^(٣).

إنه لغنى عن البيان وشائع للعيان إذا قلنا إن نشاط أصحاب البريد واكب تسلسل الخلفاء بخطوات حثيثة راسخة تستعصي على التعثر والاهتزاز من الخليفة، ارتكب أحد الجنود في مصر ما يوجب القصاص عام (٢٤٢ هـ / ٨٥٦ م) وكان يزيد بن عبد الله واليًا عليها حينذاك، فأحضر الجندي المخالف بين يدي الوالي فضربه عشرة سياط، ونتيجة للألم المبرح الذي ألهب ظهره استحلف (يزيد) بحق الحسين سبطي الرسول (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) وهو يستغيث طالبًا العفو عنه، وبدلًا من أن تسلك الرحمة إلى قلبه، استشاط غضبًا وزاده ثلاثة درة وعندما علم صاحب البريد، بما كان من أمر الجندي رفع تقريرًا إلى الخليفة ضمنه التفاصيل المتعلقة بالحادثة وبعد فحص مضمون الكتاب حرر الخليفة كتاباً جواباً على ما تلقاه وأمر فيه بضرب الجندي مئة سوط زيادة على ما أنزله يزيد به من العقاب^(٤).

فمن الواضح والجلي أن صاحب البريد كان مدركاً في كل حين وأن

(١) البجة: قبائل تقع مناطق سكناهم جنوب مصر، أعلنوا عصيانهم من خلافة المتوكل على الله. للمزيد من التفاصيل يراجع: الطبرى، تاريخ، ج٨، ص٢٠٣. ابن الأثير، الكامل، ج٧، ص٧٧-٧٨.

(٢) الطبرى، تاريخ، ج٩، ص٢٠٣-٢٠٤.

(٣) م.ن، ج٩، ص٢٠٣-٢٠٤.

(٤) م.ن، ج٩، ص٢٠٤.

حساسية مسؤوليته ولم يكن يلقي بشيء وراء ظهره بل على النقيض من ذلك، كان يوافي الخليفة بكل ما يقع تحت نظره أو يتناهى إلى سمعه صيانة لما يراه من قدسيّة الوظيفة وتقديرًا للمسؤولية الملقاة على عاتقه^(١).

لا ريب في أن أصحاب البريد كانوا دقيقين في تنفيذ واجباتهم البريدية ويستوي لديهم فحص النوايا على الصعيد الإظهار والإضمار دون أن يظلوا في الضل تحت طائلة الإهمال، ففي سنة ٤٣٠ هـ - ٩١٤ م^(٢) كتب صاحب البريد في كرمان^(٣) يذكر أن خالد بن محمد الشعراي المعروف بأبي يزيد تولى الخراج ز من الوزير علي بن عيسى فشق عصى الطاعة بمخالفته الخليفة المقتدر مبيتاً النوايا على التمرد وجمع خلقاً كثيراً حوله وأجزل لهم العطاء وأغدق عليهم مالاً غزيراً بغية محاربة بدر الحمامي صاحب فارس، وقد بلغ عدد الملتفين حوله نحواً من عشر آلاف فارس ورجل، وبعد ورود أنباء هذا العصيان على الخليفة عن طريق صاحب البريد كتب إلى بدر الحمامي يطلب منه احتواء الموقف عن طريق إرسال جيش يتولى هذه المهمة^(٤).

واستجاب بدر لأمر الخليفة وهي جيشاً قديراً جديراً بالنهوض بهذه المسؤولية، وقبل احتدام الموقف وجه (بدر) إلى خالد الشعراي كتاباً يدعوه فيه إلى الطاعة لقاء رفع منزلته وضمان سلامته^(٥).

(١) الكندي، كتاب الولاية والقضاة، مهذباً ومصححاً بقلم رفن گست، (بيروت: ١٩٠٨م)، ص ص ٢٠٢-٢٠٣.

(٢) عريب بن سعد القرطبي، صلة تاريخ الطبرى، تحقيق محمد أبو الفضل، (القاهرة: ١٩٨٢م)، ص ٥٨.

(٣) كرمان: وهي ولاية مشهورة ذات بلاد ومدن واسعة بين فارس ومكران وسجستان وخراسان. انظر: ياقوت، معجم البلدان، ج ٤، ص ٤٥٤.

(٤) عريب بن سعد القرطبي، صلة التاريخ، ص ٥٨. مسكونيه، تجارب، ج ١، ص ص ٣٨-٣٩.

(٥) القرطبي، صلة، ص ٥٨.

ثالثاً: استخدامات البريد العسكرية:

لقد استثمر العباسيون البريد في المجال العسكري استثماراً موفقاً، وعندما عزموا على البطش بقبايا الأمويين، وجه الخليفة أبو العباس موسى ابن كعب في ثلاثة رجالاً على البريد إلى عبد الله بن علي حاملين معهم الأوامر العسكرية والمخطط المرسوم لكيفية إدارة المعركة^(١).

وكان جيش العباسيين بإمرة المخارق بن غفار، وكانت نتيجة المعركة اندحار المخارق وهزيمة جنده، بعد إلقاء القبض عليه دون أن يُعرف، فطلب مروان إحضار أحد الأسرى لاستنطاقه للوقوف على نتائج المعركة، والاهتداء إلى معرفة رؤوس القتلى، وما إذا كان المخارق بينهم، فسأله ثانية هل تعرفه إذا ما رأيته، قال: نعم هل هو ذا المخارق قال نعم فأطلق سراحه، وهو لا يعرف أن الذي كان يتحدث معه هو المخارق عينه^(٢).

وهكذا بدا دور البريد جلي التأثير فلولاه لكان الأيدي تكبل بأصفاد العجز، لخفاء كثير من الأسرار التي تحكم بسير المعارك ورسم نتائجها. فالبريد هو الذي أطلق الأيدي في أسر الجهل بما سيحدث بحكم الافتقار إلى ما ينبغي توفره من المعلومات التي تقرر النتيجة.

وفي عام (١٥٠ هـ / ٧٦٧ م) كان معاوية بن عبد الله وزيراً للمهدي مستقرًا بنисابور يومئذ، وكان خازم ممتعظاً من هذا الوزير لكثرة مخالفاته وعدم تنفيذه الكتب الموجة إليه، فقرر خازم وضع حد لهذا الذي رأه عبثاً فركب البريد متوجهاً إلى نيسابور لمقابلة الخليفة المهدي وبحضرته. أبو عبيد الله فبادره الخليفة المهدي قائلاً: قل ما بدا لك يا خازم، لكنه امتنع

(١) الطبرى، تاريخ، ج٧، ص ص ٤٣٢-٤٣٣. ابن الأثير، الكامل، ج٥، ص ٤٦٤ وما بعدها.

(٢) الطبرى، تاريخ، ج٧، ص ص ٤٣٢-٤٣٣. المسعودي، مروج، ج٣، ص ٢٧٤ . ٢٧٦

عن الإدلة بشيء خوفاً من تسرب ما ينطق به إلى من يسئه القول فتريث قليلاً
إنى أن خرج أبو عبيد الله فاختلى بال الخليفة وأخبره عن كل مخالفاته بما فيه
ذلك عصبية الوزير وتحامله وتعطيل محتوى ما يرد من كتبه عليه وعلى من
قبله من القواد مفصلاً عن ما استشرى من مظاهر الفساد المقرونة بقلة السمع
والطاعة^(١).

وهذا الحدث يظهر بوضوح ما للبريد من نشاط ملحوظ ودور فعال في
التحكم بالشؤون العسكرية، وفي غياب البريد كانت الأسرار تبقى طي
الكتمان دون أن تبلغ مسامع المعنيين فتفعل فعلها السيئ في مستقبل
الخلافة من الناحية العسكرية وغيرها.

وفي سنة (١٩٣ هـ / ٨٠٨ م) وجه الخليفة الأمين كتاباً إلى أخيه صالح
جاء فيه ما مؤدها أوصيت بكر بن المعتمر بما ينبغي تبليغك به، وما عليك إلا
أن تعمل بموجبه بما فيه توزيع الأرزاق والعطايا على عسكرك، فليكن الفضل
ابن الربيع متولياً هذه المهمة، ثم أنفذ إسماعيل بن صبيح وبكر بن المعتمر
على مركبيهما من البريد ولا تتردد في ذلك قيد أنملة وعليك توجيه ما لديك
من الأموال والخزائن إلى المعسكر. ولتكن الله عوناً لك فيما أنت بصدده^(٢).

ومن هنا يستدل على أهمية البريد حيث عن طريقه يتم توجيه الأوامر
والمخططات وتتم حماية السلطة من الطوارئ التي قد تعرض نسيجها
الداخلي للتمزق فالنشاطات البريدية كانت تنزع الصوابع التي تقصف بنية
الخلافة وتهز أركانها وتؤدي بها إلى هاوية السقوط.

وفي عام (٢١٠ هـ / ٨٢٥ م) أمر الخليفة المأمون قائده عبد الله بن طاهر
باتوجه صوب مصر لمساعدة قواده هناك والتأهب لمقابلة جيش ابن
السري^(٣) ولما اشتباك الجيشان واشتد القتال ترجحت كفة انتصار ابن

(١) الطبرى، تاريخ، ج. ٨، ص. ٢٩.

(٢) م.ن، ج. ٨، ص. ٣٦٩-٣٧٠. ابن الأثير، الكامل، ج. ٦، ص. ٢٢٢ وما بعدها.

(٣) م.ن، ج. ٨، ص. ٦٠٩ وما بعدها. ابن الأثير، الكامل، ج. ٦، ص. ٣٩٦.

السرى على جيش عبد الله بن طاهر، فأسرع قائد^(١) بإخبار عبد الله عن طريق البريد والنتائج التي تم خضت عنها المعركة، فاختار عبد الله على جناح السرعة شطر ساحة الوغى لإنقاذ الموقف، وما إن وصل إلى هناك حتى انقض بجيشه على أصحاب ابن السرى وأطبق عليهم من كل جانب فبدأت تباشير النصر تلوح في الأفق فوهنت قواه لشدة البأس واليأس، النازل بهم؟ فقدوا صوابهم وأضاعوا رشدهم لهول المعركة وغدوا يتساقطون في الخندق ويموتون^(٢)، وكان العدد الذي مات نتيجة سقوطه في الخندق أكثر بكثير من العدد الذي قتل بالسيف وحسمت النتيجة لصالح قائد الخليفة المأمون ويعود الفضل كله في ذلك إلى البريد الذي فعل فعله في تبليغ عبد الله بن طاهر بما كان متحققاً في ساحة القتال فلو أهمل البريد الموقف قليلاً وكانت النتيجة وبالأشد الأثرا على جيش الخليفة المأمون تحت إمرة عبد الله بن طاهر^(٣).

وفي عام (٢١٩ هـ / ٨٣٤ م) سير الخليفة المعتصم قائد عجيف بن عنبسة لحرب الزط^(٤) المستحوذين على طريق البصرة عابدين ومفسدين آخذين غلات البيادر بكسكر وما يليها من البصرة مخيفين عابري السبيل بأعمالهم الطائشة ورتب عجيف الخيل في كل سكة من سكك البريد لتركتض بالأخبار تباعاً إلى من يعنيه الأمر، وكانت الأخبار تتتابع وتتردد إليه^(٥) يومياً بلا انقطاع، فتمكن عجيف من رصد مواضع الطائشين وأغلق

(١) مؤلف مجهول، العيون، ج٣، ص ص ٣٦٥-٣٦٦. ابن الأثير، الكامل، ج٦، ص ٣٩٦-٣٩٧.

(٢) الطبرى، تاريخ، ج٨، ص ٦١٠. مؤلف مجهول، العيون، ج٣، ص ص ٣٦٥-٣٦٦.

(٣) الطبرى، تاريخ، ج٨، ص ٦١٠. ابن الأثير، الكامل، ج٦، ص ص ٣٩٦-٣٩٧.

(٤) الزط: وهو قوم من أخلاق الناس، أصلهم من السنديان. انظر: البلاذري، فتوح البلدان، نشر وتحقيق، الدكتور صلاح الدين المنجد، (القاهرة: ١٩٥٦ م)، ق ٢ ص ٤٦٢.

الطبرى، تاريخ، ج٩، ص ص ٩-٨.

(٥) الطبرى، تاريخ، ج٩، ص ص ٩-٨. ابن الأثير، الكامل، ج٦، ص ٤٤٣. كارل

عليهم الطريق من مختلف الجهات وأطبق عليهم بمتنهى الإحکام ثم أعمل في رقابهم السیوف قاتلاً منهم خمسمائة رجل في معرکة واحدة علاوة على أسر عدد كبير منهم لكنه لم يبق عليهم أحیاء بل ضرب عناقهم جمیعاً مفرقاً شمال الباقين ثم وزع من بقی في أماكن مختلفة وظل مستوطناً المنطقة مدة سبعة أشهر^(١).

والنتیجة المستخلصة تمثل في عظمة دور البريد الذي أدى مهماته بصورة جلية تجسست في تبديد معالم القلائل وتمزیق شمال القائمين بها.

وفي سنة (٢٢٣ هـ / ٨٣٧ م) كان الخليفة المعتصم بسامراء بعد بنائه القصر المعروف بالجوسوق، جالساً فيه، ف جاء كتاب على البريد من ثغر الروم يذكر أن ملك الروم تطرق إلى نواحي الإسلام ومد يده إلى بعض القرى، وأنه أسر منها جماعة في جملة الجماعة امرأة هاشمية. وأنها صاحت: «وامتعصماه» فحين قرأ الكتاب نهض من ساعته وعبر إلى الجانب الغربي وأمر العسكر فخرجوا وسار ليلته والساسير تتلاحق به، وكان مقدمته ايتاخ في أربعين ألف فارس أمره أن لا يركب أحد من عسكره إلا أبلق لأن ملك الروم لما سمع قول الهاشمية «وامتعصماه» أمر بتقييدها وقال: «نفذني إلى المعتصم حتى يركب الأبلق ويخلصك من يدي^(٢)». وحين وصل إلى أنقرة خربها وأحرقها... وأخذ ملك الروم أسيراً وطلب منه الهاشمية وأمر بإحضارها على الحالة التي كانت عليها، فأحضرت تحجل

= بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية، نقله إلى العربية، نبيه أمين فارس، منير البعلبي (بيروت: ١٩٧٧ م)، ص ٢٠٨.

(١) الطبری، تاريخ، ج ٩، ص ٩-٨ وما بعدها. مسکویه، تجارب، ط، المثنی، ج ٦، ص ٤٧٦. ابن الأثیر، الكامل، ج ٦، ص ٤٤٦.

(٢) ابن العمراوی، الأنباء في تاريخ الخلفاء، تحقيق، الدكتور قاسم السامرائي، (لابدن: ١٩٧٣ م)، ص ١٠٥-١٠٦.

في قيودها، فحين وقعت عينه عليها قام على قدمه وقال: «لبيك لبيك يا بنت العُم أجبت دعوتك في أربعين ألف أبلق»^(١).

وفي عام (٢٢٤هـ / ٨٣٨م) حدثت حادثة تمثلت في إقدام أحد ولاة الأفشين وهو منكجور على جمع أموال كثيرة من قرية بابك الخرمي عنوة، واحتفظ بها لنفسه دون إعلام الأفشين وال الخليفة المعتصم، وكان على البريد رجل يدعى عبد الله بن عبد الرحمن آنئذ، فأخبر الخليفة المعتصم، بما حدث ولما تحسس منكجور الخطر القادم كتب إلى الخليفة مكذباً ما دار حوله من أخبار ونتيجة لهذا الأخذ والرد وقعت مناظرة بين المتخاصمين^(٢) هم على أثرها منكجور بقتل عبد الله بن عبد الرحمن فاستغاث الأخير بأهل أربيل طلباً للنجدة، فمنعوا منكجور من السير بماربه إلى منتهاه، وما إن بلغ الخليفة المعتصم ذلك حتى وجه أحد قواده في عسكر صخم لعزل منكجور، واستمرت مطاردته إلى أن استقر في أحد الحصون المنيعة، ولم يلبث هناك إلا أقل من شهر حتى وثبت عليه مؤيدوه وقبضوا عليه وسلموه إلى الأفشين الذين أرسله مخفوراً إلى سامراء فأمر الخليفة المعتصم بحبسه^(٣).

يتجلّى من سير الحدث أن البريد قد أنجز المهمة على أحسن وجه فأي تقصير من البريد كان يفضي إلى تفاقم الأمر وتعاظم شأنه وكان يتذرّع على الخليفة الاحتياط له.

وفي عام (٢٣٤هـ / ٨٤٨م) كان محمد بن حاتم بن هرثمة والياً على أذربيجان بيد أنه قصر في أداء مهامه وبلغ ذلك الخليفة المتوكل فأراد تصحيح

(١) م.ن، ص ص ١٠٥-١٠٦.

(٢) الطبرى، تاريخ، ج ٩، ص ١٠٢. ابن الأثير، الكامل، ج ٦، ص ٥٠٥.

(٣) م.ن، ج ٩، ص ١٠٢. ابن كثير، البداية، ج ٩، ص ٢٩٠.

الموقف فعزل الوالي المذكور وأحل محله حمدویه بن علی بن الفضل السعدي متوجهاً من سامراء إلى هناك والبريد قد سبقه بنبأ التغيير^(١)، ما إن وصل إلى الجهة التي أرادها حتى جمع الجند والشاکرية^(٢) حشدًا اقترب من عشرة آلاف رجل غير أنه لم يتحقق ما هو جدير ذكره فعززه بقادة آخرين مثل عمرو بن سيسيل وزير التركى ، وزاد عدد المقاتلين على مائتي ألف فارس وأحاطوا بإحدى المدن الأذربيجانية ذات التحصينات المستحکمة المتمثلة في كثافة الأشجار المحيطة بها فضلاً عن كثرة عيون المياه وكان من الصعب إحداث ثغرات تسهل النفاذ من خلالها لأن عدداً كبيراً من المناجم المنصوبة حولها للذود عن حماها لكن القادة المهاجمين لجؤوا إلى قطع الأشجار ونصب المناجم المضادة ودنى عدد الأشجار المقطوعة من مائة شجرة، وهكذا تسنى للهجوم الانطلاق نحو الهدف. فقتل من قتل وجراح من جرح وحلت بالطرفين المتحاربين خسائر فادحة، غير أن النتيجة ظلت دون حسم حاسم ، ومما سبقت الإشارة إليه يمكن استنباط نتيجة مفادها أن البريد قد أفرغ شحنات صواعق النوازل بالمنازل بعد تحجيم مفعولها بالمطاولة وبسط يد الأنجاد لإنجاز ما جدأ وأجاد فيه وما ظن بما ظن فيه خيراً فلو أن البريد كان معدوماً لما تيسر الاسترسال في إرسال الأنباء إلى الجهات المعنية والعودة بمثيلاتها إلى الخليفة^(٣).

واسترشاراً بما نجم عن الأحداث وتمحیصاً للواقع ، يظهر لنا أن البريد كان فعالاً ومعولاً عليه في تسهيل كثير من الشؤون المتصلة بالخلافة والخليفة على السواء.

(١) الطبرى ، تاريخ ، ج ٩ ، ص ١٠٢ . ابن الأثير ، الكامل ، ج ٧ ، ص ٤٢ .

(٢) الشاکرية : فرقه عسكرية من الجيش العباسى مقرها بغداد ، للمزيد من التفاصيل انظر : الطبرى ، تاريخ ، ج ٩ ، ص ص ٢٦١ ، ٢٨٧ ، ٣١٨ .

(٣) م.ن ، ج ٩ ، ص ١٦٥ .

وفي أيام الخليفة المهدى رفع صاحب البريد بهمدان^(١) عام (٢٥٥هـ / ٨٦٨م) تقريراً مطولاً عما ارتكبه موسى بن بغا من أفعال لا تليق بمنصبه ولا يمت بصلة، كإخلال بالثغور وإباحة العدو ومن شاكل ذلك من المخالفات، وحين اطلع الخليفة على التقرير تألم من محتواه^(٢)، فرفع أكف الضراوة إلى الله، وهو يعلن البراءة من أفعال عامله داعياً لجيش المسلمين بالانتصار راجياً من الله رد كيد الكائدين إلى غورهم وذلك في عام (٢٥٥هـ / ٨٦٨م)^(٣).

يبدو مما سلف أن البريد كان ينجز ما بذمته من وظائف أدق الإنجاز ويسهر على تنفيذ واجباته بكل ما أوتي من خبرة وإمكانيات مادية ومعنوية.

وفي عام (٩١٤هـ / ٣٠٢م) قويت شوكة صاحب القيروان فكلف الخليفة المقتدر مؤنس الخادم بالتصدي له وانطلق على رأس حملة كبيرة صوب مصر بعد أن كتب إلى أجناده في الشام بالمسير إلى مصر، وتنفيذًا للأمر توجه مؤنس شطر مصر وأقدم الوزير علي بن عيسى على ترتيب الجمازات لنقل الأخبار بالسرعة المستطاعة^(٤) من وإلى بغداد يوميًّا، وقد حمل البريد إلى الخليفة خبر هزيمة عبيد الله العلوى مع جيشه ففرح المقتدر غاية الفرح بالنتيجة المرضية، وفرق على المحتاجين أموالًا طائلة شكرًا لله على نصرة الجيش.

وما هي إلا أيام حتى جاء الخليفة المقتدر بخبر موت عبيد الله العلوى، وقفل مؤنس عائدًا إلى بغداد بعد تحقيق المراد^(٥).

(١) همدان: أكبر مدينة بالجبال، ياقوت، معجم البلدان، ج٥، ص ٤١٠.

(٢) الطبرى، تاريخ، ج٩، ص ٤٠٨ وما بعدها. ابن خلدون، تاريخ، مج ٣، ص ٢٧٦-٢٧٧.

(٣) الطبرى، تاريخ، ج٩، ص ٤٠٨. المسعودى، مروج، ج٤، ص ١٨٥.

(٤) عريب بن سعد القرطبي، صلة تاريخ الطبرى، تحقيق أبو الفضل إبراهيم، (القاهرة: ١٩٧٧م)، ص ٥٢. ابن خلدون، مج ٣، ص ٣٩٢.

(٥) م.ن، ص ٥٢.

وهكذا فإن دور البريد كان عظيم الأثر فبدونه لم تكن الأخبار سهلة التناول ويسيرة التداول، بل كانت تظل مكتومة ويصعب على الجميع عندئذ الإحاطة بها والتصرف حسب مقتضيات الظروف والأحوال لتلافي خطر الأحداث.

وفي عام (٩٣٩هـ / ٣٢٨م) خرج أبو عبد الله البريدي إلى واسط وكتب إلى بحكم يحثه على التوجه نحو الجبل بهدف الاستيلاء على المنطقة ثم طرد عماد الدولة ابن بويه من الأحواز، وكان الهدف الرئيسي هو إبعاده عن بغداد (مدينة السلام) للسيطرة عليها^(١).

وتمكن صاحب البريد من نقل أخباره إلى عماد الدولة ليأخذ حذره، إلا أن بحكم عشر على رسالة صاحب البريد وقتله. ولو لا ذلك لتكشفت الأمور لعماد الدولة. كان للبريد موافق إيجابية وأهمية كبيرة على المستوى السياسي والعسكري^(٢).

رابعاً: استخدامات عامة أخرى:

ويستدل مما سبق أن البريد كان مستوظفاً بأنجع ما يكون عليه التوظيف، في نقل ما يرد عن المعارضة من أخبار وأسرار ونوايا وخفايا قد تكون مستغلقة على غير العاملين في مجال البريد.

والأدلة تتواتي على صحة ذلك منها ما رواه الطبرى : ذاكراً عن أحمد ابن ثابت أنه سمع قريشياً يقول إن الخليفة أبي جعفر المنصور قد توجه من بغداد إلى الكوفة، وبينما هو سائر نحو بيته، جاءه البريد بخروج محمد بن عبد الله عليه في المدينة المنورة عام (١٤٥هـ / ٧٦٢م)، معارضًا للسلطة

(١) مسکویہ، تجارب، ج١، ص ٤١١، ٤١٣. ابن کثیر، البداية، ج١١، ص ص ١٩١-١٩٢.

(٢) مسکویہ، م.ن، ج١، ص ص ٤١١، ٤١٣. ابن کثیر، م.ن، ج١١، ص ص ١٩١-١٩٢.

العباسية ومطالباً بالخلافة التي كان يراها حقاً من حقوق أهل بيته، فقال أحد أصحابه ويدعى عثمان بن عمارة أظن أن محمدأ خائباً وكذلك حالة من معه من أهل بيته^(١)، وهذه الرواية علامة دالة بلا جدال عن مواكبة سير البريد للأحداث وإبلاغ إفرازاتها إلى الخليفة عن طريق رفع التقارير إليه، يبلغه فيها بأنشطة المعارضة وتوجهات المعارضين^(٢).

وفي ذات السنة (١٤٥ هـ / ٧٦٢ م) التي خرج منها محمد بن عبد الله^(٣) على الخليفة المنصور في المدينة المنورة، اختفى أخيه إبراهيم عن الأنظار لنفس السبب الوارد ذكره عند التحدث عن نشاط أخيه، خشية الرصد وكان معه رجل يدعى السفيان الأعمى الذي دخل على الربيع الحاجب، يستأذن الدخول على المنصور، فتحقق بغيته لما رأه الخليفة المنصور شتمه، فقال سفيان: يا أمير المؤمنين أنا أهل لما تقول، إلا أتيتك تائباً ولك عندي ما تحب. قال وما لي عندك. قال سأريك بإبراهيم وهو في البيت، فقال الخليفة: أين إبراهيم فرداً عليه أنه دخل بغداد أو هو داخلها قريباً، فزوده بجواز ومعه غلام وفرنق^(٤)، وكلف صاحب البريد نقلهم إلى الوجهة المنشودة، وعززه بجمع من الجنديين مع مبلغ من المال، وسار بالركب بصحبة البريد، حتى بلغ المكان الذي توارى فيه إبراهيم فوجده وصرخ به قم مریداً بذلك تنفيذ الخطة، فانطلق موكبهم حتى وصل المدائن، فاعتراضهما صاحب القنطرة، وبعد دفع

(١) الطبرى، تاريخ، ج٧، ص٦٢١. ابن واصل الحموي، تجريد الأغانى، تحقيق، طه حسين وإبراهيم الأبياري، (القاهرة: ١٩٥٧م) ق١، ج١، ص٦٠١. عبد الكريم الأشتر، دعبد بن علي الخزاعي شاعر آل البيت، (دمشق: ١٩٦٤م)، ص٤٩.

(٢) الطبرى، تاريخ، ج٧، ص٥٦٥. الذهبي، العبر، ص ص ١٩٨، ٢٠٠.

(٣) محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن، انظر: الكلبى، جمهرة النسب، تحقيق الدكتور ناجي حسن، (القاهرة: ١٩٨٦م)، ص ٢٣٧.

(٤) اليعقوبى، تاريخ اليعقوبى، (بيروت: ١٩٦٠م)، ج٢، ص ٣٧٦. الطبرى، تاريخ، ج٧، ص ٦٢٤-٦٢٥. ابن الأثير، الكامل، ج٥، ص ٥٦١.

الجواز إليه سأله أين الغلام المثبت اسمه في الجواز ثم قال: لا ريب في أن الذي معك هو غلام إبراهيم لكنه أطلقهما فهر باراك بين البريد وبعد قطع مسافة متوجهين صوب البصرة، وبعد بلوغهما مأربهما اختفيا هناك^(١).

مما سبق ذكره نستخلص أن البريد كان ينتفع به لصالح الخليفة أحياناً، ولصالح خصميه أحياناً أخرى، إذ ساعد تصرف الخليفة على تيسير هرب إبراهيم، الذي استغل جواز الخليفة للإفلات من قبضة الخليفة ذاته.

لقد كان النشاط البريدي المتربّص بالمعارضة لالتقاط أخبارها متواصلاً على قدم وساق دونما هوادة أو استكانة، فحين تعاظم شأن (محمد بن عبد الله) في الحجاز، ووصول إبراهيم أخيه إلى البصرة، أحسن الخليفة المنصور بالخطر الداهم على سلطة الخلافة العباسية، ومن المعروف أن الخليفة المنصور لم يكن يتعلّق بأهداف الانكسار، بل أبى أن يأتي يوم يتربّع فيه تحت وطأة الضعف المسرف في العجز عن الاقتدار، فبادر إلى استشارة شيخ ذي رأي من أهل الشام، فأشار عليه بتوجيهه أربعة آلاف جندي شامي لتدارك الموقف المستجد، وبعد ذلك أقدم المنصور على تكليف عامل عليها، طالباً أن يحمل كل يوم عشرة على البريد، للالتفاف على الأحداث قبل استفحالها، ولما ظهر إبراهيم بالبصرة وجاء البريد إلى أخيه (محمد بن عبد الله) وانتهى إليه ليلاً، وهو في دار (مروان) وعندما تسلّم بريد أخيه، استبشر هو ومن معه غاية الاستبشر^(٢)، وفرحوا فرحاً شديداً، وهنا يمكن الاستدلال على أن البريد كان وسيلة من وسائل الاتصال بين أقطاب المعارضة. غير أن بريد المعارضة غير معلن النشاط لشحة الفرص، وإنما كان كالجرعات الطبية المقننة، لا يمكن العمل بالضد منها خشية وقوع الأسرار بأيدي أنصار الخليفة^(٣).

(١) الطبرى، تاريخ، ج ٧، ص ٦٢٩. ابن خلدون، تاريخ، مج ٣، ص ص ١٩٤-١٩٥.

(٢) الطبرى، تاريخ، ج ٧، ص ٥٦٥. ابن كثير، البداية، ج ١٠، ص ٨٧.

(٣) الطبرى، تاريخ، ج ٧، ص ٥٦٥. ابن كثير، البداية، ج ١٠، ص ٨٧.

ومن الأنشطة البريدية التي تعد بمثابة المصل الواقي ضد يرقات شر العارضة، ما يروى عن الواضاح بن حبيب الذي قال: سرنا إلى المهدي ذات يوم، ولما دنوت أخذت مجلسي بالقرب منه، دسّ في يدي ورقة صغيرة تبترة الكف، وحين خرجت فتحت الورقة، وإذا فيها يا وضاح اكتشف لي نوايا جمهور القرمطي، ففعلت ما كلفني به الخليفة المهدي. وكانت النتيجة صدق ظن الخليفة فيه، إذ كان القرمطي يضمّر الشر للخليفة، ولما تبيّن لوضاح صواب ما ذهب إليه المهدي، كتب إليه يعلمه عن طريق صاحب البريد بما جرى بينهما^(١).

وقد أشارت المصادر التاريخية إلى أن البريد الحكومي، كان يستخدم أيضاً لنقل بعض الأخبار الخاصة عن الرجال لأهلهم وذويهم ليطمئنوا عليهم. ويدرك منها أن الخليفة المنصور أمر صاحب البريد بإرسال رسالة إلى أهل رجل من خارج بغداد استدعي للقضاء بعد أن ثبت صدق دعواه^(٢).

لقد ظلّ البريد يواكب مواكب الأحداث ويرفع التقارير عن سيرها أولاً بأول، وعندما أفلت إدريس بن عبد الله بن الحسن بن علي بن أبي طالب^(٣) عام ١٦٩هـ / ٧٨٥م^(٤) من الوقوع في الشرك في موقعة فخر^(٥) أتى مصر وعلى البريد. واضح مولى صالح بن المنصور حينئذ، وكان مشائعاً

(١) ابن قتيبة الدينوري، عيون الأخبار، (القاهرة: ١٩٧٣م)، مج ٢، ج ٢، ص ص ٢٠٩، ٢١٠.

(٢) تقي الدين أبي بكر الحموي، ثمارات الأوراق، صححه: محمد أبو الفضل إبراهيم، (القاهرة: ١٩٧١م)، ص ص ٢٦٩-٢٧٠.

(٣) ابن حزم الأندلسبي، جمهرة أنساب العرب، تحقيق عبد السلام محمد هارون، (القاهرة: ١٩٦٢م)، ص ٤٩.

(٤) الطبرى، تاريخ، ج ٨، ص ص ١٩٣-١٩٢.

(٥) موقعة فخر. كان أبو عبد الله الحسن بن علي بن حسن بن علي بن أبي طالب. خرج عام ١٦٩هـ يدعى الخليفة وخرج إلى مكة، انظر، ياقوت: معجم البلدان، ج ٤، ص ٢٣٨.

على ^{ذهب}هـ، أنفذه واضح بإرساله بمعية البريد إلى المغرب واستقر في مدينة تسمى ولهلة بأرض طنجة^(١)، وما إن وطأت قدماه أرضها حتى استجاب له من بها من البربر، وحين نبأ تواتر صاحب البريد طريقه إلى مسمع الخليفة الهدىي، استقدمه وضرب عنقه، ثم صلبه عبرة لمن اعتبر^(٢).

كان البريد يستخدم لنقل الأخبار السرية للغاية، وهو أيضاً يحافظ على أسرار الخليفة والدولة مما كان لا يعلمه أحد إلا من أراد الخليفة أن يعلمه به^(٣).

وقد أشار المؤرخون إلى أن البريد وسريته لعب دوراً مهماً في السيطرة على تحركات البرامكة، وكان له الدور المهم في القضاء عليهم^(٤).

ومن النشاطات البريدية المضافة إلى ما تم سرده أثناء تناول البحث، ما جرى أيام الخليفة الرشيد بخصوص بعض المعارضين الذين كان الخليفة يجذب في طلبهم، بكل السبل الممكنة^(٥).

وقد تمَّ عن طريق البريد في عهد الخليفة الرشيد إلقاء القبض على المناوئين والخارجين على الدولة، حيث تمكَّن صاحب بريد أصفهان، بما أوتي من مقدرة ودهاء من إلقاء القبض على علي بن عبد الله العلوى والذي كان مطلوباً من قبل العباسين^(٦).

(١) طنجة: بلد على ساحل بحر المغرب مقابل الجزيرة الخضراء. انظر: ياقوت، معجم البلدان، ج٤، ص٤٣.

(٢) الطبرى، تاريخ، ج٨، ص١٩٨. ابن الأثير، الكامل، ج٥، ص٧٦. الصابى، الھفوات النادرة، تحقيق، د. صالح الأشتر، (دمشق: ١٩٦٧م)، ص١٩٣-١٩٢.

(٣) الطبرى، تاريخ، ج٨، ص٢٩٧-٢٩٨. الأصبغاني، مقاتل، ص٤١٢-٤١٣.

(٤) اليعقوبى، تاريخ، ج٢، ص٤٢٣. الطبرى، تاريخ، ج٨، ص٢٩٨. بسام العسلى، فن الحرب الإسلامى في العصر العباسي الأول، (بيروت: ١٩٨٨م)، ج٣، ص٥١٧.

(٥) بسام العسلى، فن الحرب الإسلامى في العصر العباسي الأول، ج٣، ص٥١٧.

(٦) اليعقوبى، تاريخ، ج٢، ص٤٢٣. الطبرى، تاريخ، ج٨، ص٢٩٨. الأصفهانى مقاتل، =

ولما هم موسى بن جعفر (موسى الكاظم) بالاستعداد لأداء فريضة الحج عام (١٨٣هـ / ٧٩٩م) طمعاً في تحقيق هدفين على الأرجح هما تنفيذ الفريضة، والخلاص من قبضة العباسين في آن واحد^(١)، وصل صاحب البريد خبره لل الخليفة الرشيد وأسلوا على فعله هالة من الضخامة والجسامية من الناحية الأمنية، قائلين إن الناس يحملون إلى موسى بن جعفر خمس أموالهم ويعتقدون بإمامته وإنه على عزم الخروج عليك مستغلاً هذه الأموال لإنفاقها على التخطيط لقلب نظام الحكم وإعادة السلطة إلى العلوين، فأقلق بال الخليفة إلى حد بلغ أقصى مداه، فلجاً إلى رصد مكافآت مالية سخية للعاملين في الأجهزة المكلفة بحماية أمن السلطة، كالشرطة والحرس وبمساعدة صاحب البريد، فنشط هؤلاء للاسراع في إلقاء القبض عليه^(٢)، وهو متوجه شطر البيت الحرام عام (١٨٣هـ / ٧٩٩م)، وتم تسليمه إلى الخليفة الرشيد في بغداد، وتخلص من أحد أبرز قادة العلوين الذي كان رجاءهم الأكبر في استعادة السلطة من خصومهم العباسيين^(٣).

وكان البريد يمارس نشاطه الفعال، وهو يتبع أمر المعارضين في مختلف الأصقاع، وإليه يعود الفضل في نقل الأخبار إلى الخليفة عن كثب ليتصرف وفق ما يراه مناسباً لكل حال على حدة^(٤).

= ص ص ٤١٢-٤١٣. أحمد بن يحيى المرتضى، كتاب طبقات المعتزلة، تحقيق، سوسة ديفلد، فلizer، (بيروت: ١٩٦١م)، ص ٥٢.

(١) الأصفهاني، مقاتل، ص ص ٥٠٤-٥٠٥. ابن الأثير، الكامل، ج ٦، ص ١٦٤. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، (القاهرة: ١٩٢٩-١٩٧٢م)، ج ٢، ص ٧٢.

(٢) الأصفهاني، مقاتل، ص ص ٥٠٤-٥٠٥. ابن الأثير، الكامل، ج ٦، ص ١٦٤.

(٣) اليعقوبي، تاريخ، ج ٢، ص ٤١٤. ابن الطقطقي، الفخرى، ص ١٧٨. الشيخ عبد الرزاق المناوي، الكواكب الدرية في ترجم السادة الصوفية، (القاهرة: ١٩٣٨م) ص ص ١٧١-١٧٢. عبد العزيز الدوري، العصر العباسي الأول، (بغداد: ١٩٤٥م)، ص ١٤٢.

(٤) أحمد عبد العزيز محمود، الأمن في بغداد خلال العصر العباسي الأول، ص ٩٢-٩٣.

وفي عام (١٨٧هـ / ٨٠٢م) حدثت حادثة هامة، لكن الخليفة الرشيد تصدّى لما يمكن أن ينجم من تداعيات خطيرة مقوضة للأركان ملخصها^(١)، إن عبد الله بن مالك الخزاعي كان جالساً على باب داره، وإذا بمولى له أقبل عليه، وأفضى إليه سر قتل جعفر بن يحيى البرمكي، فتوجّس في نفسه خيفة على عدم صحة النبأ الذي كان من شأنه إنزال العقوبة به^(٢)، إن تعامل معه بصورة تحتمل التأويل الذي يحمل على غير ما يرام في حالة ثبوت كذبه، فانقض على مولاه وضربه ثلاثمائة مقرع في سجن، وبعد ذلك صعد إلى سطح المنزل مرتقباً ما يحدث وهو على أتم الحذر واليقظة، وإذا به يسمع صلصلة جرس دواب البريد وعندما دنا منه صاحب البريد، ناوله كتاباً يتضمن قتل جعفر من قبل الخليفة الرشيد، وإنزال العقوبة بالبرامكة^(٣).

لقد عصفت العاصفة برأس معارض آخر هو علي بن عيسى عام (١٩٥هـ / ٨١٠م) إذ يروي ذو الرياستين أنهم وجهوا جيشاً مدججاً بالسلاح بقيادة هرثمة بن أعين قال للمأمون: لا تبرح حتى يسلم عليك بالخلافة، وأخذ هو المبادرة بالسلام عليه بالخلافة ومعه هرثمة والحسن بن سهل إضافة إلى شيعة المأمون، وبعد ذلك أقبل صاحب البريد عبد الرحمن بن مدرك عليهم من بغداد، وبعد دخوله سكت قليلاً، فقيل له: ويحك ما وراءك، قال هذا كتاب طاهر بن الحسين وعندما نظروا فيه وجدوا طاهر يقول: إن رأس علي بن عيسى بين يدي وخاتمه في إصبعي، فانطلق من فوره ليبشر المأمون بمضمون الكتاب، فأمر المأمون بإحضار القواد

(١) الطبرى، تاريخ، ج، ٨، ص ٣٩٣-٣٩٥.

(٢) المسعودي، مروج، ج، ٣، ص ص ٣٥٦-٣٥٧. التنوخي، الفرج عبد الشدة، تحقيق عبود الشالجي، (بيروت: ١٩٧٨م)، ج، ٣، ص ص ١٢٧-١٢٨. كارل بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية، ص ١٨٧.

(٣) المسعودي، مروج، ج، ٣، ص ص ٣٥٦-٣٥٧. التنوخي، الفرج، ج، ٣، ص ص ١٢٧-١٢٨.

ووجوه الناس فدخلوا وسلموا عليه بالخلافة، وما هي إلا أيام حتى وصل رأس المعارض، علي بن عيسى إلى خراسان^(١).

وهنا تقوم شهادة أخرى تضاف إلى الشهادات السابقة التي ثبتت دور البريد في أداء مهامه، فلو كان وجود البريد منفيًا لبقيت الأسرار جميعها أسيرة الكتمان ولصعبت على الخلفاء مواجهة الأخطار التي تفضي بالضرورة إلى وقوعهم في دوامات العنف المتواصل من غير القدرة على تحريك ساكن أو اتخاذ أي إجراء تترتب عليه سلامتهم ودوام ملتهم.

وبسبب البريد وما كان منه من تقديم الأخبار الصحيحة ونقله للرجال إلى العاصمة لأجل التحقيق معهم، أنقذ العالم الجليل ذا نون المصري^(٢)، حيث نقله البريد إلى الخليفة المتوكل لأجل التحقيق معه وثبتت براءته وأطلق سراحه^(٣).

إضافة إلى ما سلف ذكره، فقد روت إحدى الروايات التاريخية أيام الخليفة المعتر^(٤) وقالت: إن محمد بن الأشعث الخزاعي صاحب بريد ديار مصر، أعلم الخليفة المعتر عن طريق البريد يذكر سوء مذهب صفوان المنطوي على المعصية في رأيه فوجه إليه الخليفة بسيما الصعلوك لإحضاره للتأكد من صدق الخبر بنفسه تجنبًا للوقوع في الشبهات^(٥).

(١) الطبرى، تاريخ، ج، ٨، ص ص ٣٩٣-٣٩٥.

(٢) السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص ٣٥٠. الحنفى، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، (حیدر آباد الدکن: ١٩٣١م)، مج ١، ج ٢، ص ١٠٨.

(٣) الطبرى، تاريخ، ج، ٩، ص ص ٢٦٦-٢٦٧. ابن الأثير، الكامل، ج ٥، ص ص ٣١٤، ٣١٦.

(٤) المعتر، هو أبو عبد الله، الزبير بن الم توكل وأمه أم ولد روبية تسمى قبيحة، بويع له سنة إحدى وخمسين ومائتين، وكانت وفاته سنة خمس وخمسين ومائتين. انظر: العمرانى، الأنباء في تاريخ الخلفاء، ص ص ١٢٨، ١٣٢.

(٥) اليعقوبى، تاريخ، ج ٢، ص ٥٠١.

لا يستغرب أحد إذا قيل إن اليد تستمد قوتها من الساعد والبنان، والبريد لم يقل دوره عن دور هذين العضدين المؤازرين لليد القوية، فلقد تمكّن البريد من السير المتواصل نحو المنشود من المصير ألا وهو القيام بأداء المهام منذ نشأته، وتناولت هذه المهام مختلف الشؤون بما فيها نقل أخبار الشؤون العامة، من ذلك ما ذكر إبراهيم بن موسى بن عيسى قائلاً: كان ولاة البريد في الأفاق بآجتمعها يكتبون إلى المنصور أيام خلافته بكل ما يصدر عن الناس من أعمال تجارية أو غيرها، وعوامل التقلبات والاستقرار في أسعار السلع والبضائع مضافاً إلى ذلك ما يقضي به القضاة من أحكام أو قرارات^(١)، وعند ورود الكتب على الخليفة من قبل أصحاب البريد يجلس لدراستها بعد فحص مضامينها، فما وافق الارتفاع بمستوى الخدمات للناس أجازه، وما كان مناقضاً للهدف المنشود أمسك عنه واستعراض بما هو أصلح وأنفع وأكثر تحقيقاً للخدمات المطلوبة^(٢).

ومن الأخبار العامة الأخرى التي رفعت إلى الخليفة المتوكل للوقوف عليها ما ذكره صاحب البريد المعروف بابن الكلبي في بغداد عام (٢٣٧هـ/٨٥١م)، عما حدث لجنازة أحمد بن نصر الخزاعي من اجتماع الناس حول الجنازة والتمسُّح بها تبركاً وإجلالاً، إذ رفع صاحب البريد تقريراً حول ما جرى إلى الخليفة المتوكل، وبعد تسلّم التقرير أحسن بالسخط والغضب وثارت ثائرته بسبب هذه الفعلة التي لم ترق له. فقال للقاضي يحيى بن أكثم كيف دخل ابن الأبزاري القبر كبيرة خزانة^(٣)، فرد القاضي قائلاً: إنه كان صديقاً حميماً له، وعلى ضوء ما سمع الخليفة من القاضي الزم محمد بن

(١) الطبرى، تاريخ، ج. ٨، ص ٩٦. حسن إبراهيم، النظم، ص ٢٥٦.

(٢) عبد الرحمن سبط الأربلي، خلاصة، ص ص ٦١-٦٢.

(٣) الطبرى، تاريخ، ج. ٩، ص ص ١٩٠-١٩١. الخطيب البغدادي، تاريخ مدينة بغداد، (بيروت: د.ت)، ج. ٥، ص ص ١٧٣، ١٧٥. ابن خلدون، تاريخ، مع ج ٣، ج ٣، ص ٢٧٢.

عبد الله بن طاهر بمنع العامة من الاجتماع والحركة في مثل هذه الحالات^(١).

يستشف من إقدام الخليفة على منع حدوث مثل تلك التظاهرات، أنه كان يخشى أن تتحول التجمعات إلى مسيرات ضاغطة على الوضع الأمني العام والإخلال به، وهذا ما لم يكن يرضي الخلفاء لأنهم كانوا توافقين دائماً إلى الاستقرار والطمأنينة، وعدم توفير الفرصة لانفلات الوضع الأمني إذا احتل سيفضي بالضرورة إلى المعاناة المضنية للعودة به إلى عدم الاستقرار.

وما دمنا في معرض سياق إيراد البريد لأخبار العامة، نورد رواية تأريخية مفادها أن عيسى بن جعفر صاحب الخانات، قد شتم (أبا بكر وعمر وعائشة وحفصة) وشهد عليه سبعة عشر رجلاً عند قاضي الشرقي أبي حسان الزبيدي عام (٨٥٥هـ / ٤٢٤م) وما كان من صاحب البريد في بغداد إلا أن أسرع إلى إعلام الخليفة بهذا الحدث^(٢)، وبعد أن اطلع على فحوى الكتاب أمر محمد بن عبد الله بضرب عيسى بن جعفر بالسياط وإن مات رمي في نهر دجلة فجاؤوا بعيسى لإقامة حد الشتم عليه على أن يشهد إقامة الحد جمع من الناس ليعتبروا بتأثير المشهد ثم ضرب خمسماة سوط فضلاً عن الحد للأمور العظام التي اجترأ عليها^(٣).

وهنا يمكن القول إن أصحاب البريد وفوا كل شيء حقه من العناية وما تركوا صغيرة ولا كبيرة إلا تناولوها بالتحقيق، وإذا ثبت صوابها رفعوا بها إلى الخليفة للبت فيها، وإن لم تكن كذلك أحجموا عن ذكرها له.

(١) الطبرى، تاريخ، ج ٩، ص ص ١٩٠-١٩١. الخطيب البغدادى، تاريخ، ج ٥، ص ص ١٧٣، ١٧٥.

(٢) ابن الأثير، الكامل، ج ٧، ص ٧٩.

(٣) الطبرى، تاريخ، ج ٩، ص ص ٢٠٠-٢٠١. الخطيب، تاريخ، ج ٥، ص ص ١٧٤، ١٧٧. ابن الأثير، الكامل، ج ٧، ص ٧٩.

ويذكر الصولي في رواية تأريخية مفادها «ورد لعشر خلون من المحرم عام (٩٣٧هـ / ١٥٢٦م) رجل يعرف بالخلنجي، كان يحمل الخريطة إلى مكة ويسبق بالأخبار فأخبر بسلامة الناس وتمام الحج»^(١).

إن تطور البريد وتشعّب وظائفه لم يفقه لغة السكون، بل كان أصحاب البريد المتأهبين للتعامل مع كل ما يستجد من شؤونه ليوفروا مستلزمات التعامل معها، كي تركن السلطة إلى الأمان والاستقرار وهناء البال. وعدم تذبذب الأحوال، فطفقوا يرصدون قدرًا لا يستهان به من الاهتمام بالأحداث الطبيعية والحوادث الطارئة، وعندما يقفون على أي حدث بتمام تفاصيله يسرعون إلى إبلاغ الخليفة به ومما يدل على ذلك ما رفعه صاحب البريد إلى الخليفة المعتصم بصدق توالي الأمطار وغزارتها في البصرة، ليكون على بيّنة من مردوداتها، واتخاذ الإجراءات الضرورية التي تتطلب الاحتياط والتحوط، فإن كانت النتيجة خيراً نالت الخلافة نصيبها وإن كان غير ذلك هبت لدرء مخاطرها^(٢).

وليس غريباً إذا قلنا إن البريد قد استوفى جل الأغراض الحيوية، وإن لم ينقلها كلها كي لا يأتي حدث يجلد بالسياط جفون التقاус الذي يترتب عليه ما لا تحمد عقباه.

وهناك حادثة تأريخية نوردها على ما فيها من غرابة تحتاج إلى إعمال النظر للدلالة على اهتمام البريد وأصحابه بكل صغيرة وكبيرة تحدث في أرجاء الخلافة وإعلام الخليفة بها، كي يكون على علم بكل ما هو سرّ أو أعلن بصرف النظر عن درجة الرفعة والضمة، ويتلخص مضمون تلك الرواية الموضوعة أن طائراً غريباً أبيض اللون حط في إحدى مناطق حلب لسبعين من

(١) الصولي، أخبار الراضي بالله والمتنبي من كتاب الأوراق، عني بشره، ج هبورث، دن، (بيروت : ١٩٧٩م)، ص ٨٢.

(٢) الصابي، المهوّات، ص ص ٢٥٨-٢٥٩.

رمضان، وشرع يصبح يا معشر الناس اتقوا الله الله الله^(١) وكرر ذلك أربعين مرة أيضاً. وما كان من صاحب البريد إلى أن هبّ لتدوين هذه الحادثة الغريبة في نمطها مشهداً عليها، خمسمائة شاهد سمعوا صوته بأنفسهم، ثم أرسل كتاباً بما حدث إلى الخليفة المأمور عام (٢٤٢هـ / ٨٥٦م)، ومع أن علم الخليفة بهذه الحادثة لا يسمن ولا يغنى من جوع شيئاً إلا أن صاحب البريد أطلع الخليفة عليه، كي لا يدع لأي مأخذ يأخذ سبيله إليه ويترك شيئاً عليه^(٢).

ومن الحوادث الطبيعية غير ذات القيمة الكبيرة، مع ما فيها من طرافة حادثة لا تستحق الذكر، ومع ذلك رفع صاحب البريد بالدينور^(٣) تقريراً إلى الخليفة المقتدر عام (٣٠٠هـ / ٩١٢م)، يذكر فيه أن بغلة (أبي بردة من أصحاب أحمد على المري) قد وضعت فلوة تامة الأعضاء، ولكنها منسلخة الذنب، فهذه الحادثة مع انتفاء قيمتها وعدم أهميتها، برغم بعض ما فيها من طرافة، لم تفلت من التدوين، فقد سارع صاحب البريد إلى إبلاغ الخليفة منطلاقاً من الكفاءة والجداره اللازمتين، لمن تناط به المسؤولية في أي حقل من الحقول بما في ذلك البريد^(٤).

كان البريد أيضاً ينقل أخبار الشعراء والشعراء ومجالس الشعراء، وما كان الولاة ينفقونه لأجل ذلك.

ففي عام (١٥٨هـ / ٧٧٤م) قدم الشاعر المؤمل بن أميل على المهدى في الري، وكان ولياً للعهد آنذاك، وأنشد قصيدة زاخرة بالإطراء والثناء بين يديه فأمر له بعشرين ألف درهم، وحين نمى الخبر إلى مسمع صاحب البريد أسرع بالكتابة إلى الخليفة يخبره بما جرى، وسخط الخليفة المنصور سخطاً

(١) السيوطي، تاريخ، ص ٣٤٨. الحنبلي، شذرات، مج ١، ج ٢، ص ١٠٠.

(٢) السيوطي، تاريخ، ص ٣٤٨. الحنبلي، شذرات، مج ١، ج ٢، ص ١٠٠.

(٣) الدينور: مدينة من أعمال الجبل قرب قرميسين ينسب إليها خلق كثير، ومن الدينور إلى شهرزور أربع مراحل. انظر: ياقوت، معجم البلدان، ج ٢، ص ٤٩٤.

(٤) القرطبي، صلة تاريخ الطبرى، ص ٤٢. ابن الجوزى، المنتظم، ج ٦، ص ١١٥.

شديداً على ما انتهى إليه من خبر الشاعر^(١)، فكتب إلى المهدى يلومه ويقول: كان عليك أن لا تعطي الشاعر أكثر من أربعة ألف درهم بعد إقامته بيابك سنة كاملة، ثم طلب منه إرسال الشاعر، وأنشاً كاتب المهدى يبحث عنه، لكنه لم يظفر به لتوجهه نحو مدينة السلام^(٢)، فاضطر إلى إعلام الخليفة بعدم وجود الشاعر في نطاق منطقته، ولما علم الخليفة المنصور بذلك أمر أحد قواه بالترصد له على جسر النهر وان وأخذ هذا القائد يتفحص الناس فرداً فرداً للظفر به وتمكن من إلقاء القبض عليه وإحضاره إلى الخليفة، وحين مثلاً بين يديه قال الخليفة المنصور، إن هذا الشعر لا يساوي هذا المبلغ فاسترجع منه المبلغ ودفع له مبلغ أربعة ألف درهم^(٣).

تشير هذه الرواية بجلاء إلى أهمية دور صاحب البريد الذي لم يخف الخبر عن الخليفة، واستطاع استرداد المبلغ الذي كان يذهب سداً لو ترك الشاعر و شأنه.

ومن البديهيات المسلم بها، هي أن البريد قد لعب دوره حتى في استدعاء الأدباء والشعراء واستقدامهم، إن رغب أي الخليفة في ذلك، مثلما حدث للأصمي^(٤) إبان حكم الخليفة الرشيد، وهذا دليل قاطع على أن البريد كان فعالاً في أداء كل ما يسند إليه من مهام صغيرة أو كبيرة^(٥).
هذا ما كان من شأن البريد مع الشعر والشعراء، وأما بالقياس إلى غيره

(١) الطبرى، تاريخ، ج. ٨، ص ص ٧٣-٧٤. الأصفهانى، الأغانى، مج ٢٢، ص ٢٥٦.

(٢) ياقوت الحموي، معجم الأدباء، (بيروت: ١٩٣٦م)، مج ١٠، ج ١٩، ص ٢٠١، ٢٠٤.

(٣) سبط الأربلي، خلاصة، ص ٦٢. الصفدي، نكت الهميان في نكت العميان (القاهرة: ١٩١٥م)، ص ص ٢٩٩-٣٠٠.

(٤) القسطى، أبناء الرواية على أبناء النهاة، تحقيق، محمد أبو الفضل إبراهيم (القاهرة: ١٩٥٠م)، ج ٢، ص ١٩٩. الأنباري، نزهة الأباء في طبقات الأدباء، تحقيق، إبراهيم السامرائي (بغداد: ١٩٧٠م)، ص ٩٣.

(٥) الأصفهانى، الأغانى، مج ١٦، ص ١٩٩. الحموي، تجريد الأغانى، ق ٢، ج ١، ص ١٧٣٦.

من الشؤون فإن البريد لم يدخل بجهد إلا وقد كرسه لخدمة الخلفاء بما في ذلك الدعاء لهم، أو الامتناع عنه على المنابر أيام الجمع، ومن الضروري إيراد حادثة تظهر ما ذهبنا إليه في هذا السياق.

في عام (٢٠٧ هـ / ٨٢٢ م) كان كلثوم بن ثابت بن أبي مساعدة على بريد خراسان وأثناء ولادة طاهر بن الحسين حضر ذات يوم صلاة الجمعة التي كان يؤم فيها طاهر بن الحسين المسلمين، فصعد طاهر المنبر، فخطب ولما بلغ ذكر الخليفة امتنع عن الدعاء له، بعد أن دعا للمسلمين بإصلاح الحال والبال^(١)، فدبّ الهلع في قلب صاحب البريد خشية وصول الخبر إلى الخليفة، وظنّ أنه أول المولى إن أخفى الأمر على الخليفة فانصرف من فوره واغتسل بغسل المولى^(٢) استعداداً لما ظن أنه مسوق لمصير محظوظ، وبعد الاتزاز بإزار الميت وطرح السواد، كتب إلى الخليفة المأمون، وبعد صلاة العصر استدعاه الخليفة المأمون، وقد خذل طاهر ميتاً لفداحة هول تصرفه، وخرج طلحة بعد أن رأى المنون، وقد أنشب أظفاره في أحشاء والده قائلاً: ردوه، فسأل الخليفة المأمون صاحب البريد، هل كتبت ما حدث أجاب نعم، فقال الخليفة إذن اكتب بوفاته، ففعل ما أمر به، ثم ولّ طلحة بن طاهر ولدية خراسان في أعقاب رحيل والده، بسبب الذعر الذي أصابه^(٣).

وهذه الحادثة إن دلت على شيء فإنما تدل على طول باع أصحاب البريد في إدارة وظيفتهم بصورة موفقة، والدليل على صاحب البريد في أداء عمله بأجلٍ صور الإخلاص للخليفة من ناحية والخشية مما يتربّ على الإهمال من سوء العاقبة من ناحية أخرى، وبناء على السببين السالف ذكرهما آنفاً، يمكن القول أن أصحاب البريد كانوا دقيقين في تسخير شؤون البريد وتيسير السبل أمام الأنبياء التي ينبغي أن تأخذ طريقها إلى الخليفة.

(١) الطبرى، تاريخ، ج٨، ص٥٩٤-٥٩٥. ابن خلكان، وفيات، ج٢، ص٥٢٢.

(٢) الطبرى، تاريخ، ج٨، ص٥٩٤.

(٣) ابن طيفور، تاريخ، ص٧٤.الأصفهانى، الأغاني، مج١٥، ص١٨٥.

الفصل الثالث

صاحب الخبر واجباته وأنواعها

أولاً : التعريف بصاحب الخبر

ثانياً : أقسام صاحب الخبر

أ - صاحب خبر الوزير

ب - صاحب خبر الوالي

ج - صاحب خبر صاحب الشرطة وقائد الجندي

ثالثاً : أنواع ومهام صاحب الخبر

أ - صاحب الخبر على الوزراء والخاصة

ب - صاحب الخبر على الولاية والقناة

ج - صاحب الخبر على العسكري وصاحب

الجسر

د - صاحب الخبر على الفقهاء والعلماء

هـ - صاحب الخبر على الشعراء والمعارفـة

والسجود

الفصل الثالث

صاحب الخبر واجباته وأنواعها

أولاً: تعريف صاحب الخبر:

هو رجل موثوق تناط به مهمة رفع جميع الأخبار إلى الخليفة خاصة تلك التي يرى وصولها أمراً تفرضه المصلحة العامة والخاصة على السواء، وهو بمثابة العين الباقرة والأذن السامعة للخليفة^(١).

وهو يتولى وظيفة حساسة أولاهَا الخلفاء العباسيون بالغ الرعاية وأفردوا لها اهتماماً متميزاً، معتمدين عليه كل الاعتماد لإيصال المعلومات الواردة إلى الخليفة الصادرة منه^(٢).

ووصفه أبو إسحاق الكاتب بأنه من أصح العمال ديانة وأكملهمأمانة وأظهراهم صيانة لأنه مؤمن على الدماء والأموال «وهو العين التي تنظر بها القيادة إلى الرعية ولذلك ليس ينبغي أن يتقدمه أحد في الصدق والثقة والأمانة غير القضاة ومن جرى مجراهم»^(٣).

ويجب أن تتوفر فيه صفة الأمانة وخشية الله، وهذا يظهر بوضوح عندما

(١) العبسي، آثار الدول، ص ٨٣.

(٢) ابن الأعثم الكوفي، كتاب الفتوح، (بيروت: د.ت)، مج ٢، ص ٢٩٧.

(٣) أبو إسحاق الكاتب، البرهان في وجوه البيان، تحقيق أحمد مطلوب، (بغداد: ١٩٦٧م)، ص ٤١٧.

أوصى الخليفة المأمون إبراهيم بن أنسندي عندما أراد أن يوليه الخبر بمدينة السلام قائلاً: «فأنظر أن تعمل بما يجب لله عليك ولا تراقب أحد غيره»^(١).

وكان صاحب الخبر ينتخب من قبل الخليفة لذا يجب أن تتوفر فيه الصفات الجيدة السابقة لكي لا يخون الدولة ويخون الأمانة في الرعية، ولضمان عدم استخدام صاحب الخبر لصلاحياته في ابتزاز أموال الرعية، يجب توسيع الرزق عليه^(٢).

ومن الصفات الأخرى التي يتوجب توفرها في صاحب الخبر هي الصدق والبيان وعدم التحيز في تقصيه للحقائق والأخبار، وعدم الانصياع لأهواء الشخصية في جمع الأخبار، وإذا تبين العكس وكذب في خبره فالواجب أن يحاسب من قبل الخليفة أو الوزير ليكون عبرة لغيره من أصحاب الأخبار^(٣).

وكان دور صاحب الخبر يفعل «على ما هو أضمن للأمن والاستقرار والطمأنينة للرعاية وذلك بفسح المجال لهم أن يقدموا شكوكاً لهم بأنفسهم في ظروف ليس فيها ضغط أو خوف أو رهبة»^(٤).

ومن مميزات هذه الوظيفة عدم وجود وسيط بين صاحب الخبر وال الخليفة أو الحاكم الذي يعينه^(٥).

(١) ابن طيفور، تاريخ، ص ص ٣٥، ٣٨.

(٢) إسحاق بن إبراهيم، البرهان، ص ٤١٧. دريد عبد القادر نوري، الشرطة في العراق خلال العصر العباسي الأول، مجلة المؤرخ العربي، (بغداد: ١٩٨٦م) العدد (٢٩)، ص ص ٢٢٣-٢٢٤.

(٣) دريد عبد القادر، الشرطة، العدد (٢٩)، ص ص ٢٢٣-٢٢٤.

(٤) ابن أبي الحميد، شرح نهج البلاغة، تحقيق أبو الفضل إبراهيم، (القاهرة: ١٩٦٤م) ج ١٧، ص ص ٨٥، ٨٧. مصطفى كامل، أصحاب الأخبار، آفاق عربية العدد (٧) ص ٦٢.

(٥) العباسى، آثار الدول، ص ٨٥.

وعلى صاحب الخبر أن ينقل كل ما يرى ويسعى بأسرع ما يمكن، وإن كان الخبر شرًّا أو خيراً، وليس له الحق في مناقشة أحد من الرعية أو الموظفين فيما فعلوا وما قالوا^(١).

ويختلف منصب صاحب الخبر باختلاف العمل الذي ينطاط به، من الشخص البسيط الذي يقوم بالتقاط الأخبار من العامة^(٢)، إلى صاحب الخبر الذي ينصبه الخليفة رقياً على أكابر عماله، وعلى الولاة في مختلف أرجاء الخلافة ويعرف (صاحب البريد)^(٣).

وليس لأحد من الولاة أو العمال أو القادة على صاحب البريد حكم ولا سلطة، ورسائله تصل إلى الحاضرة بأعجل السبل وأسرعها، وليس لأحد أن يفتحها أو يؤخرها أو يتعرض لها، بأية وسيلة^(٤)، ولصاحب البريد في الحاضرة ديوان خاص يتولاه رجل ثقة مؤتمن ويؤازره من يتميز بالصدق والأمانة والإخلاص يجمع له الأخبار التي ترد من الأطراف ويتمحصها فور صولها^(٥) ثم يبت في أمرها فتنقل الكتب والرسائل إلى الخليفة لاتخاذ الموقف بشأنها ثم يتلقى من الخليفة ما ي يعني إيصاله إلى الولاة في الأقاليم الخاضعة للخلافة^(٦).

(١) ابن طيفور، تاريخ بغداد، ص ص ٣٥، ٣٧.

(٢) م.ن، ص ٣٧.

(٣) م.ن، ص ٧١. الثنوخي، نشوار المحاضرة، ص ٥٣.

(٤) الثنوخي، نشوار، ج ٣، ص ٢٧٨. البحترى، ديوان، ج ١، ص ٥٢١. ابن طيفور التاريخ، ص ص ٣٥، ٤٢. ابن أبي الحديد، نهج البلاغة، ج ١٧، ص ٨٥. أحمد عبد العزيز محمود، الأمن في بغداد خلال العصر العباسى الأول، ص ١٧٦.

(٥) الثنوخي، نشوار، ج ٣، ص ٢٧٨. قدامة بن جعفر، الخراج، ص ١٨٤. البحترى، ديوان، ج ١، ص ٥٢١.

(٦) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ١٤، ص ٤١٠. د. محمد حسين الزبيدي، العراق في العصر البوبي، ص ٩١.

إن عملية فض الرسائل وفرزها كانت تتم بحضور الخليفة وتحت إشرافه المباشر ليطمئن قلبه إلى ما يجري تحت سمعه وبصره ولا تفوته شاردة ولا واردة إلا وهو مطلع عليها وبين قراره وفقاً لما يتطلبه الموقف من ناحية وتركت إلى عدم وجود مساس به وبأركان خلافته وفي حالة وجود ما يبعث على الريبة يتفضل للتصدي له وقطع دابرها من أقصر السبل.

وصاحب الخبر كان لصقاً بال الخليفة نظراً لحساسية المهمة المسندة إليه والأسرار الخطيرة التي يطلع عليها بحكم منصبه لذلك كان شديد الاتصال بصاحب البريد^(١)، ويدل هذا الاتصال الوثيق على أهمية حرفة نقل الأخبار، ومركز صاحب الخبر والمؤسسة التي يعمل فيها فهو يحتل المرتبة الوظيفية الثانية بعد الخليفة، وهذا الأمر يمنحه الاطلاع على البريد وما يأتي من أخبار مشتملة على أنواع شتى^(٢) من الأسرار لذلك يعد بمثابة مدير عام لهذه المؤسسة بلغة عصرنا لكن ذلك لا يعني إطلاق يده في العمل، بل كانت تقيده بعض الضوابط التي لا تسمح له التصرف حسب مشيئته لما لذلك من خطير مستقبلي قد يلحق الضرر بالخلافة.

وقد ظهر مفهوم صاحب الخبر أيام العباسين الذين ورثوا تقاليد الدولة الأموية الإدارية وطوروه بحيث شمل تنظيم العمل الاستخباري والعناية الخالصة بالبريد وتوفير جميع المستلزمات الضرورية لتطوير الخدمة البريدية على أحسن صورة في أرجاء الخلافة لأن البريد كان وسيلة لهم الفضلى لتوثيق صلات أطراف وأرجاء الخلافة المتراوحة^(٣).

ولما لم يكن يقتصر دور البريد على نقل الأخبار المستجدة بل امتد إلى

*

(١) الجهشياري، الوزراء، ص ص ١٦٠، ١٦٢.

(٢) كامل مصطفى، البحث السابق، ص ٦٢.

(٣) م.ن، ص ٦٢.

القيام بالأعمال الاستخبارية لذلك أطلقت كلمة العيون على العاملين في البريد^(١) وعلى رئيسه صاحب البريد أو صاحب الخبر^(٢).

وكان صاحب البريد يكاتب الخليفة بالأخبار المتنوعة ذات الأهمية العالية وهو مسؤول أحياناً عن ديوان الخرائط لذلك سمي صاحب البريد والخرائط معاً أو صاحب البريد فقط^(٣).

وقد ذكر الصابي أن أبو مروان عبد الملك بن محمد بن عبد الملك الزيات الخرائطي كان يتولى ديوان الخرائط، كما تولى أحمد بن أبي خالد فض الخرائط بين يدي الخليفة المأمون^(٤).

وهكذا كان أصحاب البريد عيون ساهرة ترصد نشاطات العمال والولاة على الصعيدين الإيجابي والسلبي ثم يرفعونها إلى الخليفة^(٥)، ليقرر ما ينبغي فعله بشأنها، وكانت نشاطات هؤلاء البريديين منتظمة وفعالة في مجال نقل المعلومات رغم وجود بعض العوائق كعدم توفر وسائل نقل سريعة وبالكمية المنسجمة مع كثرة الحاجات في تلك الأثناء^(٦).

وكان لديوان البريد أهمية خاصة وصاحبها هو المعتمد الخاص لدى الخليفة، وهو مكلف من قبل الخليفة بتقديم التقارير السرية بشكل دوري منظم عن أحوال الولاية وسير الإدارة فيها، وهذا يعني أن الخليفة لم يكن يألو جهداً إلا وقد بذله في سبيل تنظيم شؤون الخليفة وتوطيد أركانها لأن أي

(١) المقرizi، الخطط، ج٤، ص٨٨. الهروري، تذكرة الهرورية في الجيش الحرية، تحقيق، مطيع مرابط، (بيروت: ١٩٦١م)، ص٧٩. عبد المنعم ماجد، تاريخ، ص٣٨.

(٢) ابن الأثير، الكامل، ج٦، ص٢٣٠.

(٣) الصابي، تحفة الأمراء، ص١٥٩.

(٤) م.ن، ص١٥٩. محمد حسين الزبيدي، العراق، ص٩٦.

(٥) العباسi، آثار الأول، ص٨٢. محمد حسين الزبيدي، العراق، ص٩٣.

(٦) غوانمة، التاريخ الحضاري، ص ص٥٨-٥٩.

إهمال يسترسل حبله على الغارب سيؤدي بالضرورة إلى إحداث الفجوات والثغرات التي يصعب ردمها فيما بعد.

لذلك كان البريديون معنيين بتنظيم نشاطاتهم وتكثيفها للتخرج النتيجة في ثوبها الزاهي معتمدين في مجال عملهم على عيون متشرة ومتخفية بين الرعية يوافونهم بكل ما يتناهى إلى مسامعهم من أخبار ويقوم أولئك الإخباريون بإيصالها إلى الخليفة بالسرعة الممكنة^(١)، ولا ننسى أن قوة وإمكانية أصحاب البريد كانت مستمدّة من قوة الخليفة وسلطته، لذلك لم يترهـب سلطة أي شخص مهما علا شأنه وعظمت منزلته سـوى سلطة الخليفة ذاته^(٢).

وقد اهتم العباسيون بنظام البريد وأشرف بعض خلفائهم على تعيين البريدـين بأنفسـهم مباشرة، بغية الاطلاع على أحوال ولاـتهم ونوابـهم ورعاـياتـهم، فقد كان الخليفة المنصور يختار للبريد من أصلـح العـمال دـيانـة وأكـملـهم أـمانـة وأـظـهرـهم صـيانـة لأنـه عـينـ الخليـفة ومـصـدرـ ثـقـته^(٣).

كما استخدم الخليفة المنصور نفسه ولاة البريد عـيونـاً على الـولـاة والـقضـاء وأـصـحـابـ الشـرـطة وـغـيرـهـمـ منـ عـمـالـ الدـولـةـ فـكانـ البرـيدـ والـحـالـةـ هذهـ دـعـائـةـ مـهـمـةـ منـ دـعـائـمـ الأـمـنـ فيـ الـبـلـادـ^(٤).

ومـاـ يـؤـكـدـ أـهـمـيـةـ صـاحـبـ البرـيدـ الخـاصـةـ فيـ العـصـرـ العـبـاسـيـ ماـ ذـكـرـهـ

(١) سعيد عبد الفتاح، تاريخ الحضارة، ص ١٧٠. جرجي زيدان، تاريخ التمدن، ص ص ٢٣٩-٢٤٠.

(٢) قدامة بن جعفر، الخراج، ص ص ١٨٥-١٨٦. مجموعة مؤلفين، حضارة العراق، ج ٦، ص ١٤٦. عجمي محمود خطاب الجنابي، هارون الرشيد، ص ٤٢.

(٣) ابن خرداذبة، المسالك، ص ص ١٨٤-١٨٥. عجمي محمود، هارون الرشيد، ص ٤٢. محمد حسين الزبيدي، العصر البويمي، ص ص ٩٢-٩٣.

(٤) السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص ٤٤٨. حسين علي الداقوقـيـ، نظامـ، ص ٨٨. حـسنـ إـبرـاهـيمـ، تاريخـ الإـسـلامـ، جـ ٢ـ، صـ ٢٧٠.

محمد بن سالم الخوارزمي الذي كان والده من قواد خراسان نقلًا عن الخليفة أبي جعفر المنصور قال: «ما أحو جني إلى أن يكون على بابي أربعة نفر فقيل له: يا أمير المؤمنين من هم؟ قال: هم أركان الملك ولا يصلح الملك إلا بهم... أما أحدهم فقاض لا تأخذه في الحق لومة لائم، والأخر صاحب شرطة، ينصف الضعيف من القوي والثالث صاحب خراج يستقصي ولا يظلم الرعية والرابع صاحب بريد يكتب بخبر هؤلاء على الصحة...»^(١).

ويستدل من هذا النص أن الخليفة كان يؤثر أيمًا إيثار صاحب البريد على جميع العاملين في شتى الوظائف الحساسة الأخرى، لوظيفتي صاحب الشرطة وصاحب الخراج والقاضي، لما لوظيفته من عظيم الشأن وبلغ الأثر فهو مطلع بحكم عمله في منصبه على دقائق الأسرار وبواطن الأمور وهذه الخصوصية تمكّنه من فعل ما يشاء سلباً وإيجاباً فإن حجب الأخبار الهامة عن الخليفة لوقع فيما لا تحمد عقباه ولتعرضت الخلافة لمصير غير محمود النتائج.

لذلك لم يكن مستغرباً إذا أخضع الخليفة أصحاب البريد لامتحان لاختبار النوايا^(٢) والإمكانات واختيار الأنسب للعمل في هذا الحقل^(٣).

ثانياً: أقسام صاحب الخبر:

أ- صاحب خبر الوزير:

لم يكن الخليفة وحده يستعين بصاحب الخبر الذي كان يطلعه على كل

(١) الطبرى، تاريخ، ج، ٨، ص ٦٧. ابن الأثير، الكامل، ج٦، ص ٢٦. ابن العمري، الأنباء، ص ٦٢. ابن خلدون، تاريخ، مج ٣، ص ص ٢٠٤-٢٠٥. أبو زيد شلبي، تاريخ، ص ١٤١. حسن إبراهيم، تاريخ الإسلام، ج ٢، ص ٢٧٠.

(٢) القلقشندي، صبح، ج ١، ص ١٥١.

(٣) المقرizi، الخطط، ج ٤، ص ٨٨. عبد المنعم ماجد، تاريخ الحضارة، ص ٣٨.

شيء يحدث في أرجاء الخلافة ليقوم بدرء المخاطر عنها ويتجنب مغبة المساس بالمفاصل الأساسية لها، بل كان الوزير هو الآخر يستعين بصاحب الخبر أيضاً لدعم موقفه وإسناد سلطته عن طريق إيصال المعلومات إليه، فيقوم بدوره بالتدقيق فيها، وتوظيف ما هو صالح لتعزيز موقعه أو إبلاغ الخليفة بما من شأنه تقويض أركان الخلافة^(١).

وكان أصحاب الأخبار منتشرين في بغداد وخارجها مهمتهم الكتابة عن ما يقال من الإشاعات والأرجيف التي قد تتردد أصداؤها بين أوساط الخاصة والعامة على حد سواء، وكان هؤلاء يتصرفون بالسرعة المدهشة في نقل تلك الأخبار إلى الوزير^(٢).

وفي معرض سياق الحديث عن أصحاب الأخبار تذكر رواية تأريخية عام (٢٩٦هـ / ٩٠٨م)، فحوارها أن صاحب الخبر كتب إلى الوزير أبي الحسن ابن الفرات يستأذنه دخول ناصح عليه لأمر هام لا يفضي به إلا للوزير نفسه، وبمعزل عن الناس^(٣)، ولما دخل الناصح على الوزير أفرغ ما في جعبته بخصوص المناهض للسلطة محمد بن داود، وقال إنه يعرف موضعه الذي بات فيه الليلة المنصرمة، فدعا الوزير حاجبه العباس الفرغاني، وأمره بجمع عدد من الرجال لإلقاء القبض على المعارض المذكور، وعندما طفقو يفتثرون الدور لم يعثروا على أثر له، فأعيد المتنصح إلى حضرة الوزير الذي أنزل به العقوبة المتمثلة في ضربه مائتي مقرعة ثم شهر به على جمل ونودي عليه هذا جزاء من يسعى بالباطل، ثم كتب الوزير إلى الخليفة المقتدر يشرح له الموقف^(٤).

(١) الصابي، تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء، تحقيق، عبد الله مخلص، (القاهرة: ١٩٠٨م)، ص ٣٣٦.

(٢) خواجه نظام الملك، سیاستنامه (سیر الملوك)، (طهران: ١٩٥٣م)، ص ٩٤-٩٥.

(٣) مسکویه، تجارب، ج ١، ص ص ١٠-١٢.

(٤) م.ن، ج ١، ص ص ١٠-١٢.

ومما لا يجوز إغفاله، هو أن الوزير أقدم على هذه الفعلة لا لارتيابه في صدق الرجل بل لمنع نظرائه من الإقدام على شيء لا يسفر عن النتيجة المحدودة^(١) وإن لم يكن الأمر كذلك لما كافأ المتنصل بمئتي دينار لأن السعاية الكاذبة لا تك足 وإن الوشاية الباطلة لا مثوبة لها. ومواكبة لخط سير أنشطة أصحاب الأخبار نذكر أن صاحب الخبر كتب إلى الوزير أبي الحسن بن الفرات يقول له: إن الناس غير راضين عن قيامه بإسناد الأعمال إلى بسطام وآل نونجت وقد شعر الوزير بسخط على مضمون الكتاب، وقال والله لن أتخلى أن استعمل آل نونجت مهما كانت الأعذار والأسباب. والمستفاد من هذا الإصرار الشديد على استعمال هؤلاء هو انتسابه إلى نفس المذهب الذي يدين به كل من آل بسطام^(٢) وآل نونجت^(٣).

وما زال الحديث يتواصل بشأن اعتماد الوزراء على أصحاب الخبر والاستعانة بهم، لمعرفة ما يجري من الأمور السرّية والعلنية، ففي أيام تولى أبي الحسن بن الفرات^(٤) الوزارة الأولى (٩٠٨هـ/٢٩٦م) وجد سليمان بن الحسن متقلداً مجلس المقابلة في ديوان الخاصة من قبل علي ابن عيسى ولما رأى الكفاءة والأهلية تميز أنه، قلده الديوان بأسره^(٥).

كان لصاحب الخبر أدوار سياسية وإدارية كبيرة في بغداد، وكان له تأثير وإعادة الموظفين المقصوبين والمعاقبين^(٦). كما حدث في إعادة مدير

(١) التّنخي، نشوار، ج٨، ص ص ١٩١-١٩٣.

(٢) بسطام، هذه نسبة إلى بسطام وهي بلدة بقوس مشهورة. انظر: ياقوت، معجم البلدان، ج٢، ص ٢١٣.

(٣) التّنخي، نشوار، ج٨، ص ص ١٩١-١٩٢.

(٤) أبو الحسن علي بن محمد بن موسى بن الحسن بن الفرات، وزير المقتدر بالله. انظر: ابن خلكان، وفيات، مج ٣، ص ص ٤٢١-٤٢٢.

(٥) التّنخي، نشوار، ج٨، ص ص ١٩١-١٩٢. ابن خلكان، وفيات، مج ٣، ص ص ٤٢١-٤٢٢.

(٦) ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص ٢٠.

ديوان الخاصة على عهد علي بن عيسى عام (٩١٠ هـ / ٢٩٨ م)، حيث عوقب الرجل وصودرت أملاكه، إلا أن صاحب الخبر كتب بحقه تقريراً منصفاً للوزير فأعاده بعد إكرامه^(١).

وكذلك قام صاحب الخبر في عام (٣١١ هـ / ٩٢٣ م) بتبرئة ساحة أحد موظفي الدولة المدعو (البزوفرى)^(٢) بعد أن اتهم وعدب وأبعد إلى واسط^(٣) من بغداد، حيث تتبع أخباره صاحب الخبر وتمكن من مساعدته بعد أن رفع بذلك تقريراً عنه إلى الوزير ابن الفرات^(٤).

وهذا دليل آخر ينضم إلى الأدلة الأخرى التي ثبتت جداره أصحاب الأخبار وقدرتهم على إظهار الحق وتبصير الوزراء به وإزالة الشبهات ودرء الالتباس والتصدي لكل من يصطاد في الماء العكر.

وهناك حلقة أخرى لا بد من إضافتها إلى سلسلة الأحداث التي كان أصحاب الأخبار لا يتربدون عن إيصالها إلى الوزراء. فور تناهيتها إلى اسماعيل فقد كتب صاحب الخبر بمدينة السلام إلى إسماعيل بن بلال في وزارته الأولى للمعتمد، يقول: إن جارية غنت عند الحسن بن مخلد، وكان في غنائها ما فيه سوءاً لل الخليفة^(٥)، ويستدل منه على عداء للخلافة، وأنهى إسماعيل ذلك إلى الخليفة المعتمد، وقال هذا يضرم إلى الشر ويترصد بك الدوائر فأمر الخليفة بنفيه إلى مصر فمات هناك.

(١) الثنوخي، نثار، ج ٨، ص ص ١٩١-١٩٣.

(٢) البزوفرى، هو محمد بن علي البزوفرى، للمزيد عن قصة البزوفرى وأخبار إعادته، انظر: مسكونيه، تجارب، ج ١، ص ١٠٣.

(٣) واسط: وهي مدينة تقع في شرقى دجلة، وقد بناها الحاجاج بن يوسف الثقفى سنة ٣٤٨ هـ، وكملاً عام ٨٦ هـ. انظر: ياقوت، معجم البلدان، ج ٥، ص ٣٤٨.

(٤) الثنوخي، نثار، ج ٨، ص ص ١٩١-١٩٣. ابن الأثير، الكامل، ج ٨، ص ص ١٤١-١٤٣.

(٥) الثنوخي، نثار، ج ٨، ص ص ٣٠-٣١.

لقد شَمَّ صاحب الخبر رائحة الوعيد المبطن والبحث على التربص بال الخليفة مستدلاً بما انتشر من الإشارات في ثنايا الأبيات^(١) فأسرع إلى اطلاع الخليفة على ما كان من أمر الجارية مع الحسن بن مخلد^(٢).

وفي عام (٣٢٠هـ / ٩٣٢م) طلب الوزير ابن الفرات، بأمر من الخليفة الظاهر من أبي علي الحسين بن صالح خيران البغدادي تولى منصب القضاء، فامتنع عن الاستجابة لطلب الوزير، فغضب عليه وحبسه في داره عدة أيام فوَكَلَ به نفراً بعد أن ختم على بابه، وقد احتاج إلى الماء خلال فترة حبسه، وأخذ يستعين بمن يجاور داره، وعندما سمع صاحب الخبر بالأمر، أخبر الوزير به، فرق قلبه لحاله وأفرج عنه^(٣).

هذه بينة أخرى تضاف إلى البيانات التي تشهد بأهلية أصحاب الأخبار وصلاحيتهم لوظائفهم وعدم تفويتهم لأية فرصة، إلا وقد سارعوا إلى استغلالها لصالح السلطة ونصرة الحق من خلال الوزراء الذين كانوا يبادرون بدورهم إلى إخبار الخلفاء ويتهمي إليهم من أمور صغيرة أو كبيرة.

ب- صاحب خبر الوالي:

لقد تشعبت أذرع أصحاب الأخبار حتى كادت تشبه أذرع الأخطبوط التي تمتد إلى كل ناحية وصوب لاكتناص الفرية وشمل هذا التشبع النشيط النساء أيضاً، فقد أورد سبط الجوزي رواية محتواها أن الحاكم الفاطمي بمصر الحاكم بأمر الله^(٤) كان شغوفاً بالركوب والطواف بالأأسواق ليلاً،

(١) ياقوت الحموي، المشترك وضعماً والمفترق صقعاً، (طبعة جونتجهن: ١٨٤٦م)، ص ٤١٤.

(٢) التئوخي، نثار، ج ٨، ص ص ٣٠-٣١.

(٣) الحنبلي، شذرات، ج ٢، ص ٢٨٧.

(٤) الحاكم بأمر الله، هو المنصور الملقب الحاكم بأمر الله بن العزيز بن المعز بن المنصور = ابن القائم بن المهدى صاحب مصر، تولى الحكم عام ٣٨٦هـ وقتل سنة ٤١١هـ. انظر:

ففي عام (٤٠٥ هـ / ١٤١٤ م) قد بث أصحاب الأخبار في كل الأرجاء والنوادي لموافاته بما يقع تحت الأسماع والأنظار من الأخبار والأسرار، كما نشر عناصر نسوية لاصطياد أخبار النساء وما يتعلق بهن من نشاطات غير مشروعة وإذا بلغه عن دار يجري فيها ما لا ينسجم ومنتق الأخلاق اتخذ الإجراءات الصارمة بحق كل امرأة تأتي من الإثم والفحشاء ما يخرج عن نطاق الشريعة، وأمر بعض أتباعه بأن ينادي في الناس، ويقول إذا خرجة أية امرأة ليلاً أو نهاراً فإن دمها مستباح، فلم تجرؤ بعد ذلك النساء امرأة على الخروج^(١).

يشير ما سبق إلى أن حاكم مصر قد تمكّن من معرفة أحوال الرعية في مختلف المجالات بما فيها الجانب الأخلاقي وضبطها محكماً عن طريق أصحاب الأخبار. وهناك دليل ساطع وبرهان قاطع على أن الوالي لم يخف عليه خافية داخل مركز الخلافة والأمصال الخاضعة له.

تمكّن عضد الدولة من بث جواسيسه في كل مكان وبين مختلف طبقات الشعب ينقلوا له الأخبار ويترصدوا الموقف عن كثب وكان المخالف يقاد إلى بغداد لينال جزاء العادل، كما حدث مع الشيخ الذي تشاجر مع أحد جواسيسه في مصر بشأن درهم لا يصلح للتداول، ولما اشتد الشجار بينهما، أغاظ الشيخ له بالشتم ولمن أمر بضرب الدرهم، فاقتيد إلى بغداد ومثل بين يدي عضد الدولة وتعرّض للمحاسبة والمساءلة لما فعله.

وبعد العودة إلى مصر، تحدث بما جرى له مع عضد الدولة، وطار الحديث في الآفاق والمجالس وطرق كل مسمع، فغدا ذلك أمراً مهاباً لدى

= ابن خلكان، وفيات، ج٥، ص ص ٢٩٣-٢٩٢. السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص ٥٢٤.
 (١) سط ابن الجوزي، مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، (حيدر آباد الدكن: ١٩٥١ م)
 ص ص ٢٩٤-٢٩٣.

أهل البلد فصاروا بقولون الحذر الحذر، إذا رأوا غريباً في أوساطهم وأمسكوا عن ذكر عضد الدولة بشيء بعد تلك الحادثة^(١).

ج- صاحب خبر صاحب الشرطة وقائد الجندي

هناك ما يشير إلى أن منصب صاحب الخبر في العصر العباسي، كان مستقلاً عن منصب (صاحب الشرطة)، بل إن صاحب الخبر لا علاقة له بجهاز الشرطة العام ولا يتبع تنظيماته، ولكن الشرطة كتنظيم من تنظيمات الدولة، كان لها عناصرها السرية الخاصة بها، كما كان للخليفة (صاحب خبره الخاص)، هذا فضلاً عن الوزراء الذين استخدموها أيضاً أهل الأخبار لتزويدهم بالتقارير السرية اليومية^(٢). فقد كان أفراد هذه العناصر السرية يقدمون تقاريرهم اليومية الخاصة إلى صاحب الشرطة تسمى (رقاع أصحاب الشرطة)، يخبره كل واحد منهم «بخبر يومه وما جرى في عمله»^(٣)، فضلاً عن مراقبة نساء الوزراء والأمراء المبعدين عن الخدمة^(٤).

وقد كان لجهاز الشرطة عيون ومعتمدون مهمتهم جمع الأخبار، ومتابعة المجرمين والتعرف على أماكنهم يضاف إلى ذلك أن الشرطة كانت تستعين بالتّوابين، وهم اللصوص السابقون الذين تابوا وتركوا السرقة فعملت الشرطة على استمالتهم فاستخدمتهم ودفعت لهم الرواتب الشهرية ليدلُّوا على اللصوص ومرتكبي الجرائم^(٥).

والجدير ذكره هو أن رئيس مخبري الشرطة، كان من المقربين

(١) الروذراوري، ذيل كتاب تجارب الأمم، (القاهرة: ١٩٢٦م)، ج٣، ص ص ٦٠-٦٣.

(٢) عبد الواحد ذنون طه، صاحب الخبر وأهل الأخبار، مجلة الشرطة (بغداد: ١٩٧٥م)، العدد (٣٠)، ص ٥٧.

(٣) التّنخي، الفرج، طبعة (القاهرة: ١٩٥٥م)، ج٢، ص ٢٧٣.

(٤) ابن طيفور، تاريخ، ص ٣٦.

(٥) المسعودي، مروج، ج٤، ص ص ٢٤٨ - ٢٥٠.

لصاحب الشرطة^(١)، وتفنن في استخدام المخبرين كأدوات عملية تعمل بانتظام في دوائر الدولة، وتقتضي الأخبار من خلال عملها اليومي، ضمن العاملين والموظفين، وشمل مجال عملهم السجون أيضاً، فكانوا يدخلون السجن بصفة السجناء، وبعد بناء العلاقة مع نزلاء السجن كانوا يعرفون الظالم من المظلوم^(٢).

ومن الجدير باللحظة أن قادة الجندي كانت لهم أيضاً العيون والمخبرين الذين كانوا يوافونهم بكل الأخبار سرّاً ويطلعونهم على كل مخالفة قد تفسد الجيش وتضعفه. وقد أشار المؤرخ مسكونيه إلى قصة تاريخية مفادها، أنه في سنة (٩٦٦ هـ / ٣٥٦ م) أوشك (معز الدولة)^(٣) على الاستسلام للمردي فاستدعى ابنه وأوصاه بالطاعة والاستماع لمن هم أهلاً للمشورة وأعلم منه في السياسة، ومداراة الدليل ومنحهم استحقاقاتهم عند حلول مواعيدها تلافياً لحدوث الشغب، والإحسان إلى الأتراك لكونهم جمهرة عسكرية، وبدلأً من الاستمساك بعروة تلك الوصايا القيمة تمرد على مضمونها والانصراف إلى اللهو ومعاقرة الخمر^(٤) وترتب على ذلك ما لا تحمد عقباه فاستوحش الناس منه، واشتد طمعه في إقطاعات كبار حاشيته وصاحب جيشه سپكتكين، وكان للأخير أصحاب أخبار في العسكر وفي دار الوزراء ولكرثة جواسيسه المنبثة بين الحاشية والبطانة لم يخف عليه شيء^(٥).

(١) التّنخي، الفرج، ج١، ص ١٠٨، ١٨٦. دريد عبد القادر نوري، الشرطة في العراق في العصر العباسي الأول، مجلة المؤرخ العربي، (بغداد: ١٩٨٦م)، العدد (٢٩)، ص ص ٢٢٣-٢٢٤.

(٢) التّنخي، الفرج، ج١، ص ١٣٠.

(٣) معز الدولة، أبو الحسين أحمد بن أبي الشجاع بن فنا خسرو وهو عم عضد الدولة. انظر: ابن خلكان، ج١، ص ص ١٧٤-١٧٥.

(٤) مسكونيه، تجارب، ج٢، ص ص ٢٣٤-٢٣٥.

(٥) م.ن، ج٢، ص ص ٢٣٤-٢٣٥.

ثالثاً: أنواع ومهام صاحب الخبر:

أ- صاحب الخبر على الوزراء والخاصة:

لقد أدرك الخلفاء العباسيون بحكم الفطرة البشرية، أن المرء قليل بنفسه كثير أخيه وليس بمقدور أحد الهيمنة على المرام وتحقيق المروم، إلا باستمداد القدرة من ذويها وبناء على هذا المنطق الطبيعي، لجأ الخلفاء إلى الاستعانة بأصحاب الأخبار على مراقبة الوزراء وأنولاة، وتتبع تصرفاتهم خطوة خطوة ورصد ميلهم بفحص آرائهم المناصرة لل الخليفة أو المناوئة له توخيًّا للحذر من المناوئة والمناوئين، لأن الوزراء والولاة بمثابة الدعائم الارتكازية التي تستند إليها سلطة الخلافة حماية لها من التقويض والاهتزاز.

ومن الخلفاء الذين أنجدهم أصحاب الأخبار بما يتصل بالوزير من أمور، الخليفة المعتصم، وقد ذكر أن القاسم بن عبيد الله الوزير تفرّد بالوزارة بعد وفاة والده، والابتعاد عن إنجاز الأعمال، وكان خائفاً من وصول خبره إلى الخليفة^(١).

كان الخليفة يرسل بعيونه من المخبرين له على هيئة المتسولين يجلسون على أبواب الوزراء يتقصوا له أخبارهم^(٢).

وفي عام (٩٢٧هـ / ١٤٠٣م) استوزر الخليفة المقتدر علي بن عيسى وكان في دمشق وقتئذٍ، فكلَّف صاحب خبره بإبلاغه بالأمر، كي يعود لتسليم المنصب، ثم أمر أبا القاسم الكوذاني بتعميم تقليله الوزارة على النواحي وجميع الأمراء وأصحاب البريد والخبر والقضاة ليكونوا على علم بذلك الاستizar^(٣).

(١) الطبرى، تاريخ، ج٨، ص٨٨ وما بعدها. التنوخي، نثار، ج٣، ص٢٧٦.

(٢) التنوخي، الفرج، ج٢، ص٨٥-٨٦.

(٣) مسکویه، تجارب، ج١، ص١٤٩.

وفي أيام الخليفة القادر بالله^(١)، قصد الوزير أبو القاسم المغربي العراق هارباً من خليفة مصر الحاكم بأمر الله، وتوجه إلى كنف الوزير فخر الملك فارتفع خبره إلى الخليفة من لدن صاحب الخبر، واتهمه بأنه ورد لإفساد الدولة العباسية، وبقي أبو القاسم في واسط إلى أن توفي فخر الملك، وشرع بعد ذلك يستعطف قلب القادر بالله، محاولاً التّنصل مما أنسد إليه، فدبَّ الصلاح بينهما فعاد إلى مدينة السلام ثم تركها قاصداً الموصل^(٢).

وفوق هذا كان يكلف من يمثل صاحب الخبر، وكان عليه تقمص شخصيات أعداء الخليفة من المعارضين^(٣)، والزندقة بشكل خاص^(٤)، لاكتشاف ما هو مكنون في صدورهم من أسرار أو أحقاد تشكل خطراً على الخليفة وأمنه، ونرى لزاماً أن نشير إلى نص يوضح ما ذهبنا إليه فقد «رفع صاحب الخبر إلى المنصور أن مطيع بن إياس زنديق وأنه يعاشر ابنه جعفرأ، وجماعة من أهل بيته، ويوشك أن يفسد أديانهم لينسبوا إلى مذهبهم...»^(٥).

يستدل بهذا النص على أن أقرب المقربين من الخليفة لم يفلت من رقابة صاحب الخبر، وإلا كيف تيسر له رصد وكشف العلاقة بين ابن الخليفة ومطيع بن إياس.

وقد كان رد فعل المهدى عنيفاً يوم ظن أن أباه الخليفة المنصور يريد أن يجعل أخيه جعفر ولئلا لعنهده، إذ قال لعمارة بن حمزة: «إنه سيقتل أباه إن فعل

(١) القادر بالله، هو أبو العباس، أحمد بن إسحاق بن المقتنى بالله، بويع له بالخلافة سنة ٣٨١هـ وتوفي عام ٤٢٢هـ. انظر: ابن العمراني، الأنباء في تاريخ الخلفاء، ص ص ١٨٣، ١٨٦.

(٢) ابن خلكان، وفيات، ج ٢، ص ١٧٥.

(٣) ابن طيفور، تاريخ، ص ص ٤٢ - ٤٣.

(٤) أبو الفرج الأصفهاني، مقاتل، ص ص ٥٠٣ - ٥٠٥.

(٥) الأصفهاني، الأغاني، ج ١٣، ص ص ٣١٧ - ٣١٨.

ذلك، فلما دخل عمارة على المنصور بعد سماعه تهديد المهدى مباشرة بهدف تبليغ الخليفة ما سمعه من ابنه المهدى، قال له الخليفة المنصور «أنا أخبرك قبل أن تخبرني جاءك المهدى، فقال كيت وكيت...»^(١).

وبلغ الخليفة المنصور من الدقة في الرد معرفة نوايا ابنه المهدى حداً عجيباً جعل عمارة بن حمزة يعلق على قول الخليفة «والله يا أمير المؤمنين لكأنك حاضر ثالثنا»^(٢).

وإن هذه الروايات التاريخية تظهر بجلاء ما بعده جلاء أن الخلفاء العباسيين كانوا محكّمين بقضائهم على الخلافة بصورة يتذرع بها على أي شخص إلهاق الأذى بأمنهم.

لقد كان مسرور الكبير خادماً للخليفة المهدى أول الأمر، ثم انتقل إلى خدمة الخليفة الرشيد، بعد أن آلت إليه مقاليد الخلافة، فصار موضع سره ومنفذ أمره^(٣)، وهو الذي قتل الوزير جعفر البرمكي بأمر من الخليفة الرشيد، وأسهم إسهاماً فعالاً في تصفيته البرامكة عام (١٨٧هـ / ٨٠٢م)^(٤).

وفي سنة (١٩١هـ / ٨٠٦م) غزا الروم قائد الخليفة الرشيد هرثمة بن أعين، وكان معه مسرور الكبير الذي أُسنِدَ إليه الإشراف على جميع النفقات ما خلا الخلافة^(٥)، ومع إسداء أجل الخدمات للخليفة الرشيد الذي اتهمه

(١) الطبرى، تاريخ، ج٨، ص٦٩.

(٢) م.ن، ج٨، ص٦٩.

(٣) الطبرى، تاريخ، ج٨، ص٢٩٥-٢٩٦. ابن الأثير، الكامل، ج٦، ص١٧٨-٢٠٧.

(٤) الطبرى، تاريخ، ج٨، ص٢٩٥-٢٩٦. التنوخي، نثار، ج٧، ص٧٤ هامش رقم ٣. ابن الأثير، الكامل، ج٦، ص١٧٦-١٧٩.

(٥) التنوخي، نثار، ج٧، ص٧٤ هامش رقم ٣. ابن الأثير، الكامل، ج٦، ص١٧٨، ٢٠٧.

بكونه رقياً عليه من قبل نجله المأمون كما كان يتهم الطيب بختشيوع بالتهمة ذاتها من قبل نجله الآخر الأمين^(١).

إن ما يمكن استنباطه هو أن الخليفة الرشيد لم تولد لديه هذه الظنون والشكوك في أقرب المقربين إليه بمجرد وساوس الاتهام وهواجس الريب، بل لا بد من أن تكون هذه الوساوس والهواجس قد نتجت عن رفع تقارير سرية مرفوعة على أولاده من قبل أصحاب الأخبار، وإلا كان من الصعب تكيف النفس وإخضاعها للريبة في أقرب الثقات إليه.

لما توجه الخليفة الرشيد إلى خراسان جدد البيعة لابنه المأمون، وأعلم بذلك القواد وسائر الناس وحكم له بجميع الممتلكات المتمثلة في الأسلحة والأحوال، وما إن بلغ الأمين خبر ذلك مع اشتداد والده الموشك على الاستسلام للمأب المحظوم، جنَّد أصحاب الأخبار لجمع المعلومات المتعلقة بأبيه وإرسالها إليه^(٢)، وكلف بكر بن المعتمر بحمل كتب في صناديق محكمة إلى القواد هناك، على أن يخفى الأمر عن الجميع بمن فيهم الخليفة الرشيد نفسه، وفي حالة وفاة الخليفة يدفع الكتب إلى المعنيين بها، ليُلعب كل منهم دوره لصالحه مقرضاً بإظهار الطاعة المطلقة له دون سواه^(٣).

تروى رواية تأريخية طريفة غالٍ في الغرابة وأوغلت في الإثارة فحوها أن القاسم بن الرشيد كان متmadياً في إسرافه من حيث الإساءة إلى أخيه وحاشيته وسائر الناس، لا تليق بالدولة العباسية، حيث كان صاحب الخبر يرفع كل صغيرة وكبيرة إلى الخليفة المأمون حتى التي كانت متعلقة بالبيت الحاكم^(٤).

(١) الطبرى، تاريخ، ج، ٨، ص ٣٣٩.

(٢) الطبرى، تاريخ، ج، ٨، ص ٣٣٨. الجهشيارى، الوزراء، ص ص ٢٢٠ - ٢٢١.

(٣) الطبرى، تاريخ، ج، ٨، ص ٣٦٥. الجهشيارى، الوزراء، ص ص ٢٢٠ - ٢٢١.

(٤) البههى، المحسن والمساوئ، طبعة (القاهرة: ١٩٦١م)، ج ١، ص ٣٨٣. للمزيد انظر: البهوى، م.ن.

وفي عام (٢٣٣هـ / ٨٤٧م) غضب الخليفة الواثق على أخيه جعفر المتوكل لبعض الأسباب فوكل عليه^(١) كلاً من عمر بن فرج الرخجي ومحمد بن العلاء الخادم بقصد رفع التقارير عنه في كل حين وأن، فصار جعفر المتوكل لا يطيق ما هو فيه فعزم على الاستعانة بالوزير محمد بن عبد الملك الزيات وطلب منه أن يكلم أخاه الواثق بشأن غضبه عليه، والعفو عنه ودخل جعفر على الوزير وهو منشغل بالنظر في الكتب الواردة عليه، وبعد الفراغ التفت إليه وخاطبه بلهجة المهدد سائلاً ما جاء بك ، قال جئت أطلب رضى الخليفة عنِّي ، فنظر الوزير إلى من حوله وقال لهم ، انظروا إلى هذا يغضب أخيه ثم يطلب مني استرضاءه له^(٢) ، ثم التفت إلى جعفر وقال له اذهب متى صلحت رضي الخليفة عنك.

لقد خاب أمل جعفر فيما سعى إليه ، ولم يستجب الوزير لطلبه وباءت أمنياته بالخيبة والخسران ، ولا شك في أن الموكلين به كانوا يوافيان الخليفة الواثق بكل ما يتصل بأخيه جعفر ، لذلك أحجم الوزير عن تسهيل أمره ومؤازرته على إزالة الجفاء بين الأخوين ، لذلك أوشك الانقضاض الفطري على أن يحول بينه وبين قلبه لفطر العقدة التي نشأت عن غضب الخليفة عليه^(٣).

ومن باب قطع الشك باليقين ودفعاً للالتباس ، نقول إن صاحب الخبر لم تنقصه الجدارة ، ولم تغب عنه الكفاءة في أداء ما هو مفوض إليه ، والدليل على ذلك ما حدث ليعقوب بن السكري مع المعذن نجل الخليفة عام (٢٤٣هـ / ٨٥٧م) ، ويعقوب هذا كان علماً من أعلام عصره في مجالات العلوم المختلفة ، وقد سبق أقرانه في نيل حظ وافر في تلك المضامير ، ولطول

(١) ابن الأثير ، الكامل ، ج ٧ ، ص ٣٦.

(٢) الطبرى ، تاريخ ، ج ٩ ، ص ص ١٥٦-١٧٥. ابن عبد ربہ ، العقد الفريد ، تحقيق محمد سعيد العريان ، (القاهرة : ١٩٥٣م) ، ج ٨ ، ص ٩٦.

(٣) الطبرى ، تاريخ ، ج ٩ ، ص ص ١٥٦-١٥٧. ابن الأثير ، الكامل ، ج ٧ ، ص ٣٦.

باعه في علوم عصره ورسوخ قدميه في سوتها، ألمعه الخليفة المتوكل بإعداد نجله المعتر على صعيدي الأدب والعلم^(١).

وتمهيداً لإطلاق قريحة ابن الخليفة وإزالة ما يعتريه من الخجل الذي ينشأ للمتعلم عند رؤيته المعلم للوهلة الأولى، سأله المؤدب نجل الخليفة أي علم تؤثر الابتداء به ، قال المعتر بالانصراف ، وحدث بين المؤدب والمتاذهب ما يشبه الفكاهة والمزاح ، إذ قال ابن السكري : سأقام . قال المعتر أنا أخف نهوضاً منك ، فقام مسرعاً لإثبات قوله فعثر رجله بسرواليه ، فسقط وانتابه الخجل الشديد في المأذق الذي أوقع نفسه فيه ، وأراد مؤدبه أن يهون عليه الأمر ويخفف وطأته وأنشد يقول^(٢) :

يصابُ الفتى من عشرةِ بلسانه وليس يصاب المرء من عشرةِ الرجلِ
فعشرتُه بالقولِ تذهبُ رأسه وعشرتُه بالرجلِ تبرا على مهلِ

وقد طار ما أنسده على جناح السرعة وحط على مسمع الخليفة في الغد ، وعندما دخل لاطقه المتوكل وقال له لقد بلغني إنشادك في أمسيك ، واستظرف الطريقة التي وقعت للمؤدب والمتاذهب فأمر له بخمسين ألف درهم على قوله ، إن قصر فترة بلوغ الخبر إلى الخليفة دليل حي وشاهد يأبى الطعن والتبرير ينطق بقدرة أصحاب الأخبار على الإجاده في إدارة مناصبهم والتمكن منها أشد التمكّن ، وإنما كيف تسرب أمر لا يخرج عن كونه ضرباً من الفكاهة إلى الخليفة في هذا الوقت القصير^(٣) .

ومما ذكر أيضاً عن أصحاب الأخبار ما ورد على لسان جعفر بن ورقاء الشيباني الذي كان قائماً على خدمة الخليفة المعتصم بالله ، إذ روى أنه كان مع نظرائه من أولاد الأمراء والقواد ، لأداء ما كلفوا به من الخدمة ، وكانوا

(١) الحنبلبي ، شذرات ، مج ١ ، ج ٢ ، ص ١٠٦ .

(٢) م.ن ، مج ١ ، ج ٢ ، ص ١٠٦ .

(٣) م.ن ، مج ١ ، ج ٢ ، ص ١٠٦ .

يجتمعون في حجرة مخصصة للاستراحة بعد إنجاز الخدمة نازعين أخفائهم وعمايائهم وكانوا ينصرفون إلى النرد والشطرنج، ولم يكونوا يعلمون بتربص صاحب الخبر بهم، حيث كتب إلى الخليفة ما كانوا يفعلون أثناء الاستراحة^(١) ولم يلبث أن خرج عليهم خادم من خواص الخدم وفي يده الفصل المرفوع في أمرهم، وعلى ظهره التوقيع بخط يد الخليفة، ثم سلمه إلى خفيف السمرقندى الحاجب، وقد آزره جعفر الشيبانى حسن حظه واستثناء من العقاب المنتظر، إذ لم يكن في تلك الأثناء مكلفاً بتنفيذ نوبته المستحقة عليه، وعندما تلقى السمرقندى الكتاب انزعج كثيراً وأنزل العقاب بمن كانوا في النوبة، وذلك بضرب كل منهم عدة مقارع وحضر هذا العقاب الجميع على الالتزام بالأدوار والابتعاد عن ما فيه التبدل والغفلة عن أداء الواجب^(٢).

والنتيجة المسترعة للامتناع هي أن صاحب الخبر كان يقطأ كل اليقظة، ومتنهياً إلى ما يجري على كل المستويات والدليل القائم على إثبات ذلك أمر الخليفة الوارد إلى السمرقندى والقاضي بإعمال العقاب بالمقصرين.

وهناك رواية تحدثت عن أن تقريراً رفع إلى الخليفة المنصور من قبل صاحب الخبر، جاء فيه «إن الربع الحاجب يذكر أنه ابن يونس بن محمد بن أبيحة، وأتي بكتاب بخط الربع كتبه إلى بعض وكلائه مع الربع بن يونس، فدعا به الخليفة أبو جعفر وضربه مائة سوط وقال: يا بن الخليفة أعتقدت واصطعنتك ثم تدعى ولایة عثمان بن عفان وغضب عليه وطرده، فقال المبارك ثم وجهني الخليفة المنصور إلى المدينة، فقدمت علي بن يونس ابن محمد فسألته عما يدعى الربع من نسبة فأنكر ذلك»^(٣).

(١) الصابي، رسوم دار الخلافة، تحقيق، ميخائيل عواد، (بغداد: ١٩٦٤م)، ص ص ٧١-٧٢.

(٢) م.ن، ص ص ٧١-٧٢.

(٣) ابن رسته، الأعلاق النفيسة، طبعة ليدن، (بريل: ١٨٧١م)، ص ٢٠٨.

إن هذا النص باعث على الغرابة ومثير للدهشة لما فيه من خفاء أمر المدعي على الخليفة، بالبنوة لشخص لا يمت إليه بصلة من أن الخلفاء كانوا يستعينون بأصحاب الأخبار الذين أسهموا بالذكاء والدهاء ما مكّنهم من النفاذ إلى بواطن الأمور ومواطن الأسرار، وكانوا يوشكون على أن يحصوا الأنفاس على مضمري السوء للخليفة، فكيف تنسى لرجل أن يدعى بنوته لرجل لا يعرفه وينطلي ذلك على الخليفة وأصحاب أخباره وهم المعروفون بدقة التحري عمن يراد الاعتماد عليه في المناصب الحساسة كالحجابة مثلاً.

وفي رواية أخرى أوردها الجهمياني قوله: لقد ورد على الخليفة أبي جعفر المنصور خبر خلعه من أهل إفريقية، فاعتزم على الشخص إلى قنسرين^(١)، لتدبير الأمر^(٢) المتعلق بإعداد الإمدادات بغية احتواء المعضلة، وكتم سر المسير نحو المكان المراد، واجتمع أبو أيوب وعبد الملك والربيع لتحليل الموقف والتوصُّل إلى استنتاج المكان الذي ينوي الخليفة التوجُّه إليه، فلم يتمكنوا من تحديد المكان المطلوب، «وبعد المداولات لم يحالفهم الحظ في معرفة ما عزم عليه، فقال عبد الملك أمهلوني ساعة والزمو أماكنكم لعلّي أستطلع الموقف من الخليفة، بوسيلة من الوسائل دون إثارة انتباهه إلى ما نحن بصدده، وحين دخل على الخليفة المنصور أظهر له إتمام الاستعدادات قائلاً: إنه لم يبق غير استئجار الظهور والمبلغ المطلوب لتوفير اللوازم، لكن الخليفة كان عليماً بما عقدوا عليه العزم»^(٣) عن طريق صاحب خبره، فقال له: يا بن الخبيثة إن قولك نقىض فعلك، وإنك قد جلست مع أقرانك وتداولتم الحديث بشأن

(١) قنسرين: مدينة بينها وبين حلب مرحلة. انظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٤، ص ٤٠٤.

(٢) الوزراء، ص ٨٢.

(٣) الجهمياني، الوزراء، ص ٨٢.

كذا وكذا، ولا يذهبن بك الغبن في أنني غافل عمّا تعملون وجاهل بما أنتم
مضمرون ثم طرده.

تلك الرواية ثبتت بما لا يدع مجالاً للشك في أن الخليفة المنصور كان
على دراية بما يجري في الخفاء ونقضيه، وما ذلك إلا لكثره أصحاب الأخبار
لديه والذين كانوا يوافونه بكل صغيرة وكبيرة وكل ما يخشى منه على دولته
ونفسه والذين كانوا في كل مكان.

يمكن القول بلا مواربة ولا تردد أن أصحاب الأخبار كانوا ينشطون ليل
نهار، في تصييد الأخبار وإخضاعها للتحقيق والتدقير بهدف تلافي الوقع
في الشرك الزور، المجانب للحقيقة والصواب وأصحاب الأخبار هؤلاء
كانوا يتربصون بكل ما يصدر من الخاصة والعامة من فعل وقول لتبصير
ال الخليفة بحقائق الأمور على ما هي عليه، فمن أخبار الخاصة، يذكر عن
علي بن يقطين أنه كان جالساً عند موسى الهادي مع ثلاثة من أصحابه، وإذا
بخدم الرشيد، قد أقبل وسره بشيء لم يسمعه غيره عن جاريتين، «قد اجتمعنا
على الفاحشة، فوكلت هذا الخادم بهما ينهي إلى أخبارهما، فجاءني
فأخبرني أنهما قد اجتمعنا، فجئت فوجدتهما في لحاف واحد على
الفاحشة فقتلتهما»^(١)، فنالتا القصاص العادل على اقترافهما الفحشاء.

بـ- صاحب خبر الخليفة على الولاة والقضاة:

وكان من شأن أصحاب الأخبار مع الولاة، أن الخلفاء لم يدعوهם
بعيدين عن أعينهم، بل وَكَلُوا بهم أصحاب أخبار يتربصون ما يصدر عنهم
من أفعال وأقوال.

ففي زمن الخليفة المنصور كان أبو مسلم الخراشاني والياً على الشام
ومعه الحسن بن قحطانية صاحب خبر الخليفة سرّاً، وكان يكتب بأخبار أبي

(١) الطبرى، تاريخ، ج، ٨، ص ٢٢١.

مسلم إلى الخليفة المنصور، وهو لا يعلم به، وكتب يوماً كتاباً ضمنه أقوال الوالي، وقبل أن يختتم ذيله بقوله «إنني أخبرك يا أمير المؤمنين أن الشيطان الذي كان ينفخ في رأس عبد الله بن علي، قد انتقل إلى رأس أبي مسلم، والسلام»^(١) فضاق الخليفة المنصور بذلك ذرعاً ولم يدر ما يصنع، بيد أنه لم يركن إلى العجز فترَّبص به حتى قتله^(٢).

وفي زمن الخليفة نفسه، ضرب مالك بن أنس من قبل والي المدينة المنورة، ضرباً مبرحاً، فأخبر صاحب الخبر الخليفة ما أصاب مالك على يد الوالي جعفر بن سليمان فعظم ذلك في نظره وتأثر بالغ التأثير، واعتبر هذا الفعل من الشَّناعات التي يحرم الإقدام عليها، فأمر بعزله والمجيء به إلى مدينة السلام ليت في أمره^(٣).

كان هناك رجل يدعى عمر بن مهران - وكان إذ ذاك يكتب للخizران - أول الأمر، وفي عام (١٧٦ هـ / ٧٩٢ م) في عهد الخليفة الرشيد، ثم استقدمه الخليفة لبعض الشؤون، وبينما هو سائر إليه لقي يحيى بن خالد الذي رافقه إلى مقام الخليفة وحين رأه ماثلاً بين يديه أعلمه بسبب استدعائه، وطلب منه السير إلى موسى بن عيسى والي مصر حينئذ لتسليم الأعمال منه، على أن يبقى هذا السرّ طي الكتمان دون أن يطلع عليه أحد من أصحاب الأخبار إلى أن يوافي مصر، وبعد الاتفاق زوده الخليفة بكتاب بخط يديه إلى ذلك الوالي، وفي الغد بدأ الرحلة بصحبة غلام له مع ثلاثة من الموثوق بهم، وبلغ كتمانه السر مبلغاً تuder العلم به على الذين معه، وكان ينتقل من بلد إلى بلد، وهو

(١) الطبرى، تاريخ، ج ٧، ص ٤٧٩ وما بعدها. ابن أثيم الكوفى، كتاب الفتوح، مج ٨ ص ٤٣٧ - ٤٣٦. ميرخوند، روضة الصفا، (طهران: ١٩٥٠ م) ص ٤٢١ - ٤٢٠.

(٢) الطبرى، تاريخ، ج ٧، ص ٤٨٧ - ٤٨٩. ابن أثيم الكوفى، فتوح، مج ٨، ص ٤٢٠ - ٤٢١.

(٣) ابن قتيبة الدينوري، الإمامة والسياسة، ج ٢، ص ١٤٩.

متوجه إلى غايته، وكلما حط الرحال في بلد ظن الذين معه أنه هو المرام إلى أن انتهى به التّرحال إلى مصر^(١). وهناك تنّكر في زي المتظلم ودخل دار الإمارة وديوان البلد وبيت المال. وجلس مع المتظلمين لإخفاء هويته ثم شرع يبحث عن الأخبار والأسرار، وظل يفعل ذلك ثلاثة أيام حتى تجمع لديه رصيد هائل من المعلومات التي أراد الحصول عليها، وبعد ذلك بدأ بتوزيع الأعمال على أصحابه سرًّا والمسؤولون القدامى لا يدركون شيئاً ما يجري على الديوان وقال له اذهب مبكراً واجلس في الديوان وإذا سمعت به حرفة فاقبض على الكاتب ووكل به^(٢). ولا تدع أحداً يخرج إلا أن أوافقك. وقلّد بيت المال شخصاً آخر وأمره بمثل ما أمر به الأول ثم قلد شخصاً ثالثاً من أصحابه الأعمال بالحضر، وألزمهم بالذهاب إلى دار الإمارة مبكرين وطالبهم إخفاء أنفسهم إلى أن يسمعوا دبيب الحركة، وبعد إتمام أمره مع أصحابه، اتجه صوب دار الإمارة وجلس مع المنتظرين إلى أن أذن موسى بن عيسى للناس بالدخول إذناً عاماً فدخل الجميع، وهو معهم وجعل موسى ينظر في شؤونهم وعمر بن مهران جالس على مرأى منه وبين الفينة والفينية كان الحاجب يطلب منه طرح قضيته على الوالي، لكنه كان يتريث بقصد انصراف الناس، ليتسنى الاختلاء به وحين تمّ له ما أراد دنا من الوالي، وأخرج له كتاب الخليفة الرشيد الذي تلقاه الوالي بالإجلال، فقبله ووضعه إلى عينه ولدى البدء بقراءته امتعق لونه، ولم يبق له سوى إظهار السمع والطاعة، ثم قال له: اقرئ أبا حفص السلام، وأبلغه أني سأعدُ له مكاناً يليق بمكانته وأستقبله بالحفاوة والتكريم، فقال له الرجل أنا عمر بن مهران وقد أمرني أمير المؤمنين بإنصاف المظلومين، فمن كان له حق عليك وافيته حقه، ومن أساء إليك عاقبناه على إساءته فتعجب موسى من دهائه وذكائه

(١) الطبرى، تاريخ، ج٨، ص ص ٢٥٢-٢٥٣. الجھشیاري، الوزراء، ص ص ١٧١-

١٧٢. ابن الأثير، الكامل، ج٦، ص ١٢٥.

(٢) الطبرى، تاريخ، ج٨، ص ص ٢٥٢-٢٥٣. ابن الأثير، الكامل، ج٦، ص ١٢٥.

وعظيم حيلته التي انطلت عليه^(١)، وقال له: أنت عمر بن مهران؟ قال: نعم، فقال موسى: لعنة الله على فرعون إذ يقول «ليس لي ملك مصر!»^(٢) ثم اضطربت الأحوال في الدار وعلا الضجيج إثر قبض كاتب عمر على الديوان وصاحبيه الآخرين على بيت المال، وختم عليهما ثم وردت عليه الرقاع من قبل أصحاب الأخبار بذلك. واضطرب موسى إلى النزول من فرشه قائلاً: لا إله إلا الله هكذا تقوم الساعة! والتفت إلى عمر بن مهران وهو يقول ما ظننت أحداً بلغ من الحزم والعزم والحيلة ما بلغت، قد تسلمت الأعمال وأنت في مجلسي^(٣).

وفي عام (١٨٧هـ / ٨٠٢م) كان علي بن عيسى والياً على خراسان، وبلغ الخليفة الرشيد خبر صاحب الخبر، أنه أخفى أموالاً طائلة في أحد البساتين، وحين شاع أمر ذلك في الناس، هاجموا البستان ونهبوا جميع الأموال التي أخفاها، وكان مع هذا الثراء يزعم أنه باع حلبي نسائه لفقره المدقع، ولما علم الخليفة بالموضع أرسل هرثمة بن أعين أحد قواده لإحضاره بعد مصادرة جميع ممتلكاته، فأركبوه بغيراً من غير غطاء ولا وطاء، وسلموه إلى الخليفة ليinal ما يستحقه من العقاب جزاءً أكذوبته على الخليفة الرشيد^(٤).

وعند تسلم المؤمن زمام الخلافة، انتهى إليه سوء صيت عامله على كورة الأهواز عبر صاحب خبره، فعزله نظراً لكثرة الشكاوى وسوء الأقاويل فيه من قبل جماعة كانوا على دراية بمسلكه، فأمر الخليفة أحمد بن أبي

(١) الطبرى، تاريخ، ج، ٨، ص ص ٢٥٢-٢٥٣. الجهشىاري، الوزراء، ص ص ١٧١-١٧٢.

(٢) القرآن الكريم، سورة الزخرف، الآية: ٥١.

(٣) الطبرى، تاريخ، ج، ٨، ص ٢٥٢-٢٥٣؛ الجهشىاري، الوزراء، ص ص ١٧١-١٧٢.

(٤) ابن الأثير، الكامل، ج، ٦، ص ١٥٠؛ ابن خلدون، مج، ٣، ص ٢٢٢.

خالد النظر فيما أثير حوله، ولما حضر جمع الخصوم ضد الوالي المعزول تقدم أمرهم واستأذن الخليفة، وقال : يا أمير المؤمنين لا تتمكنّ أحد بن أبي خالد من قبول الهدايا من خصمكنا ، ويعني بذلك العامل المعزول فإنه إن أكل مع طعامه فستدحض الحجة ويبطل حقنا في دعوانا ، وبعد سماع الخليفة الحديث قرر النظر في أمرهم يوم الأربعاء بنفسه بعد إحضارهم جميعاً، ثم أمر بتخصيص ألف درهم لأحمد بن أبي خالد لينفقه على مائدةه يومياً لكي لا يحتاج بعد ذلك إلى أحد من بطانة العامل^(١).

وفي أيام الخليفة المتوكل كان محمد بن منصور يتقدّم القضاء بكور الأحواز وكان عمر بن فرج الرخجي يتقدّم الخراج بها ، وكانا متوازيين في المرتبة السلطانية ، بيد أنهما كانا موغلان في التشاحن والتناحر على نيل التعظيم والفوز بالتكريم ، وكانت كتب الخليفة ترد عليهما بخطاب واحد ، وكثيراً ما كان الرخجي ، يكتب إلى الخليفة المتوكل ضد القاضي يشفي غليل التأر لكن الخليفة لم يكن ليكتثر بكتاباته لرفعة منزلة القاضي عنده ، وبعد حين ورد كتاب الخليفة عليهما يدعوهما إلى الاجتماع معاً^(٢) لتداول أمر رسمه لهما ، ونظرأً لتمكن المشاحنة والتباغض منهما ، لم يتنازل أحدهما للأخر ، إذ طلب الرخجي من القاضي الحضور إلى الديوان ، فامتنع وأبي ، وعامل القاضي الرخجي بمثل ما عوّمل به ، فطلب منه الحضور إلى الجامع ، وأصر كل منهما على رفض طلب الآخر ، غير أن السرّ لم يمكن في مخبئه بين أسوار الكتمان إذ طلب الرخجي من الخادم الرجوع إلى الخليفة المتوكل لإبلاغه بما حدث . وقال أبلغ الخليفة أن القاضي رفض الحضور إلى الديوان ، وألّح على حضوري إلى الجامع ، وعندما علم القاضي بإجراء الرخجي قدم إلى الديوان ودخل ، والرخجي يلقى دروسه على المتعلمين ،

(١) ابن طيفور، تاريخ، ص ١٢٣؛ الطبرى، تاريخ، ج ٨، ص ٥٤٤.

(٢) الصابى، الھفوات، ص ١٥١-١٥٣.

الدولة تشتري منه كميات كبيرة لنفس الغرض، ففي عهد الخليفة المأمون اشتري منه حوالي (١٢٠) كيلو سنويًا^(١).

وكانت للدولة الإسلامية شفرات خاصة تجري بواسطتها المخابرات السرية ولا يعلم مفاتيحيها ومعاليقها إلا رجال الدولة المختصون^(٢).

وكانت للبريد ميزانيته الخاصة، فعلى سبيل الحصر لا القصر تم تخصيص ثمانية ملايين درهم من خزانة الدولة في عهد الخليفة العباسي هارون الرشيد لإنفاقها على تسهيل أمور البريد^(٣).

ج- التطور التاريخي للبريد:

كان نظام الخدمة البريدية معروفاً في عهدي الإمبراطوريتين البيزنطية والساسانية ويظن البعض أن أصل البريد فارسي لوجود اصطلاح لغوي في الفارسية هو (برده ده م)^(٤). قلنا إن لفظ البريد لفظ عربي وإن كان معهول به عند الفرس والرومان ومما يؤكّد كونه عربي وجود إشارات متبايرة في بطون الكتب تثبت وجود البريد، وخير ما يمكن الاستشهاد به والاعتماد عليه في هذا المضمار هو وجود أقدم نص لغوي وردت فيه لفظة البريد إذ روى عن الرسول الكريم ﷺ أنه قال: (إذا أبردتم إلى بريداً فاجعلوه حسن الوجه، حسن الاسم)^(٥).

(١) ابن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر (تاريخ ابن خلدون)، (بغداد: د.ت) مج ١، ص ٣٢١. حسين علي الداقوقى، نظام، ص ٩٠.

(٢) البيهقي، تاريخ البيهقي، ترجمة، يحيى الخشاب وصادق نشأت، (بيروت: ١٩٨٠) م ٨٨.

(٣) حسين علي، نظام، ص ٨٨.

(٤) هارتمان، دائرة، مج ٧، ص ١٨١.

(٥) محمد مستجاب، البريد، مجلة العربي، (الكويت: ١٩٩٨) م ١٢٠. أبو زيد شلبي، تاريخ، ص ١٤٠.

مسترسل في الزهو والخيلاء وهو يعد مزاياه التي يتفوق بها عليه منها، وأن الخليفة قد أطلق يده في الأموال دون مساءلة. وما إن أمسك الرخجي عن الكلام حتى التفت القاضي إلى الوكيل وحاطبه: أيها الوكيل، وجب عليك إبلاغ الخليفة بما اعترف به بحضور الشهود ليتم إلزامه برد تلك الأموال إلى بيت مال المسلمين. ولدى اطلاع صاحب الخبر على كل تلك التفاصيل المتعلقة بما كان بين المتشاحنين رفعها إلى الخليفة المتوكل، فأصدر بإلقاء القبض عليه، ومصادرة جميع أمواله وممتلكاته التي تعرف الآن بالرخجيات، وأودعه السجن في سامراء يذوق سوء العذاب^(١).

وفي الفترة التي كان فيها الخليفة الموفق ممسكاً بزمام الخلافة عقدت الولاية لخمارويه بن أحمد بن طولون على مصر، فأمر نجله المعتضد بالتوجه إلى هناك لمحاربته عام (٢٧١هـ / ٨٨٤م)^(٢). وما إن التقى الجيشان بالصعيد حتى خيمت الهزيمة على خمارويه وانكسر جيشه وآل إلى الاندحار، وحين يئس من القدر على المواجهة ركب دابته وفر هارباً، فتزوج الخليفة المعتضد بابنة خمارويه عام ٢٨٢هـ ونتيجة لذلك توঠقت العلاقات وصارت الهدايا تتتسابق إلى أبي زوجته، وبعد فترة من الزمن تلقى المعتضد خبر غير سار من صاحب خبره مفاده، أن خماوريه قد ذبح في فراشه من قبل خادمه عام (٢٨٢هـ / ٨٩٥م) ومن باب القصاص قتل نيف وعشرين خادماً من خدمه المتهمين بقتله^(٣).

وفي زمن الخليفة المعتضد أوغل أبو العباس أحمد بن بسطام، في الإحسان إلى المحتاجين، الأمر الذي أدى إلى إثقال ذمته بديون متراكمة عجز عن دفعها، ونتيجة لذلك حبس وألزم بدفع مبلغ قدره سبعون ألف دينار.

(١) م.ن، ص ص ١٥١-١٥٣.

(٢) الطبرى، تاريخ، ج ١٠، ص ٨.

(٣) الطبرى، تاريخ، مع ١٠، ص ٤٢؛ ابن الجوزى، المتنظم، ج ٥، ص ١٥٥.

وهنا تعني البريد كما هو واضح حامل الرسالة الشفهية والتحريرية، كذلك فقد أثر عن العرب القدامى قولهم: «الحمى بريد الموت»^(١) فلفظة البريد هنا ثابت وجودها في اللغة العربية تشير موجبة بأن الحمى محملة برسالةٍ شفهيةٍ معنويةٍ ينبغي بلاغها إلى المعنى بالمنية في أي ظرف مختار لا تخلس فيه الحياة من يد الأجل^(٢).

كان للبريد أهمية خاصة وكبيرة في كل عهود الدولة الإسلامية على مراحلها المختلفة فال الخليفة الأموي معاوية بن أبي سفيان يعد أول من أدخل نظام البريد في الإسلام^(٣) مستخدماً جملة من القواعد المستحدثة لتطوير ذلك النظام وخاصة تطوير وسائل الاتصال، ثم جاء الخليفة عبد الملك بن مروان فأحكم نظام العمل به^(٤).

ومما يدل على أهمية البريد وعظمته شأنه، ما نقله أحد المؤرخين عن الخليفة عبد الملك بن مروان وهو يوصي ابن الدغيدغة بعدم حجب البريد عنه، وإن كان مقدمه ليلاً فعسى أن يكون قد أتى بأمر عظيم أو نباء جسيم يتعلق بالراعي والرعية على السواء، أو بأحدهما دون الآخر، فلو لا الأمر كذلك، لما أقبل مدرعاً جنح الظلام والليل قد أسدل ثوبه على كل شيء، وهذه التوصية تقطع الشك باليقين وتدفع الإنسان إلى الجزم بعظمة شأن البريد لدى الخلفاء في شتى العصور الإسلامية^(٥).

وقد استمر الاهتمام بالبريد وأنظمته على أشدّه في العهود المختلفة دون

(١) مستجاب، البريد، ص ١٢٠.

(٢) مستجاب، البريد، ص ١٢٠. أبو زيد شلبي، تاريخ، ص ١٤٠.

(٣) السيوطي، الوسائل، ص ٩٨.

(٤) القلقشندي، صبح، ج ١٤، ص ٤١٣. نظير حسان، نظام البريد، ص ٥٦. سعيد عبد الفتاح عاشر وآخرون، دراسات في تاريخ الحضارة (الكويت: ١٩٨٦م) ص ٦٩.

(٥) يوسف حسن غوانمة، التاريخ الحضاري لشرق الأردن في العصر المملوكي (عمان: ١٩٨٢م)، ص ٥٨-٥٩.

وهنا تدخل (صاحب الخبر البوشجاني) في المسألة، وكتب إلى الخليفة تقريراً جاء فيه، أنه كان يفرق معظمها على الفقراء والمستورين شهرياً^(١).

ولما علم الخليفة بأمره أسقط ما بذمته من ديون، وأمر برده إلى عمله السابق^(٢). وهذا يدل على أمرتين · أولهما: معرفة صاحب الخبر بكل أخبار وتفاصيل أعمال الولاية، وثانيهما: المواقف الإيجابية لصاحب الخبر في الدفاع عن الولاية الصادقين ودفع الأخطار عنهم.

لا نزاع في أن الخلفاء كان يهتمهم الإمام بكل شاردة وواردة لها صلة بال الخليفة والخلافة معاً، ولما كانت اليد تستمد قدرتها من الساعد والبنان، كان لزاماً على الخليفة أن يستعين بمن يسهل له السبيل إلى ذلك، هو صاحب الخبر الذي كان يعارضه في تسهيل مهمة الإمام عن طريق الرسائل والرسل، ففي عهد الخليفة الرشيد تولى قضاء الرصافة^(٣)، فريق من القضاة منهم سعيد ابن عبد الرحمن الجمحي^(٤) وعمرو بن حبيب^(٥)، والحسين بن الحسن العوفي^(٦)، لكن العوفي عزل عن منصب القضاء بأمر من الخليفة الرشيد، ويعود سبب عزله إلى قصة إحدى النساء التي اشتكت على خصم لها، فبدأ يكثر من الاستفهام حتى ضجرت المرأة من كثرة أسئلته، فقالت له: طالت لحيتك وعظمت غفلتك أيها الشيخ، والله ما رأيت ميتاً يقضى بين الأحياء غيرك^(٧).

(١) التّنخي، نثار، ج٨، ص١١٥.

(٢) م.ن، ج٨، ص١١٥.

(٣) السمعاني، الأنساب، تحقيق الشيخ عبد الرحمن بن يحيى المعلمي، (بيروت: ١٩٨٠م) ج٣، ص٣٢٦.

(٤) اليافعي، مرآة الجنان، ج١، ص٣٨٣.

(٥) الخطيب البغدادي، تاريخ مدينة بغداد، ج١١، ص١٩٧.

(٦) ابن سعد، الطبقات الكبرى، (بيروت: ١٩٦٠م)، ق٢، ج٧، ص٦٩.

(٧) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج٧، ص٧٤؛ الكندي، كتاب الولاية والقضاة، (بيروت:

انقطاع حتى نال نصيبيه الوافر من الرّعاية والعناية البالغة، إذ وظف (ال الخليفة أبو العباس السنّاح) البريد لخدمة الجيش ومهام القتال، واستثمر دور البريد في إلحاقي الهزيمة (بمروان بن محمد) «آخر خلفاء الأمويين في واقعة الزاب بعد أن وجه إليه (موسى بن كعب) في ثلاثة رجالاً على البريد إلى (عبد الله ابن علي) وما خلت ليلتان من جمادى الآخرة سنة اثنين وثلاثين ومائة حتى سأله (عبد الله بن علي) من مخاضه فدلّ على مكانه بالزاب، فأمر (عيسى بن موسى) بالعبور وبمعية خمسة آلاف مقاتل فأنهى الجمع إلى عسكر مروان»^(١)، ولو لا دور الجهاز البريدي الفعال لما تيسر تحقيق المرام بهذا النمط من السهولة واليسر، وهذا ما يفسر منهم القائلين إلى تطوير البريد، رغبة في تلافي كل ما يعرض سبيله.

ولم يكن شأن الخليفة أبي جعفر المنصور أقل من سلفه من حيث التركيز على العناية بالبريد، لتنسقهم بهم أركان الملك التي حصرها في أربعة أصناف من العاملين في أجهزة الدولة مع التأكيد الدقيق على أدوارهم الفاعلة في تمشية الرعية وأمورها كلّ بحسب اختصاصه الذي كان من المفترض أن لا يجاري فيه أحد على صعيد أداء الواجبات ودقة التنفيذ والأصناف المنوّه بها تشمل القاضي وصاحب الشرطة والخارج، فقد رسم الخليفة مهمة كل منهم بدقة تتطلب فنون الرعاية، ثم التفت إلى صاحب البريد ليصور علو شأنه بما يفوق الوظائف السابقة روعة وإجلالاً لما للبريد من دور يكاد يكون فريد الطراز في نشاطاته التي يخدم أغراض الدولة المختلفة^(٢).

وفي معرض سياق الحديث عن أهمية البريد ودور صاحبه «عضّ على

(١) الطبرى، تاريخ، ج٧، ص٤٣٢.

(٢) أحمد عبد العزيز محمود، الأمن في بغداد خلال العصر العباسي الأول، جامعة صلاح الدين، أطروحة دكتوراه، غير منشورة، ١٩٩٨، ص١٧٠.

وهذا القول ينم عن سخرية واستهزاء لا مزيد عليه، وحين سمع صاحب الخبر بالقصة، أدرك أن القاضي فاقد للأهلية والكفاءة، ومن فقد هذين العنصرين لا سبيل إلى بقائه في منصبه، وبناء على ذلك كتب إلى الخليفة الرشيد يعرض عليه أمره مع المرأة فصرفه الخليفة^(١) مستقرياً عبد الملك بن محمد بن أبي بكر محمد بن عمر مكانه عسى أن يكون خيراً منه وأكثر ملاءمة لهذا المنصب الحساس^(٢).

ومن المعلوم أن أصحاب الأخبار كانت مهمتهم متشعبية تتناول الأغراض الخاصة والعامة، وتترصد كل حدث ذي طابع خاص أو عام فمن الأمور ذات الطابع العام ما جرى في عهد الخليفة المأمون نفسه، وإذا استدعي إبراهيم بن السندي ذات يوم وقال: إني أستقدمك لأمر جليل لم أشاور فيه أحداً غيرك لفرط ثقتي بك، ولما أظهر إبراهيم خالص الطاعة له بلا تردد، قال له الخليفة المأمون قد رأيت أن أوليك خير ما وراء باب داري، فافعل ما يرضي الله ولا تأخذك في ذلك لومة لائم. فرد إبراهيم سأعمل ما فيه مرضاة الله ومرضاتك يا أمير المؤمنين^(٣).

ج- صاحب خبر الخليفة على العسكر وصاحب الجسر:

استمرت نشاطات أصحاب الأخبار على أشدتها في كل الأزمنة والأمكنة. في عهد العباسيين وأحاطت سرادقات أنشطتهم بكل شيء بما في ذلك العاملين في حقل الجيش.

ويذكر أن الخليفة المأمون كان جالساً وحوله جماعة من الناس، ودار

= ١٩٠٨)، ج ٢، ص ٢٦٤.

(١) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ق ٢، ج ٧، ص ٦٨؛ الكندي، كتاب الولاية والقضاة، ج ٢، ص ٢٦٧؛ الخطيب، تاريخ مدينة بغداد، ج ١٠، ص ٤٠٨.

(٢) ابن طيفور، تاريخ، ص ١٤٠.

(٣) م.ن، ص ١٤٠؛ البيهقي، المحاسن، ج ١، ص ٢٧١.

إصبعه السبابية ثلاث مرات قائلاً أه أه..»^(١)، بصوت كاد يجلجل الأرجاء المحيطة به لشدته في كل مرة وقد احتملت ملامحه لإحساسه بقشعريرة دبت في فرائصه فقيل له: ومن هو هذا الذي تكتنف هذه الظاهرة العظيمة من الأهمية فرد قائلاً: إنه صاحب البريد الذي ينبغي عليه أن يكتب بخبر هؤلاء على الوجه الصحيح دون أن يعتريه تزييف أو تحريف^(٢).

تَنَامَّى تطور البريد في عصر الخليفة المنصور، فأنيطت به أغراض متعددة الجوانب نجمت عن تشعب الحياة، فاستوجبت توسيع آفاق النشاطات البريدية كما تؤكِّد ذلك روایات المؤرخين التي تُجمع على أن ولادة البريد في الأمصار المختلفة كانوا يزودون المنصور بكل ما يتصل بالحياة الاقتصادية في شتى مناحيها كحالة السوق، وقيمة السلع وأسعار البضائع وأنماط المعاملات التجارية ومضارباتها. وما تسفر عنه المساومات المتباعدة في التأثير والتأثير من الناحية الاقتصادية، ولدى وصول الأسعار إلى الخليفة عن طريق البريد، كان يقلب النظر فيها فإن وجدها مستقرة على سالف حالها، أمسك عن الإقدام على أي فعل لانتفاء الحاجة إليه وإن وجدها متذبذبة يمثل نحو التغيير لغير صالح الرعية^(٣)، هبًّا مدافعاً عن رعيته مستفسراً عن العلل الخفية المؤدية إلى هذا التبدل طالباً من العمال والولاة موافاته بالتفسير المنطقي المستساغ عقلياً وليطمأن إليه قلبه وتقر عينه بما يضفي إلى إسعاد الرعية. ثم يعمم إلى فرض الإجراءات الضامنة لعودة الأسعار إلى سيرتها الأولى^(٤).

(١) ابن خرداذبة، المسالك والممالك، (القاهرة: ١٨٨٩م) ص ص ١٨٤ ، ١٨٥ ، ١٨٥، الطبرى، تاريخ، ج ٨، ص ص ٦٦-٦٧.

(٢) الطبرى، تاريخ، ج ٨، ص ص ٦٦ ، ٦٧. ابن الأثير، الكامل في التاريخ، (بيروت: ١٩٦٦م)، ج ٦، ص ٢٦. ابن خلدون، تاريخ، مج ٣، ص ص ٢٠٤-٢٠٥.

(٣) الطبرى، تاريخ، ج ٨، ص ٩٦. أبو زيد شلبي، تاريخ، ص ١٤١.

(٤) خواجة نظام الملك، سیاستنامه (سیر الملوك)، (طهران: ١٣٧٣ھ)، ص ص ٩٤-٩٥.

ال الحديث حول المرائين وصفة الرياء الذميمة، وتناول عدداً كبيراً من الخاصة والعامة، غلت عليهم هذه السجية المذومة، وذكر اسماءهم واحداً بعد آخر، ولما غادروا مجلس الخليفة، سأله رجل من علية العسكر، قائلاً لصاحبه، هل رأيت أحداً أعلم من هذا الملك، بأسرار رعيته فقط، قال لا، ثم نقل هذا الحديث إلى صاحب الخبر الذي لم يجهل ما تعلق بالعسكر والمعسكر، بل شمل الفقهاء أيضاً، حيث كان صاحب الخبر يدون كل شيء حتى لكانه أعلم منهم بما يدور في منازلهم^(١). ثم يخبر الخليفة بما يجتمع عنده من معلومات ثم يقلب فيها النظر بهدف فرزها لتجنب ما قد ينشأ عنها من مساوئ تضر بال الخليفة والخلافة^(٢).

وفي عام (٤٢٣هـ / ٨٣٧م) خرج الخليفة المعتصم لبعض أغراضه، فتلقاء الأشخاص في الطريق، فحياه بتحية تليق بال الخليفة، واتفق أن كان عمرو الفرغاني وأحمد بن الخليل متوجهين صوب عسكر الأشخاص بقصد شراء بعض السبي من ابن الأقطع، ووقفا ينتظران المنادي ينادي على بيع السبي بقصد اختيار الأجود منهم، وبينما هما كذلك وصل خبرهما إلى أشناس عبر حاجبه، فاستدعاي أشناس محمد بن سعيد السعدي وقال له: اذهب إلى عسكر الأشخاص^(٣) وانظر هل تراهما هناك، وعند من نزولهما وما قصتهما، حيث أمره أشناس فوجدهما ممتطين دابتهما، واستفسر عن سبب وقوفهم هناك فأجاباه أنهما يتظاران سبايا ابن الأقطع، وقال لهما الرجل وكلا عنكما من يشتري لكما من تريдан، فردا عليه، لا نشتري إلا من نحن نراه بأعيننا، وعاد المكلف بالأمر إلى أشناس بخبرهما^(٤)، وإثر ذلك أمر حاجبه بأن

(١) مؤلف مجهول، العيون، ج٣، ص٣١١؛ ابن الأثير، الكامل، ج٦، ص٤٧٧-٤٧٨.

(٢) ابن الأثير، الكامل، ج٦، ص٤٧٧-٤٧٨.

(٣) ميرخوند، روضة الصفا، ص٤٧٠-٤٧٢.

(٤) الطبرى، تاريخ، ج٩، ص٧٣ وما بعدها؛ ابن الأثير، الكامل، ج٥، ص٤٤٧-

يلزمهما بالبقاء في عسكرهما، وعدم التحرك هنا وهناك وفعل الحاجب ما طلب منه، وأغتم الرجال شديد الغم واتفاقا على الذهاب إلى صاحب خبر العسكر، يطلبان منه الحصول على عفو أشناس عنهما، وقالا له نحن عبداً أمير المؤمنين المعتصم فهو حر في أن يضمّنا إلى من يشاء، إلى أن هذا الرجل استخف بنا وأغلظ في شتمنا وكالوعيد لنا ونحن نخاف من أن يمسنا بسوء^(١).

فأنهى صاحب الخبر ذلك إلى الخليفة المعتصم من فوره، واتخذ الخليفة ما يلزم من الاحتياطات الضامنة لسلامته وأمن خلافته^(٢).

كتب المازيار^(٣) إلى الدرى يأمره بالقدوم عليه عام (٨٣٨ هـ / ٢٢٤ م) وبعد وصوله ضم إليه العسكر ووجه ضد عبد الله بن طاهر، وظن أنه قد توثق من الجبل، وسوف لن يكون بمقدور أحد أن يباغته هناك لوعورته وكثرة المضائق والأشجار فيه، وعندما اطلع عبد الله بن طاهر على نوايا المازيار وجّه عمه الحسن بن الحسين بن مصعب على رأس جيش كثيف من خراسان لتدارك الأمر، وكان معه صاحب خبره يعقوب بن إبراهيم البوشنجي^(٤) المعروف بقوصرة، لموافاته بخبر العسكر عن كثب، وبعد ذلك زحفت الحشود نحو عسكر المازيار، وهو لا يشك فيما أعد له من القوات الضاربة، بالقياس إلى ضعف قواته وقلة عددها في المدينة التي كان فيها، وكان لمازيار ابن عم حاقد عليه لإساءة المازيار إليه بسبب تشهيره وتنحيةه عن موقعه فاستغل الفرصة المؤاتية له وكتب إلى الحسن بن الحسين وأعلمته جمع ما في عساكره، ثم وصل خبر ما كان يجري إلى الخليفة المعتصم عن طريق صاحب الخبر، فرسم الخليفة خطة لاحتواء الموقف تمثل في تعاون ابن عم

(١) الطبرى، تاريخ، ج ٩، ص ٧٣؛ ابن الأثير، الكامل، ج ٦، ص ٤٩٥ وما بعدها.

(٢) الطبرى، تاريخ، ج ٩، ص ٧٣؛ ابن خلدون، تاريخ، مج ٣، ص ٢٦٥-٢٦٦.

(٣) المازيار بن قارن صاحب طبرستان قاد حركة ضد الخليفة العباسية أيام الخليفة

المعتصم. انظر: ابن الأثير، الكامل، ج ٦، ص ٤٩٥-٥٠٥.

(٤) الطبرى، تاريخ، ج ٩، ص ٨٤.

المازيار مع جيش الخليفة ضد المازيار، وفي حال نجاح الخطة تعود ملكية ما انتزع منه إليه إن هو وثب على المازيار وساعد جيش الخليفة في القضاء عليه^(١).

ويستدل مما سلف ذكره أن قرب الخليفة وبعده عن موقع الأحداث لم يكن ذا بال بسبب قدرة أصحاب الأخبار على رصد الأحداث، ثم رفع المعلومات عنها إلى الخليفة ليكون على علم بها واتخاذ الموقف المناسب لجسمها.

وتذكر رواية تأريخية سنة (٨٣٩ هـ / ٢٢٥ م) مضمونها أن الأفшин كان يحارب بابك الخرمي، لكنه كان يستغل الهدايا التي تأتي من أهل أرمينية لصالحه ويرسلها إلى أشروسنة ليذخرها هناك^(٢).

وكان طريق احتياز الهدايا يمر بعد الله بن طاهر الذي أعلم الخليفة المعتصم بخبرها، فكتب إليه الخليفة أن يحتاط للأمر، وكان الأفшин يستعمل طريقة خاصة لإيصال الهدايا إلى شروسنة حيث أمر بوضع الأموال في محفظات تشد على أوساط أصحابه بعد حشدها بالأموال^(٣). وبينما كان الأمر سائراً على هذا المنوال فترة تصدى (عبد الله بن طاهر) لناقلين الهدايا المرسلة من قبل الأفшин إلى أشروسنة^(٤) واستوقفهم وشرع يفتشهم فرداً فرداً، وبعد ما ضبط كمية كبيرة من الأموال والهدايا قال لهم من أين لكم هذه كلها، فقالوا له: إن هذه أموال أفشين وهداياه، فكذبهم وقال لهم: لو كان الأمر كذلك لكتب إليّ الأفшин وطلب مني توفير الحراسة والحماية لأن المبلغ عظيم والخوف على ضياعه أعظم، ولا بد من الحماية

(١) م.ن، ج٩، ص ص ١٠٤-١٠٥. مسکویه، تجارب، ج٦، ص ٥١٦، ٥١٩؛ ابن خلدون، تاريخ، مج ٣، ص ص ٢٦٥-٢٦٦.

(٢) الطبری، تاريخ، ج٩، ص ٩٨؛ ابن الأثیر، الكامل، ج٦، ص ٥١٠.

(٣) الطبری، تاريخ، ج٩، ص ٩٨؛ مسکویه، تاريخ، ج٥، ص ص ٥١٢-٥١٥.

(٤) الطبری، تاريخ، ج٩، ص ١٠٢ وما بعدها.

لتوفير الأمان والأمان^(١)، ثم وصفنهم باللُّصوصية وأخذ منهم ما كان بحوزتهم وزعه على الجنوب، ثم كتب إلى الأفшиين أقوال ناقلها الهدايا، وعقب بقوله: إن كان هذا المال لك فسارده إليك بعد وصول استحقاقات الجيش من أمير المؤمنين (المعتصم)، وإن كان غير ذلك فال الخليفة أحق به، ولقد وزعت هذه الأموال على الجندي لأنني أريد توجيههم إلى بلاد الترك^(٢)، ورد عليه الأفшиين وكابته إن مالي وماي ومال أمير المؤمنين واحد، وطلب منه إطلاق سراح القوم مع الأموال للذهاب إلى وجهتها وهي أشروسنة فأطلقهم عبد الله بن طاهر، ولكن نشأت بينهما الوحشية والجفاء بسبب ذلك^(٣).

وفي عام (٨٦٥ هـ / ٢٥١) خرج جماعة من الأتراك الموالين لبغداد الشرابي بمدينة السلام، هاربين ليلاً مجتازين بباب الشّماسية، وكان هناك على الباب (عبد الرحمن بن الخطاب) الذي لم يعلم بخبرهم، فبلغ ذلك محمد بن عبد الله، فاستهجن جهل ابن الخطاب بما حصل، وعَنَّقه على غفلته. وتولى بنفسه حراسة الأبواب. ولما وافى الحسن بن الأفшиين مدينة السلام وكلّ بباب الشّماسية^(٤)، وبعد ذلك وافى أبو أحمد عكراً مع عسكره الشّماسية، ومعه صاحب خبر العسكرية، فضلاً عن رجل آخر يمتهن نفس المهنة يدعى جعفر بن أحمد البناتي المعروف بابن الخبازة. وبعد استقراره هناك ولى المستعين الحسين بن إسماعيل بباب الشّماسية وظلّ مقيناً هناك فترة ثم توجه شطر الأنبار، وقبل رحلته ولّى مكانه إبراهيم بن إسحاق^(٥).

(١) ابن الأثير، الكامل، ج٦، ص ٥١١ وما بعدها.

(٢) الطبرى، تاريخ، ج٩، ص ٩٨؛ مسکویه، تجارب، ج٥، ص ٥١٢-٥١٥. ابن الأثير، الكامل، ج٦، ص ٥١٢ وما بعدها.

(٣) الطبرى، تاريخ، ج٩، ص ٩٨.

(٤) مسکویه، تجارب، ج٥ ص ٥١٢-٥١٥.

(٥) الطبرى، تاريخ، ج٩، ص ٢٩١؛ ابن الأثير، الكامل، ج٧، ص ١٧٠.

وهكذا كانت عمليات الاستبدال والنقل والتوليات تتولى من فترة لأخرى في صفوف أصحاب الأخبار من وقت لآخر بقصد ضبط المعلومات الواردة كي لا يتخللها الكذب والتزييف لأن النفس أماره بالسوء تستجيب للمغريات والمؤثرات، وإذا طالبقاء أحدهم في موقعه لا يستبعد التأثير عليه وتجنيده، ضد الخليفة إن لم يكن مستقيماً.

وفي عام (٩٨٢هـ / ٣٧٢م) ذكر أبو الحسن ولد عماره، أن جماعة من خواص الأتراك دخلوا ديوان الجيش، وكان معه صك ي يريد ثبته، فقال للكاتب هذا الصك ورد عليه الكاتب أنه ليس متفرغاً لعمل الصك، وتلقف صاحب الخبر ما جرى ونقله إلى عضد الدولة، ولم يمض إلا وقت قصير حتى استدعى أبا الحسن ولد عماره وأعلمته بما جرى بقصد الصك، وأمره بالذهاب إلى الكاتب وتناول الصك منه وحرقه بين يديه، ونفذ أمر عضد الدولة ولم يفلت الكاتب من العقاب^(١).

تظهر الأحداث المتابعة في مختلف عهود الخلفاء أن أصحاب الأخبار ما غادروا شيئاً، إلا وقد أحاطوا به سواء أكان ذلك ضئيل الشأن أو عظيم القدر ليطلعوا عليه بأنفسهم، ويقرروا ما ينبغي فعله بقصده وهذه الحادثة هي إحدى تلك الحوادث التي تشهد بصواب ما ذهبنا إليه.

وفي عهد الخليفة المأمون نفسه أوردت رواية تأريخية حادثة مضمونها، أن الخليفة المأمون قدّ إبراهيم بن السندي منصب صاحب الخبر في مدينة السلام، وعياش بن القاسم منصب صاحب الجسر^(٢).

وفي أول يوم باشر فيه إبراهيم وظيفته توجه صوب الجسر، ودعا «عياش بقوم من أهل الجرائم للعرض فمرّ به رجل من الأنبياء فشتمه، وردد عليه الرجل بالمثل فزاد عياش في شتمه مستعملاً الألفاظ النابية، فجاء به

(١) الروذراري، ذيل، ج ٣، ص ٤٦-٤٧.

(٢) ابن طيفور، تاريخ، ص ٤١-٤٢؛ الطبرى، تاريخ، ج ٩، ص ١٣٦.

الرجل بنظير ما سمع من عياش، وسخط إبراهيم بن السندي، على فعل عياش، وقال له ليس لك أن تشنتم أحداً وإنما واجبك الامتثال لما أمرت به من غير أن تتجاوز حدود الصلاحيات المخولة لك، ورد عليه عياش: إنما أنت صاحب خبر ليس إلا، وواجبك أن تكتب بما تسمع وترى، وليس من اختصاصك التدخل في أمري وأرى من الصواب أن تمسك عن القول وإلا أمرت من يسحبك من رجليك ويرميك في نهر دجلة، واستشاط إبراهيم غضباً على ما بدر من عياش وقال له: سأريك من سبأ بنباً يقين^(١) وسأعلمك كيف تناول جزاء اقترافك التطاول. ثم انصرف شطر دار الخليفة المأمون، وعند وصوله خرج إليه فتح، وسألته عن سبب قدومه فأنهى إليه ما فعل عياش به وقصّ عليه القصة بكاملها، ثم أوصل فتح الخبر إلى الخليفة المأمون، فأمر الخليفة بإحضار إبراهيم وإسحاق معاً، وقال ألا تأخذ على أيدي عمالك وتنهاهم عن المساس بالآخرين، ثم اسمعه ما جرى لعياش، فنهض إسحاق قاصداً منزله، فاستدعي المتطاول عياشاً يشتمه بعد ما استخف به أشد الاستخفاف، ثم عين مع إبراهيم بن السندي (عكرمة أبا عبد الرحمن) و(الحسين القاضي) مع عياش ولم يكن بإمكان كل من عياش والسندي النهي في أصحاب الجنابات إلا بحضورهما من بعد تلك القصة^(٢).

ومن باب تلافى الملابسات وقطع دابر المشاكل التي قد تبرز إلى الوجود بين الفينة والفينية رأى الخليفة من الصواب تعزيز أصحاب الأخبار والجسور بمن يؤازرهم على حسم النزاعات التي يحتمل وقوعها بينهم في بعض الأحيان ويستدل من ذلك أن الخليفة لم يكن ينطق فيما يفعل إلا من الحنكة والحكمة كي لا يحدث ما يسبب الإرباك في الوضع الأمني والتسلسل الهرمي للوظيفة.

(١) ابن طيفور، تاريخ، ص ص ٤١-٤٢.

(٢) ابن طيفور، تاريخ، ص ص ٤١-٤٢؛ الطبرى، تاريخ، ج ٩، ص ١٣٦.

د- صاحب الخبر على الفقهاء والعلماء:

إن أصحاب الأخبار كانوا يتسابقون فيما بينهم، وكأنهم يسبقون ظلالهم بغية الاستباق إلى اصطياد الأخبار، ثم رفع تقرير عنها إلى الخليفة ليقرر بشأنها ما تستوجبه الضرورة الأمنية.

وفي مثل هذا السياق ذكر عن مالك بن أنس ما معناه أن الخليفة المنصور ولـي الخليفة، فنشط أصحاب الأخبار في حقل عملهم وأوصلوا عن مالك ما لا يرضي الخليفة، ويؤخر صدره عليه، فامتلكه الغضب مما سمع وأرسل رسـله ليلاً بقصد إحضاره والمثول بين يديه، ولما وصل مالك إلى مجلس الخليفة وهو خائف مما قد يسمعه مما لا يرضيه إذا بصوت قائل يقول : يا عـشر الفقهاء ، لقد بلـغ أمـير المؤمنـين ما أخـشن صـدرـه عـلـيـكـم ، وأنـتم أـجـدرـ بـكـفـ أـسـتـكـمـ عنـ سـوـءـ القـوـلـ وـأـوـلـىـ النـاسـ بـلـزـومـ الطـاعـةـ وـالـمـناـصـحةـ فيـ السـرـ وـالـعـلـانـيـةـ ، وـإـظـهـارـ إـلـاـخـلـاـصـ لـمـنـ اـسـتـخـلـفـهـ اللـهـ عـلـيـكـمـ^(١).

نستدل مما تقدم بعيداً عن البخـسـ والـبـتزـازـ ، عـلـىـ أـنـ الـأـخـبـارـ كـانـتـ تـنـسـابـ عـلـىـ الـخـلـيـفـةـ ، مـنـ قـبـلـ أـصـحـابـ الـأـخـبـارـ الـذـيـنـ كـانـواـ يـوـصـلـونـهـ بـالـلـلـيـلـ وـبـالـنـهـارـ ، بـهـدـفـ الـحـرـصـ عـلـىـ تـجـنـيبـ الـخـلـيـفـةـ مـاـ يـسـيءـ إـلـيـهـ.

ويبدو من دراسة النصوص التاريخية، أن أصحاب الأخبار استمروا طاقاتهم إلى أقصى غـایـاتـ الـاستـثـمـارـ لـصالـحـ الـخـلـفـاءـ . وـكـانـتـ الـأـخـبـارـ تـنـتـقـلـ عـلـىـ أـيـدـيـهـمـ كـالـسـيـلـ الدـافـقـ ، وـهـيـ تـحـيـطـ بـكـلـ مـاـ هـبـ وـدـبـ ، وـتـرـصـدـ كـلـ نـشـاطـ قـدـيـدـ الـأـرـتـيـابـ إـلـىـ قـلـبـ الـخـلـيـفـةـ ، بـمـنـ فـيـهـمـ الـفـقـهـاءـ ، وـالـمـحـدـثـونـ^(٢).

وفي سياق حديثنا عن الفقه والفقـهـاءـ لـاـ بـدـ مـنـ إـلـاـشـارـةـ إـلـىـ روـاـيـةـ تـأـريـخـيةـ

(١) ابن قتيبة، الإمامة، ج ٢، ص ١٤٤.

(٢) انظر: قصة الرشيد واستدعائه للفقيه مالك بن أنس، وما دار بينهما مما يثبت كفاءة صاحب الخبر في إيصال أمر الفقهاء إلى الدولة. الحنبلي، شذرات الذهب، مج ١، ج ٢، ص ٢٩٠.

أخرى ، تتعلق بالقضية ذاتها ، مؤداتها أن صاحب الخبر سليمان بن يعقوب أخبر الخليفة المأمون بأن بشر بن الوليد قد تأول آية من محكم التنزيل وصرف الدليل عن ظاهر ما نصّت عليه الآية وهو ﴿إِلَّا مَنْ أَكْثَرَهُ وَقَلَّهُمْ مُظْمِنٌ بِالْإِيمَن﴾^(١) ، زعم أنها نزلت في عمار بن ياسر وقد اخطأ التأويل ، إنما دلالة هذه الآية تنصرف إلى معتقد الإيمان ومظهر الشرك ، وأما من كان معتقد الشرك مظهر الإيمان فليس بهذه له . ثم أجبر كل من كان على شاكلة بشر على التوجّه صوب طرطوس ، لأن الخليفة كان موجوداً هناك آنئذ ، قبل أن تنسى له فرصة الالتقاء بهم والوقوف على أمرهم بشأن الآية المؤولة^(٢) . هذا وينبغي التنائي عن الغفلة والابتعاد عن الظن ، في أن الخليفة المأمون لم يكن مقنداً على الإحاطة بما يدور في أرجاء الخلافة بل على النقيض من ذلك فإنه كان مقنداً على الإحاطة بكل ما يجري عن طريق أصحاب الأخبار^(٣) ، وكان على سعة عظيمة ومقدار أعظم ودرائية أوسع بأسرار الحاشية والعمال والرّعية ، تلك الأسرار التي كانت تخفي على غيره في أغلب الأحيين ، وخير شاهد على ما ذهبنا إليه يمكن إقامته اعتماداً على رسالته إلى إسحاق بن إبراهيم المتعلقة بشأن الفقهاء وأصحاب الحديث القائلين بخلق القرآن^(٤) ، ووجوب إجراء الامتحان لهم واختبار قدراتهم على إيراد المبررات التي تكرس مذهبهم ، والمبررات المضادة التي يحشدها القائمون على الامتحان لإبطال ما ذهبوا إليه من آراء بهذا الصدد^(٥) .

(١) القرآن الكريم ، سورة النحل ، الآية: ١٦٠ . ميرخوند ، روضة الصفا ، ص ٤٦٥ .

(٢) الطبرى ، تاريخ ، ج ٨ ، ص ص ٦٤٤-٦٤٥ ; مسکویه ، تجارب ، مطبعة المثنى ، بغداد ج ٦ ، ص ٤٤٦ .

(٣) ابن كثیر ، البداية ، ج ١٠ ، ص ص ٢٧٣-٢٧٤ .

(٤) الأزدي ، تاريخ ، ص ٤١٢ ; مسکویه ، تجارب ، ج ٣ ، ص ٤٦٧ ; ابن الأثير ، الكامل ، ج ٦ ، ص ص ٤٢٣-٤٢٦ ; ابن خلگان ، وفيات ، ج ٦ ، ص ٢٧٩ .

(٥) البیهقی ، المحاسن ، ج ١ ، ص ١١٧ .

ومن غرائب ما يثير الدهشة ويوقظ الإعجاب، أن سيول الأخبار المتداقة على الخلفاء لم تبق ولم تذر شيئاً إلا وقد أتت عليه لتسوقه إلى مسمع الخليفة في خاتمة المطاف^(١). ولم تفلت من قبضة أصحاب الأخبار حتى الأحلام والرؤى التي يراها النائمون في نومهم، ومن ذلك ما ألقى به الرواية التاريخية بين يدي البحث، يتمثل في أن الخليفة المتوكّل ترك الهزل واللهو عام (٢٤٧هـ / ٨٦١م) ولكنـه كان يتشبه بخلق الجبارـة، وبلغه أن صالح بن أحمد بن حنبل رأى في نومه قائلاً يقول:

ملُكُ يُقادُ إِلَى مَلِيكِ عَادِلٍ مُتَفَضِّلٌ بِالْعَفْوِ لَيْسَ بِجَائِرِ
وَحِينَ تَنَاهَى خَبَرُ الْحَلْمِ الْمَنْظُومُ شِعْرًا إِلَى سَمْعِهِ ارْتَاحَتْ نَفْسُهِ إِلَيْهِ،
وَأَخْذَ الْانْشَارَحَ يَمْلأُ صَدْرَهُ وَيَمْلِكُ عَلَيْهِ قَلْبَهُ وَهُوَ يَهْتَزُ فَرْحًا بِمَا سَمِعَ^(٢).

ومن الشواهد المثبتة التي لا يرقى إليها الشك في قدرة أصحاب الأخبار على تصييد الخبر، في كل الظروف والأحوال ما ذكره الحنبلي قائلاً: إن أبو بكر محمد بن الحسن بن دربنـد عـتابـية الأـزـدي العـلام اللـغـوي صاحب التصانـيفـ الكثـيرـةـ قد اـتـقلـ إـلـىـ بـغـادـ زـمـنـ الـخـلـيفـةـ المـقـتـدرـ بالـلهـ عـامـ (٩٣٢هـ / ٥٣٣م)، وما إن علم صاحب الخبر بمقدمـهـ واستقرارـهـ فيـ مدـيـنةـ السـلـامـ، حتىـ أـنـذـ خـبرـهـ إـلـىـ الـخـلـيفـةـ، ولـماـ ثـبـتـ منـ مـكـانـتـهـ الـعـلـمـيـ حدـدـ لهـ مرـتاـبـاـ شـهـرـيـاـ موـفـيـاـ بـرـغـدـ العـيشـ وـالـمـتـطلـبـاتـ الـحـيـوـيـةـ ذاتـ الشـعـبـ المـتـبـاـيـنـةـ فيـ الأـهـدـافـ وـالـأـغـرـاضـ^(٣).

وفي عام (٩٧٥هـ / ١٩٧٥م) أحضر بين يدي الحاكم الفاطمي المعز^(٤)

(١) م.ن، ج١، ص١١٧؛ مؤلف مجهول، العيون، ج٣، ص٣٦٤؛ ابن القسطي، تاريخ الحكماء، (ليزيك: ١٩٠٣م)، ص٣٢٩.

(٢) اليعقوبي، تاريخ، ج٢، ص٤٨٤-٤٨٥؛ الحنبلي، شذرات، مج١، ج٢، ص١١٥.

(٣) الحنبلي، شذرات، مج١، ج٢، ص٢٩٠.

(٤) المعز العبيدي: أبو تميم معد الملقب المعز لدين الله، بن منصور بن القائم بن المهدى

الفقيه أبو بكر النابلي المعروف بالزهد والتقوى، بعد أن أبلغه صاحب الخبر قول النابلي الذي جاء فيه: «لو أن عندي عشرة أسهم لرميـت الروم بتسعة ورميـت المصريـين بوـاحـد منها». وبعد الاستفسار عما صدر منه اعترـف النابلي بـمواقـلـتهـ، فتفجرـ برـكانـ الغـضـبـ عـلـيـهـ، فأـمـرـ بالـتـشـهـيرـ بـهـ فـيـ الـيـوـمـ الـأـوـلـ، ثـمـ إـلـهـابـ ظـهـرـهـ بـالـسـيـاطـ فـيـ الـيـوـمـ الثـانـيـ، وـبـسـلـخـهـ فـيـ الـيـوـمـ الثـالـثـ. وـقـدـ كـلـفـ يـهـودـيـاـ بـتـولـيـ عـمـلـيـةـ السـلـخـ فـقـامـ المـكـلـفـ يـلـبـيـ رـغـبـةـ الـخـلـيفـةـ وـالـضـحـيـةـ بـيـنـ يـدـيـهـ، وـلـمـ بـلـغـ السـلـخـ تـلـقـاءـ قـلـبـهـ طـعـنـهـ بـسـكـينـ طـلـبـاـ لـإـلـسـرـاعـ بـمـوـتـهـ وـخـلاـصـهـ مـنـ العـذـابـ فـمـاتـ فـيـ سـاعـتـهـ عـلـىـ أـثـرـ الضـربـةـ^(١).

هـ- صـاحـبـ الـخـبـرـ عـلـىـ الشـعـرـاءـ وـالـمعـارـضـةـ وـالـسـجـونـ:

من المعلوم أن صاحب الخبر كان شغوف القلب بصيانة مسؤوليته من الخلل، ولم يهـوـ قـلـبـهـ الأـمـورـ قـطـ لـصـالـحـ أـيـةـ جـهـةـ ضدـ سـلـطـةـ الـخـلـافـةـ. بلـ كانـ مـتـفـانـيـاـ إـلـىـ أـبـعـدـ الـحدـودـ فـيـ تـنـفـيـذـ ماـ أـنـيـطـ بـهـ مـنـ دـوـرـ لـصـالـحـ تـكـرـيـسـ مـصـالـحـ الـخـلـيفـةـ. وـكـانـ نـطـاقـ الـعـمـلـ يـتـسـعـ عـلـىـ مـرـ الأـيـامـ، ليـشـمـلـ شـتـىـ الـمـنـاحـيـ الـمـخـلـفـةـ النـاجـمـةـ عـنـ تـقـلـبـاتـهاـ وـثـوابـتهاـ بـفـعـلـ التـجـددـ القـائـمـ عـلـىـ التـغـيـرـاتـ وـالـتـبـدـلـاتـ الـمـتـلـاحـقـةـ بـحـكـمـ الـأـحـدـاثـ الـمـتـوـالـيـةـ ليـشـمـلـ هـذـاـ الـاتـسـاعـ الشـعـرـاءـ أـيـضاـ. إـذـ يـرـوـيـ لـنـاـ (ابـنـ واـصـلـ الـحـموـيـ)ـ أـنـ مـعـنـ بـنـ زـائـدـ دـخـلـ عـلـىـ الـخـلـيفـةـ الـمـنـصـورـ، وـبـعـدـ حـوارـ مـسـتـفيـضـ بـيـنـهـمـاـ قـالـ لـهـ الـخـلـيفـةـ الـمـنـصـورـ:ـ «ـبـلـغـنـيـ عـنـكـ شـيـءـ ذـوـ بـالـ، فـلـوـلاـ مـكـانتـكـ عـنـدـيـ وـحـسـنـ رـأـيـ فـيـكـ لـغـضـبـتـ عـلـيـكـ». فـرـدـ عـلـيـهـ (معـنـ):ـ «ـوـمـاـ ذـلـكـ يـاـ أـمـيـرـ الـمـؤـمـنـيـنـ؟ـ»ـ، قـالـ:ـ «ـإـعـطـأـوـكـ مـرـوـانـ بـنـ أـبـيـ حـفـصـةـ الشـاعـرـ أـلـفـ دـيـنـارـ لـقـولـهـ فـيـكـ:

معـنـ بـنـ زـائـدـ الـذـيـ زـيـدـتـ بـهـ شـرـفـاـ عـلـىـ شـرـفـ بـنـ شـيـبـانـ

= عـيـدـ اللهـ، تـولـىـ الـخـلـافـةـ عـامـ ٣٤١ـهـ، وـتـوـفـيـ سـنـةـ ٣٦٥ـهـ. انـظـرـ:ـ اـبـنـ خـلـكـانـ،ـ وـفـيـاتـ،ـ جـ٥ـ،ـ صـصـ ٢٢٤ـ،ـ ٢٢٨ـ.

(١) اـبـنـ كـثـيرـ،ـ الـبـداـيـةـ،ـ جـ١١ـ،ـ صـ ٢٨٤ـ.

قال له معن: «والله يا أمير المؤمنين ما كافأته على ما ضمن وإنما كافأته على قوله في أمير المؤمنين^(١):

ما زلت يوم الهاشمية معلماً
بالسيف دون خليفة الرحمن
فَمَنْعَتْ حَوْزَتَهُ وَكُنْتَ وِقَاءَهُ
مِنْ وَقْعِ كُلِّ مُهَنَّدٍ وَسَنَانٍ^(٢)

فندم الخليفة المنصور على ما كاد أن يصيب معناً من الغبن، وصمت
ليلاً ثم نطق قائلاً: «ألهذا السبب كافأته؟» قال: «نعم يا أمير المؤمنين.
لولا مخافة النومة^(٣) عليّ من قبلكم لأمكتنه من مفاتيح بيوت الأموال
حذافيرها، زيادة في إجلاله بسبب حسن مقالته فيك». واغتبط الخليفة
منصور بقول معن واستولى السرور على أرجاء نفسه وأغوارها، وقال:
«لله درك من أعرابي ما أهون عليك ما يعز على الرجال من أهل الحزم
العزم»^(٤).

لا مناص من التيقن من أن صاحب الخبر كان محظياً بكل ما يحدث تحت الشمس المشرقة على أرجاء الخلافة، ومخلصاً غاية الإخلاص في أداء دوره المسند إليه، ألا وهو التقاط الأخبار أيّاً كان نوعها، ثم إيصالها ضمن تقارير مرفوعة إلى الخليفة للبت فيها، كما كان الحال مع معن والخليفة المنصور^(٥).

وأورد المؤرخون رواية في زمن الخليفة المنصور مقتضاهما، أن صاحب الخبر رفع إلى الخليفة المنصور تقريراً تضمن اتهام مطیع بن إیاس

(١) معن بن زائدة، بن عبد الله بن مطر بن شريك، الكلبي، جمهرة النسب، تحقيق، ناجي حسن، (القاهرة: ١٩٨٦م)، ص ٥١١.

(٢) الأصفهاني، الأغاني، مجلد ١٠، ص ٩٠؛ الحموي، تجريد، ق ٢، ج ١، ص ١١٤.
 (٣) م.ن، ق ٢، ح ١، ص ١١٤.

١١٤ - (٢) - (٥٦)

(٤) الجمعة، تحدى، ق٢، ح١، ص ١٥٢٤ - ١٥٢٥.

(٥) الأصفهاني، الأغاني، مجلد ١٣، ص ٣١٧-٣١٨.

الشاعر بالزندة^(١)، وعظم شأن التهمة في نظر الخليفة، لكون مطیع يعاشر ابنه جعفرًا وثلة من أهل بيته، وقيل له إنه موشك على إفساد دينهم وحملهم على اعتناق مذهب الزندة، وتدخل المهدى لصالح مطیع مبرئاً ذمته مما هو منسوب إليه قائلاً: «أنا به عارف، أما الزندة فإنه ليس من أهلها، إلا أنه فاسق ضعيف الدين، لاستحلاله المحارم». وقال الخليفة المنصور للمهدى: «عليك بإبعاده عن جعفر وسائر الأهل». ونزلواً عند رغبة الخليفة^(٢) استقدمه المهدى، وقال له الأقوال الغليظة من قبيل قوله «يا خبيث الدين يا فاسق، قد أفسدت أخي ونفراً من أهلي وغررت بهم حتى طار سوء صيتها في الناس، بسبب أقوالك وأفعالك، ولو لا سعي لدى الخليفة إلى إنقاذه بتبرئة ذمتك، مما أشيع عنك لضرب عنقك». فسأل مطیع عن سبب ذلك كله، فأجاب المهدى: أنك تعاور الخمرة وتفسد في القول بتأثيرها، وإنك تتماجن على السؤال وتستهزئ بالناس، كما ينص على ذلك تقرير صاحب الخبر إلى الخليفة». فاستغرب مطیع وأدى أغلفظ الأيمان^(٣) وقال: «إن ذلك ليس من فعلي ولا من شائي، عدا مرة واحدة عن غير قصد أو سابق إصرار، إذ اعترض سبيلي رجل متسلل أعمى، وبينما أنا عابر الجسر على بغلتي ظنني المتسلل الأعمى، أني من الجند ورفع العصا بوجهي ثم صرخ قائلاً: اللهم سخر الخليفة، لأن يعطي الجندي أرزاقهم ليتمكنوا من شراء الأمتعة من التجار، فتزداد أرباحهم وتجب فيها الزكاة فيتصدقون علي من أموالهم، فامتعضت من صراخه ورفعه العصا

(١) ابن شاكر الكتبى، فوات، ج٣، ص ص ٤٠١-٤٠٠. الصفدي، الونفى، باعتناء س. ديدريتىغ، فرانز شتايز (القاهرة: ١٩٧٤م)، ج٣، ص ٣٠٠؛ سميرة اللثى، الزندقة والشعوبية، (القاهرة: ١٩٦٨م)، ص ١٩٠.

(٢) الأصفهاني، الأغاني، مج ١٢، ص ٨٣. الخطيب البغدادي، تاريخ، ج ١٣، ص ٢٢٥.
سميرة الليثي، الزندقة والشاعرية، ص ١٩٠.

(٣) الأصفهاني، الأغاني، مجل ١٢، ص ٨٣. الشعالي، ثمار القلوب، ص ١٢٨-١٢٩.

بوجهي ، وضيق الطريق إلى حد كاد معه سقوطي في الماء ، فقلت يا هذا ما رأيت أكثر فضلاً منك ، استعن بالله على الرزق . ولا تجعل هذه الحالات والوسائط سبيلاً إلى نيل بغيتك ، لأن هذه المسائل فضول ، فبعث المشهد الضحك في الناس ، وإن الذي رفعه صاحب الخبر لا يبرر التهمة التي نسبت إليّ . وهنا اشرح صدر المهدى وأرخي حبل الضحك ممتنعاً بسماع القصة المضحكة ، التي استعدبها وأخلى على أثرها سبيله ونجا من ضرب العنق^(١) .

لم يتوقف السعي إلى تضيق الخناق على كل من مس بال الخليفة مسًا خفيفاً أو شديداً ، بل دارت الرّحى وهي تسحق بلا هوادة كل من حامت حوله شبهة أو الصقت به التهمة ، وكان حظ الشعراء في العقوبات وافرًا كغيرهم من الفئات الأخرى ، لقد بلغ المهدى من قبل صاحب الخبر ، أن بشاراً قد هجاه وشهد قوم له عليه بالزندة فأمر بضربه حتى الموت ، وقد طويت على أثر الضرب صفحات عمره التي بلغت نيفاً وتسعين سنة^(٢) .

ضرب الخليفة الرشيد أبا العتاهية وحبسه عام (١٩٢هـ: ٨٠٧م) بسبب تقرير رفعه صاحب الخبر عنه ، وضمنه ما لا يرضي الخليفة الذي قرر أن يوكل به في السجن صاحب خبر يصغي إلى ما يصدر عنه من أقوال ، ثم يقدم بها تقريراً إلى الخليفة ، وذات يوم سمع صاحب الخبر ينشد أبياتاً منها^(٣) :

أَمَا وَاللَّهِ إِنَّ الظُّلْمَ لَؤْمٌ، وَمَا زَالَ الْمُسِيءُ هُوَ الظُّلُومُ
إِلَى دَيَانِ يَوْمِ الدِّينِ تَمْضِيٌّ وَعِنْدَ اللَّهِ تَجْتَمِعُ الْخُصُومُ

(١) النعالي، ثمار القلوب، ص ص ١٢٨-١٢٩؛ الخطيب البغدادي، تاريخ، ج ١٣، ص ٢٢٥.

(٢) الأصفهاني، الأغاني، مج ٣، ص ص ٢٣٨-٢٣٩؛ الخطيب البغدادي، تاريخ، ج ٧، ص ١١٢، سبط قفيتو الإربلي، خلاصة، ص ١٠٢؛ أرسن موسى رشيد، الشرطة في العصر الأموي (الكويت: ١٩٩٠) ص ١٧٢.

(٣) الأصفهاني، الأغاني، مج ٤، ص ٥٣؛ الحموي، تجرید، ق ١، ج ٣، ص ١١٩٥. ابن كثير، البداية، ج ٩، ص ٢١٨.

ودونها الموكّل به ثم أرسلها إلى الخليفة الرشيد، وعندما تلاها رقّ قلبه للشاعر، فندم على ضربه وحبسه فاستدعاه وأكرمه بمكافأة قدرها ألف دينار.

وتنقل رواية تاريخية أخرى أن أبا العتاهية حين أكثر في التشبيب بجارية الخيزران تدعى عتبة، شكت إلى مولاتها الشناعات التي لحقتها بسبب التغزل بها^(١)، ولم تطق هذه الحالة فأخذت تبكي بين يديها، وهي تشكو أمرها إليها، وبينما هما على تلك الحالة دخل عليها الخليفة المهدى، ورأى المشهد الذي أثار فيه نوع من السخط، فسأل عن خبرها، فأخرّبت الجارية بالقصة، وعلى الفور أمر الخليفة المهدى بإحضار الشاعر، ولما وقف بين يديه قال له أنت القائل في عتبة^(٢) :

الله بيّني وبين مولاتي أبدت في الصدّ والملاماتِ
ثم قال ومتى وصلتك حتى تشكو صداتها عنك؟ قال الشاعر : يا أمير المؤمنين ما قلت ذلك بل قلت :

يا ناقُّ حسي بنا ولا تنهي نفسك فيما ترين راحاتِ
ثم نَكَسَ المهدى رأسه وهزَّ قضيباً كان بيده، يريد ضرب الشاعر به، وبعد قليل رفع رأسه، وقال أنت القائل^(٣) :

ألا مالسیدتی مالها أدلَّت بأجمل إدلالها

واسترسل الخليفة يطرح عليه السؤال تلو السؤال والشاعر يفحمه في الإجابة عن كل سؤال، ولما عجز الخليفة المهدى عن مساجلته الكلامية أمر

(١) المسعودي، مروج، ج٣، ص ٣٢٥-٣٢٦.

(٢) المسعودي، مروج، ج٣، ص ٣٢٥-٣٢٦.

(٣) م.ن، ج٣، ص ٣٢٥-٣٢٦.

بجلده حداً يقترب من إقامة الحد الشرعي، ثم أمره بالانصراف، فلقيته عتبة، وهو على تلك الحال فقال^(١):

بخِ بخِ يا عتبُ من أجلكم قد قتلَ المهدىُ فيكم قتيلًا

فاغرورقت عينها بالدموع التي سالت على وجنتيها، ورآها الخليفة المهدى تبكي وسائل عن سبب بكائها، قيل له: إنها عطفت على حال الشاعر وهو مجلود، وأراد المهدى مداواة قلب الجارية وغسله مما علق به من حزن على الشاعر. فأمر له بخمسين ألف درهم، لكن الشاعر فرق المبلغ على من كان بالباب، وتلقف صاحب الخبر ما جرى من تفريق المبلغ، فأعلم الخليفة به من فوره فسأل الشاعر، وقال: «ما حملك على أن أكرمتكم بكرامة فقسمتها؟» فأجابه: «ما كنت لآكل ثمن من أحبيت». فعوض له بمثيله من المال، وحلف عليه أن لا يفرقه هذه المرة فأخذ وانصرف^(٢).

وفي مجال سياق الحديث عن جعفر بن يحيى البرمكي ما نظمه الشاعر عمرو بن كلثوم من أبيات بحق جعفر لأن الخليفة كان قد هدر دمه^(٣).

جاء على لسان المؤرخين بعد مقتل جعفر بن يحيى البرمكي وصلبه، أن الرقاشي^(٤) الشاعر مرّ بجثته المعلقة على جذع فهاله المشهد، ورقى لحاله بحكم ميزن الحرارة الذي يقاس به العطف والشفعة على من نزلت به

(١) م.ن، ج ٣، ص ص ٣٢٥-٣٢٦؛ أبو العناية، أشعاره وأخباره، شكري فيصل، (دمشق: ١٩٦٥م) ص ١٣٦؛ سهام عبد الوهاب الفريج، الجواري والشعر في العصر العباسي الأول، (الكويت: ١٩٨١) ص ١٣٦.

(٢) المسعودي، مروج، ج ٣، ص ص ٣٢٥-٣٢٦.

(٣) ياقوت، معجم الأدباء، مج ٩، ج ١٧، ص ٢٧.

(٤) الرقاشي: هو الفضل بن عبد الصمد الرقاشي، وهو من أهالي البصرة، توفي سنة ٤٢٠هـ، انظر: الأصفهاني، الأغاني، مج ١٦، ص ص ١٨٣-١٨٤.

العقوبة، وهو ميزان حساس لا يسمح بضياع أسرهـما لفـرط حـساسـيـتهـ، فـوقفـ
يـبـكـيـ أـمـرـ بـكـاءـ وـأـنـشـأـ يـنـشـدـ فـيـهـ قـصـيـدـةـ مـنـهـاـ هـذـاـ الـبـيـتـ^(١):

أَمَّا وَاللهِ لَوْلَا خَوْفُ وَاشِِ وَعِنْ لِلخَلِيفَةِ لَا تَنَامُ
وَلَمَا كَانَ أَصْحَابُ الْأَخْبَارِ وَاقْفِينَ بِالْمَرْصَادِ ذَاهِبِينَ إِلَى أَرْحَابِ
الْمَدَائِيَاتِ وَأَفْسَحَ الْأَمَادَ لِتَرْصُدِ مَا يَقْعُدُ تَحْتَ أَسْمَاعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ، لِمَوْافَةِ
الْخَلِيفَةِ بِهِ كَتَبُوا إِلَى الْخَلِيفَةِ الرَّشِيدِ قَصْةَ الشَّاعِرِ مَعَ الْمَصْلُوبِ، فَأَمَرَ
يَاحْضَارَهُ، وَلَمَّا وَقَفْ بَيْنَ يَدِيهِ سَأْلَهُ الْخَلِيفَةُ: مَا حَمَلْتَ عَلَى إِنْشَادِكَ هَذَا
الْمَدِيْحَ فِي جَعْفَرِ؟ فَقَالَ: «يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ حَمَلْنِي عَلَى ذَلِكَ جَمِيلُ
إِحْسَانِهِ الَّذِي طَوَّقَ بِهِ جَهْدِيِّ، فَمَا مَلَكْتَ نَفْسِي حَتَّى قَلَتْ مَا قَلَتْ»، قَالَ:
«كَمْ كَانَ يَجْرِي عَلَيْكَ»، قَالَ: «أَلْفُ دِينَارٍ كُلُّ سَنَةٍ»، فَقَالَ: «إِنَّا قَدْ ضَاعَفْنَا
لَكَ»، فَابْتَسَمَ لِهِ الْحَظْ بَدْلًا مِنْ أَنْ يَمْرُرَهُ عَلَى السِّيفِ وَيَجْرِي كَأسَ الْمَنَونِ
الْزَّيَّامَ^(٢). لَا مَرَأَ فِي أَذْرَعِ أَصْحَابِ الْأَخْبَارِ كَانَتْ خَبِيرَةً وَمَاهِرَةً فِي
مَطَاوِلَةِ الْمُسْتَجَدَاتِ وَاكْتِنَافِهَا وَإِطْبَاقِ الْقَبْضَةِ عَلَيْهَا، ثُمَّ صَيَاغَتْهَا ضِمنَ
تَقَارِيرِ تَرْفُعِ إِلَى الْخَلِيفَةِ لِيَكُونُوا عَلَى بَيِّنَةِ مِنْهَا، لِاصْدَارِ التَّوْجِيهَاتِ
الْمُتَضَمِّنَةِ كَيْفِيَةِ التَّعَامِلِ مَعَهَا. كَمَا يَدْلِلُ عَلَى ذَلِكَ الْحَوَارُ الَّذِي دَارَ بَيْنَ
الْخَلِيفَةِ الرَّشِيدِ وَيَزِيدِ بْنِ مُزِيدِ الَّذِي نَظَمَ فِي مَدْحِهِ بَعْضَ الْأَبْيَاتِ، فَوَصَّلَ
الْخَبَرَ إِلَى الرَّشِيدَ قَبْلَ وَصُولِهِ إِلَى الْمَعْنَىِ، وَنَسْتَمِدُ هَذَا الدَّلِيلُ مِنْ رَوَايَةِ
تَارِيْخِيَّةٍ ذَكَرَتْ، أَنَّ يَزِيدَ بْنَ مُزِيدَ، دَخَلَ عَلَى الْخَلِيفَةِ الرَّشِيدِ، فَسَأَلَهُ مِنْ
الْقَائِلَ^(٣):

لَا يَعْبُقُ الطَّيْبُ خَدَّيْهِ وَمَفْرَقَهُ وَلَا يُمَسَّحُ عَيْنِيهِ مِنَ الْكَحْلِ
قَدْ عَوَدَ الطَّيْرُ عَادَاتِ وَثَقْنَ بَهَا فَهَنَّ يَتَبَغْنَهُ فِي كُلِّ مُرْتَحَلِ

(١) الأصفهاني، الأغاني، مع ١٦، ص ص ١٨٣-١٨٤؛ الحموي، تجرید، ق ٢، ج ١،
ص ١٧٣١-١٧٣٢.

(٢) الأصفهاني، الأغاني، مع ١٦، ص ١٨٣-١٨٤؛ الصفدي، الوافي، ج ٢، ص ١٢٥.

(٣) الحموي، تجرید، ق ٢، ج ٢، ص ص ١٩٩٢-١٩٩٣.

قال: «لا أعرف الناظم يا أمير المؤمنين»، فرد عليه الخليفة الرشيد: «كيف لا تعرف شرعاً قيل في مدحك وتجهل ناظمه؟»، فاحمر خجلاً لإحساسه بحراجة الموقف، وانقلب على عقبيه قاصداً منزله، والخجل يثقل كاهله، ولما انتهى به المسير إلى داخل داره، دعا حاجبه وقال: «من بالباب من الشعراء؟» قال: «مسلم بن الوليد»، وقال للحاجب: «لماذا حجبته عنني ولم تعلمني بوقوفه على بابي؟»، قال الحاجب: «أخبرته بأنك معسر الحال لقلة المال، وطلبت منه الإمساك والإقامة أياماً معدودات إلى أن يرفرف الفرج بأجنحة اليسر، فلم يرض عن مقاله^(١):

أَمَا كَفَى الْبَيْنَ أَنْ أُرْمَى بِأَسْهُمِهِ حَتَّى رَمَانِي بِلَحْظِ الْأَعْيُنِ النُّجْلِ
وعندما شنف الإنشاد سمعه أمر له بخمسين ألف درهم، وطلب منه إسعافه بقبول الاعتذار، ثم أسر الحاجب رهن ضيعة على مائة ألف درهم، على أن يدفع خمسين ألفاً للشاعر وخمسين ألفاً لنفقة الذاتية^(٢).

وما هي إلا سويقات حتى حطّ الخبر عند الخليفة الرشيد عن طريق صاحب خبره، فاستحسن الموقف وطربت له نفسه لما فيه من رفيع القيم وبديع الشيم، فأمر ليزيد بمائتي ألف درهم، ووصاه بأن يهب خمسين ألفاً للشاعر، ويزيده خمسين ألفاً ليصبح المبلغ الإجمالي الموهوب للشاعر مائة ألف درهم، وينتفع يزيد بالبقية الباقية التي قدرها مائة ألف درهم لنفقة الخاصة. وهذا الإكرام يعبر بلسان الحال قبل المقال عن استمساك الخلف بعلو همة السلف، في إظهار الإجلال للمواقف التي تستدعيه وتستلزمها^(٣).

إن الخليفة الرشد كان عليماً بكل ما يخص الشعراء والأدباء في حياتهم ومماتهم، من ذلك ما يرويه هشام بن عبد الملك الخزاعي، ويقول: «كنا

(١) الحموي، تجريد، ق. ٢، ج. ٢، ص ص ١٩٩٢-١٩٩٣.

(٢) م.ن، ق. ٢، ج. ٢، ص ص ١٩٩٢-١٩٩٣.

(٣) م.ن، ق. ٢، ج. ٢، ص ص ١٩٩٣-١٩٩٢.

بالرقة مع الخليفة الرشيد، فكتب إليه صاحب الخبر وفاة كل من الكسائي^(١) وإبراهيم الموصلي والعباس بن الأحنف في وقت واحد»، فأمر الخليفة الرشيد ابنه المأمون بالخروج للصلوة بهم^(٢).

ومما احتفظ به التاريخ من الروايات عن الشعر والشعراء، ما جرى لأبي نواس وسليمان بن أبي جعفر، مع الخليفة الأمين، إذ تروي إحدى الروايات أن أبا نواس نادم الأمين، وله معه أخبار وأشعار كثيرة، وأراد فضل بن سهل، تجنيد بعض أشعار وأخبار أبي نواس مع الخليفة الأمين، وحشدتها للطعن في الخليفة والسخرية منه، بسبب كيفية احتمال هذا النمط من الشعر والشعراء خاصة وأن أبا نواس قد أطلق عنان لسانه فيما لا ينبغي قوله^(٣).

وبلغ ذلك الخليفة الأمين فأصر على طلب أبي نواس، وحين حضر وجد سليمان بن أبي جعفر حاضراً قبله، لأن صاحب الخبر قد نقل للخليفة عنه ما لا يقل إسفافاً عن أبيات أبي نواس نجزئ من نظمه^(٤).

وقد أغفل الخليفة الأمين القول لسليمان وأطلق عليه سيلًا من أقبح الشتم وأقذعه بسبب تلك الأبيات، غير أن سليمان تبرأ مما نسب إليه، فشهد بعضهم أنه وضع قدمًا في يوم ممطر لاستقبال القطر، وما إن نزل في

(١) الكسائي، أبو الحسن علي بن حمزة بن عبد الله بن بهمن بن فيروز الأستدي الكوفي، انظر: ابن خلkan، وفيات، ج٣، ص٢٩٥.

(٢) ابن عبد ربه، العقد، ج٦، ص٢٢٢.

(٣) اسقني خمراً وقل لي هو الخمر ولا تسقني سرّاً إذا أمكن الجهر
انظر: الجهشياري، الوزراء، ص ص ٢٤١-٢٤٢.

(٤) ولا زادني تيهًا على الناس أنتي أراني أغناهم وإن كنت ذا عسر ولو لم أقل فضلاً لكان صيانتي فمن عن جميع الناس حسيبي من الفخر
ص ص ٣٠٧-٣٠٨؛ محمد جابر عبد العال، حركات الشيعة المتطرفين وأثرهم في
الحياة الاجتماعية والأدبية لمدن العراق إبان العصر العباسي الأول، (القاهرة:
١٩٥٤م) ص ص ٢٦٩-٢٧٠.

القدح قدر من القطر حتى شربه، ثم قال مستهزئاً: «يزعمون أن مع كل قطرة ملكاً^(١). فكم تروني شربت من الملائكة أيها الناس؟»، ولما سمع الخليفة شهادة الشهود، أرسله إلى سجن مع قوم متهمين بالزنقة، وبينما هو في محبسه قال أبياتاً منها:

ألا العذر يقبل لي فتقبل توبتي
منهم ولا يفرضون حلف يميني
أما الأمين فلست أرجو دفعه عني فمنْ لي اليوم بالمؤمن؟

وما هو إلا ردح من الزمـن حتى استقرت الأبيات على سمع الخليفة المأمون الذي كان بمرـو آنذاك فقال معقباً: «والله لئن لحقته لأثرـته إثـراء لا يتصوره أحد»، لكنه مات قبل دخـول المـأمون مدـينة السلام^(٢).

يعرف القاصي والداني زمن العباسـيين لكثـرة إلـمامـهم بـأنشطة أـصحابـ الأخـبارـ، إنـ الأـسـرارـ كـانـتـ تـنـقـلـ إـلـىـ الـخـلـفـاءـ مـهـماـ بـلـغـتـ درـجـةـ التـكـثـمـ عـلـيـهـ، لأنـ أولـئـكـ جـعـلـواـ نـصـبـ أـعـيـنـهـمـ مـلـاحـقـةـ الـخـبـرـ، وـبـعـدـ اـسـتـحـصـالـهـ كـانـواـ يـسـوقـونـهـ إـلـىـ الـخـلـيفـةـ. فـفـيـ زـمـنـ الـخـلـيفـةـ الـمـأـمـونـ حدـثـتـ طـرـيـفـةـ تـشـيرـ الدـهـشـةـ وـالـغـرـابـةـ مـنـ جـهـةـ، وـتـنـطـقـ بـفـاعـلـيـةـ صـاحـبـ الـخـبـرـ، وـتـمـكـنـهـ الـمـنـقـطـعـ النـظـيرـ فـيـ أـدـاءـ دـورـهـ مـنـ جـهـةـ أـخـرـىـ، وـتـلـكـ الـطـرـيـفـةـ تـبـرـزـ مـعـالـمـهـ فـيـ قـصـةـ شـخـوصـهـ أـحـمـدـ بـنـ صـدـقـةـ الـمـغـنـيـ وـخـالـدـ الـكـاتـبـ، وـالـخـلـيفـةـ الـمـأـمـونـ وـإـحـدـيـ جـوـارـيـهـ، وـيـتـجـسـدـ موـجـزـ الـقـصـةـ فـيـ أـنـ أـحـمـدـ بـنـ صـدـقـةـ مـرـّـ بـخـالـدـ الـكـاتـبـ يـوـمـاـ، وـطـلـبـ مـنـهـ نـظـمـ بـضـعـةـ أـبـيـاتـ لـيـغـنـيـهـ فـيـ حـضـرـةـ الـخـلـيفـةـ الـمـأـمـونـ، فـقـالـ الشـاعـرـ لـلـمـغـنـيـ: أـيـ حـظـ لـيـ فـيـ ذـلـكـ، إـنـكـ سـتـفـوزـ بـالـمـكـافـأـةـ فـوـعـدـهـ أـنـ سـيـقـاسـمـهـ إـيـاهـاـ»، فـنـظـمـ لـهـ بـعـضـ أـبـيـاتـ مـنـهـ هـذـانـ الـبـيـتـانـ^(٣):

(١) الجهشـيارـيـ، الـوزـراءـ، صـصـ ٢٤٢ـ٢٤١ـ.

(٢) مـ.ـنـ، صـصـ ٢٤٢ـ٢٤١ـ.

(٣) ابنـ خـلـكانـ، وـفـيـاتـ، جـاـ صـصـ ٢٣٤ـ٢٣٥ـ؛ الـحـموـيـ، تـجـريـدـ، قـ٢ـ، جـ٢ـ، صـصـ ٢٠٣٠ـ٢٠٢٩ـ.

تقول سلاماً فمن المُدْنَفُ ومن عينه أبداً تذرُفُ
 من قلبه قلقٌ خائفٌ عليك وأحشاؤه ترجمُفُ
 ولما حفظ المغني صاغ له لحنًا شجيًّا تطرب له القلوب وتهتز له
 النفوس، وفي غده حضر وبيده رقصة مكتوب عليها بالذهب يا سيدى
 سلوت، ثم ابتدأ يغنى بالشعر الذي نظمه خالد الكاتب، وما إن باشر الغناء
 حتى احمرت عينا الخليفة المأمون، ودارتا في رأسه من شدة الغضب، وقدفه
 بثتم مؤلم، وقال له: «هل لك علي وعلى حرمي صاحب خبر، يوفيك
 بأسرار داري»؟ فاندهش المغني من رد فعل الخليفة غير المتوقع فسأله
 المغني^(١)، والحقيقة تأخذ منه كل مأخذ: «ما سبب ذلك يا سيدى؟»
 فأجاب الخليفة المأمون: «من أين عرفت قصتي مع جاريتي، حتى غنيت
 في معنى ما بيننا من الجفوة». فحلف المغني على أنه لم يكن يعرف شيئاً
 مما أثاره الخليفة، وقصَّ عليه قصته مع خالد الكاتب، ولفرط إعجابه
 بالطرافة التي نسجها عنصر المصادفة ضحك ضحكاً شديداً فأمر له بخمسة
 آلاف درهم ولخالد الكاتب بمبلغ مماثل^(٢).

يحكى أن الخليفة المأمون قد بلغه قول علي بن جبلة لأبي دلف:

كل من في الأرض من عربٍ بين باديه إلى حضرة
 مستعير منك مكرمة يكتسبها يوم مفتخرة
 استشاط غضباً وتفجر سخطاً عليه، وقال اطلبوه حيث كان، فنشط
 أصحاب الأخبار في طلبه لكنهم لم يظفروا به، لأنه أوى إلى الجبل، ولما
 أحس باللاحقة هرب إلى الجزيرة، غير أن الكتب في طلبه، قد غطت
 الآفاق وعلم أن الملجأ غير آمن لا يوفي بإنقاذ الروح من الإزهاق فيم
 شطر الشام، بيد أن عيون الخليفة المنبثة في الأرجاء دون استثناء كانت

(١) الأصفهاني، الأغاني، مج ٢٢، ص ص ٢١٦-٢١٧.

(٢) م.ن، مج ١٩، ص ٣١٦.

متربيصة به ، ولم يبق أمامه حبل نجاة يستمسك به بغية الإنقاذ ، فأُنقت القبض عليه وسلمته إلى الخليفة المأمون ، ولما ساقه قدره إلى الخليفة ، وأوقفه بين يديه ، قال له : يا بن الخنساء ألسنت القائل للقاسم بن عيسى كذا وكذا^(١) ، وعني البيتين السابق ذكرهما في سياق الحديث ، وجعلتنا نستعيير المكارم منه ، وفي معرض الدفاع غير المقنع عن نفسه راح يريد الحجة تلو الحجة ، يلوذ بها طمعاً في النجاة منها ، قوله للخليفة أنتم أهل البيت لا يقاس بكم أحد ، لأن الله عَزَّوَجَلَّ فضلكم على خلقه واختاركم لنفسه ، وإنما عنيت في القاسم أشكاله وأقرانه ، فرد عليه الخليفة قائلاً : والله ما استثنيت أحداً من الكل ، ثم قال سلوا السانه من قفاه^(٢) .

يروي ابن واصل الحموي أن الخليفة المتوكل قد بلغه نباء احتراق الحسن بن عبد الملك بن صالح المفضي إلى موته ، بوساطة صاحب الخبر ، لكن علي بن الجهم كذب مضمون التقرير ، وقال له : إنه لم يتم بفعل الاحتراق ، بل مات قتلاً على يد العامل ، وإن هذا الخبر مختلف على أساس المصانعة والمداهنة ، وصاحب الخبر غير صادق فيما أورد ، لوقوعه تحت تأثير المحاباة ، فأزلمه بيته ، وبعد برهة بلغه بعضاً من هجائه له فحبسه انتقاماً منه ، عقاباً على سوء صنيعه ، لا سيما وهو صاحب خبره ، وكان عليه أن يكون صادقاً في النقل وملتزماً بحسن الأدب تجاه ولبي نعمته^(٣) .

وفي زمن الخليفة القادر بالله يورد صاحب خبره ، أبو عبد الله البشير البصري ، رواية موجزها فيما نورده ، إذ قال وقع بين أبي الحسن بن سكرة الهاشمي الشاعر وزوجته بنت أبي تحف الهاشمية بسبب ميله لامرأة تدعى خمرة ، فشككت الزوجة زوجها عند نقيب الهاشميين أبي القاسم بن أبي تمام

(١) الأصفهاني ، الأغاني ، مج ١٩ ، ص ٣١٦.

(٢) م.ن ، مج ١٩ ، ص ٣١٦.

(٣) م.ن ، مج ١٠ ، ص ٢٢٤؛ الحموي ، تجريد ، ق ١ ، ج ٣ ، ص ١٩٥.

الزينبي^(١)، وعند اطّلاعه على حيثيات الشكوى أحضر زوجها فألزمه أحد الاختيارين الإرضاe أو الطلاق. وقال الزوج ما الباعث على رضاك، فقالت له احلف بالطلاق على أن لا تجتمع إليها ولا تقربها، فإن فعلت استحق الانصراف عنك، وقد فعل ما طلبت منه بحضور النقيب، وأضاف أنه سيهجوها كل يوم وغدت زوجته لا تدعه يخرج إلى أن يهجوها تنفيذاً لما قطعه على نفسه من عهد، ثم تزوجت خمرة من رجل يعرف بابن طومار واتفق أن دخل ابن طومار هذا على أبي إسحاق الطبرى الشاهد المقرئ المحدث، ثم دخل بعده ابن سكرة^(٢) وهو لا يعرف ابن طومار المتزوج من خمرة. فسأله أبو إسحاق تحب خمرة وزوجها ابن طومار حاضر، ما لديك اليوم من أخبار «فرد ابن سكرة أمسكتني زوجتي الساعة، ولم تدعني حتى قلت في خمرة أبياتاً من الشعر»^(٣). ولما فرغ ابن سكرة الهاشمى إنشاده الأبيات المشار إليها، قال أبو إسحاق هاهنا زوج خمرة، وقد سمع ما قلت وأشار إليه تعريفاً به فاستحب ونكّس رأسه، ثم خرج يجر أذیال الخجل والاستحياء^(٤).

إن دائرة مساعي أصحاب الأخبار ومحاولاتهم المتواصلة، كادت تستنفذ أقصى مداياات الجهد، الإحاطة بكل شعب النشاطات على اختلاف أوجهه في خدمة الخلفاء، وقد شملت مساعيهم هذه مختلف الحقول بما فيها المعارضة، ففي عام (١٦٩ هـ / ٧٨٥ م) اشتدت ملاحقة الزنادقة ومطاردتهم من قبل الخليفة موسى الهادى الذى قتل منهم خلقاً كثيراً، وكان هنالك رجل

(١) الصابى، الھفوات، ص ص ٣٧٧-٣٧٨.

(٢) ابن سكرة: هو أبو الحسن محمد بن عبد الله بن محمد، المعروف بابن سكرة الهاشمى البغدادي الشاعر المشهور. وهو من ولد علي بن المهدى بن أبي جعفر المنصور الخليفة العباسى. انظر: ابن خلكان، وفيات، مج ٤، ص ٤١٠.

(٣) الصابى، الھفوات، ص ص ٣٧٧ - ٣٧٨.

(٤) م.ن، ص ص ٣٧٧ - ٣٧٨.

يدعى يقطين أراد أداء فريضة الحج، ووصل هناك لذلك الغرض، وبينما هو يطوف حول الكعبة المشرفة، نظر إلى الناس وهم يهرولون أثناء طوافهم بالكعبة، فأثار منظرهم انتباذه، وقال ما أشبه هؤلاء الحجاج المهرولين بدوس البيدر، ولما شاع هذا الحديث في أوساط الناس^(١)، ووصل خبره إلى الخليفة الهاudi عن طريق صاحب الخبر، ولم يكن بد من إنزال العقاب به، لأن هذا القول فيه الاستخفاف كل الاستخفاف بمناسك الحج، فاقتصر منه الخليفة وأمر بقتله^(٢).

إن الهاربين من وجه العدالة كانوا أشد ما يخافون أصحاب الأخبار الذين كانوا مبثوثين في كل مكان، وكانت لهم القدرة الفائقة لاصطياد الهاربين، وعليه فقد أورد المؤرخ الأصفهاني رواية مفادها أن إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن هرب إلى إفريقيا وكان أشد ما يخافه رجال الأخبار وسرعة نقلهم المعلومات للدولة، لأجل ضبطهم^(٣).

ولم ينقطع تواصل حلقات رفع التقارير إلى الخليفة، من قبل أصحاب الأخبار المقتفين آثار المعارضين والمتابعين تنقلهم، أو أماكن اختبائهم، فقد قيل إن أصحاب فخر حين قتلوا، نجا يحيى بن عبد الله من القتل، وأنشأ يطوف هنا وهناك بحثاً عن ملجأ يلوذ به، وحين استقر به المقام في بعض النواحي، علم الفضل بن يحيى البرمكي بموضع اختفائه، فأشير عليه بالانتقال شطر الدليل، وكتب له منشوراً لا يتعرض له أحد فمضى متناكراً حتى ورد الدليل. لكن صاحب الخبر الماهر في اصطياد المعارضين علم بسره، فبلغ الخليفة الرشيد خبره، وأرسل الفضل لجلبه الذي احتال عليه،

(١) الطبرى، تاريخ، ج. ٨، ص ١٩٠؛ ابن سبط الأربلي، خلاصة، ص ١٠٦.

(٢) ابن سبط الأربلي، م.ن، ص ١٠٦.

(٣) للمزيد عن تلك القصة، انظر: مقاتل الطالبين، ص ص ٣٢٤-٣٢٥. ميرخوند، روضة الصفا، ص ص ٤٥١ - ٤٥٠.

وأٰتى به إٰلى الخليفة الرشيد، وبعدها مثل بين يديه نظر في أمره، وقرر إخلاء سبيله^(١).

هذا وإن اشتداد الخليفة الرشيد في التعامل مع المعارضين لم يعرف حدوداً ينتهي إليها، فقد صبَّ جام غضبه على كل من ثبتت معارضته لسلطته أياً كان جنس المعارض ونوع المعاشرة بمن فيهم الزنادقة أيضاً، فقد أخبر صاحب الخبر بذلك عام (١٨٧ هـ / ٨٠٢ م)^(٢).

وفي نفس السياق يذكر أن الخليفة الرشيد، قال للسَّندي بن شاهك، وهو متولي الجسرین في بغداد، وكل بدار البرامكة سرًّا وكان الخليفة يعمر الأنبار في تلك الأثناء، ومعه جعفر البرمكي، فلبي طلب الخليفة، وأمسى ابن شاهك في مجلس الجسر في الجانب الشرقي، يتوقع ورود الأخبار عليه من قبل الخليفة الرشيد، فكلَّف رجلاً يراقب من سيأتي بما يأمر به، وإذا بفرنق على بغلة تحته خِرْج فيه جثة جعفر، وقد شطرت شطرين، ومعه كتاب يأمر فيه الخليفة الرشيد بصلب كل شطر على أحد الجسرین ففعل ذلك^(٣).

كذلك أشار المؤرخ الطبری رواية، مفادها شدَّة نشاط الخليفة وأصحاب أخباره في تتبع المعارضة أياً كانت ميولها، ما دامت تشكل خطراً على الخلافة، ففي عهد الخليفة الرشيد كان آل أبي طالب أكثر الناس خطراً على الدولة، مما دفع بالرشيد إلى تبع أخبارهم كلها، وكان أصحاب الأخبار يأتونه بكل صغيرة وكبيرة عن عبد الله بن الحسن بن الحسن مما دفع بالخليفة أخيراً إلى الحجر عليه في بيت معين أشبه ما يكون بالإقامة الجبرية في يومنا هذا^(٤).

(١) اليعقوبی، تاريخ، ج٢، ص٤٢٢-٤٢٣. الطبری، تاريخ، ج٨، ص٤٢٢-٤٢٣. الأصفهانی، مقاتل، ص٣٠٩.

(٢) الطبری، تاريخ، ج٨، ص٢٩٧. الصفیدی، الواقی، ج٩، ص٤٢٢-٤٢٣.

(٣) الطبری، تاريخ، ج٨، ص٢٩٧-٢٩٩. الجھشیاری، الوزراء، ص١٨٨.

(٤) الجھشیاری، الوزراء، ص١٨٨.

تذكر رواية تأريخية لصاحب الأخبار هي أن إبراهيم السندي، قال: إنه وجد رقعاً منتشرة في طبقات بغداد، وكان فيها شتم وكلام قبيح موجه إلى الخليفة، فكره رفعها لما فيها من فرط سوء الأدب، لكنه خشي من أن يعرف بها صاحب الخبر، فيضفي بها إلى الخليفة، ويصبه بعد ذلك من المكروره ما لا يطاق، ودرءاً للحالتين معاً، كتب إلى الخليفة المأمون يخبره بما وجد، فرداً عليه الخليفة مكاتبة وكتب له بخط يديه، لا تولوا هذا الأمر أكثر مما يستحق لأنك إن فعلت ذلك، اتسع الخرق وتفاقم الوضع، وما عليك إلا أن تأمر أصحاب الأخبار بجمعها وتمزيقها، لأن هذا الفعل لا يولد ما تخشاه، وسيزيل آثاره دون عناء وبناءً على أمر الخليفة تم الاستجابة والتلبية^(١).

ونورد حادثة أخرى تتلخص في أن الخليفة المأمون بلغه صاحب الخبر خبر عشرة من الزنادقة من أهل البصرة، لذهبهم مذهب ماني في الاعتقاد، فأمر الخليفة بإحضارهم إلى بغداد، بعد اطلاعه على التقارير المرفوعة إليه، عمّا يجري حتى خارج بغداد وبعد اعتقالهم ومثولهم بين يدي الخليفة المأمون طفق يناديهم فرداً فرداً سائلاً عن مذهبهم، وإذا ثبت انحرافهم عن الإسلام وخروجهم عن مبادئه وتعاليمه، يدعوهم إلى البراءة من الزنادقة مظهراً لهم صورة ماني، طالباً من كل منهم أن يبصق عليها ويتبرأ من صاحبها، فأبى مروره على السيف، وبقي الطفيلي وحده، يتضرر مصيره، فسأل الخليفة صاحب الخبر عن قصة الطفيلي الذي برهن للخليفة بما لا يقبل الريب في أنه مازاغ عن الإسلام ولا أحد بما جاء به وإنما التحق بهم طالباً للتزهه والمتعة لكنه لم يحوز على ثقة الخليفة المأمون^(٢)، إلا بعد لعنه ماني ومن دار في فلكه بعد رؤيته صورة ماني فوثق الخليفة بقوله وعفا عنه^(٣).

(١) ابن طيفور، تاريخ، ص ٤٢.

(٢) ابن عبد ربه، العقد، ج ٧، ص ص ٢٣٢-٢٣٣؛ المسعودي، مروج، ج ٤، ص ٩-١٠.

(٣) الأشيهي، المستطرف في كل فن مستطرف، (بيروت: ١٩٨٢م)، ج ١، ص ٢١٠.

ومن العلامات الدالة على تواصل حركة المعارضة، أذكر لمحه عن الحادثة التي جرت زمن الخليفة المتوكل، وملخصها أن شيخاً من سكان الدنیور^(١) كان يتشيع ويميل إلى الإمامة، ويتردد عليه فريق من الناس للدرس والتحصيل على يديه، يدعى بشر الجعاب فرفع صاحب الخبر أمره ومن معه إلى الخليفة المتوكل، وذكر له أنهم يسبون الصحابة ويشتمون السلف، فأمر الخليفة المتوكل وزيره عبيد الله بن يحيى بن خاقان أن يكتب إلى عامله هناك يطلب منه إرسال بشر الجعاب ومتلقي الدروس منه، وكان العامل هذا صديقاً لبشر يجمعه به حسن المعاشرة، وصفاء الود، وعند تلقي كتاب الخليفة المتضمن استدعاء بشر أشفق عليه، وهاله الخوف من أن يمسه ما لا يرضيه، فاستدعي العامل صديقه بشر وأعلمته بما كتب عنه و موقف الخليفة منه، فلاذ بشر بالصمت قليلاً ثم قال: لدى رأي إن أخذت به نجوت مما أنت خائف علي منه، قال العامل وما هو، أجاب بشر أن في الدنیور^(٢) شخص يسمى بشر أيضاً وهو خفاف، فإذا استبدلت (الجعاب) بالخفاف عن طريق تزوير حروف اللقبين، بحيث تغدو الجعاب خفافاً، نحوت من المازق بفضل هذه الحيلة، ولم يتردد العامل في الإقدام على تنفيذ رأيه، لأن بشر الخفاف كان غاية في البلاهة والغفلة، وتنطلي عليه الحيل بمتنه اليسر، وكان مستغلاً من قبل الناس، وذلك باستلاف مبالغ من المال منه في موسم الشتاء على أن ترد إليه عند حصول الغلّات في موسم الصيف، لكنهم لم يكونوا منصفين معه، وكانوا يلجمون إلى التسويف، والمحاطة في إعادة ما بذلتهم إليه، وكان العمل يتكرر على هذا النمط باستمرار وبداعم امتحانه لإلصاق التهمة به استقدمه صاحب الخبر ليتبين حقيقته، فضرروا بينه وبين الموكّل من قبل الخليفة لمعرفة أمره ستاراً

(١) ابن خلكان، وفيات، ج١، ص٣٥١.

(٢) الدنیور: مدينة من أعمال الجبل قرب قرميسين. انظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٢، ص٥٤٥.

بخفيه عن الأنظار، فبدأت الأسئلة تنهال عليه، بخصوص الأصحاب والسلف، والموكل يسمع ما يجري خلف ستار وعندما سمع بشر الخفاف المستغفل كلمة السلف ظنها سلفاً، وهي جمع سلفة، والفرق هائل بين معنى الكلمتين كما معه معلوم، هب يلعن السلف لاكتوائه بناره التسويف والمماطلة من المتسلفين، ولما ثبت صاحب الخبر بنفسه من لعن بشر السلف رفع القضية إلى الخليفة المتوكل، لكن الأخير لم يتسرع بل ترث قليلاً، وطالب صاحب الخبر باستئناف مساءاته، فعاد بشر إلى اللعن كما فعل في المرة الأولى، فسأله صاحب الخبر عن سبب شتمه، قال: إن المتسلفين أوغلوا في إيدائي بالمماطلة والامتناع عن إعادة ما استلفوه مني وقصّ عليهم القصة كاملة^(١). فأدرك صاحب الخبر سذاجة بشر وسماجة مبلغه من العلم وعرف أنه لا يفرق بين السلف والسُّلْف، فهما سيان لديه، فأيقن صاحب الخبر ببراءة ساحتة، مما أنسد إليه وأعلم الخليفة بما استقر رأيه عليه، بعد فحص أهلية الرجل التي لم تستوعب الفرق بين النفر من النفي، وعندما وقف الخليفة على براءته من التهمة المنسوبة إليه، تلك التي قامت دعائهما على أسس الاحتيال والتلاعب بالكلمات، وتحريف بالألفاظ، وقد سبقت الإشارة إلى ذلك التحريف والتحوير في سياق سرد الحادثة^(٢).

وفي عام (٢٥٧هـ / ٨٧٠م) أيام الخليفة المعتمد ذكر ابن سمعان أنه خرج من منزله قاصداً دار جد أمه، وسمع أن جماعة من بني تميم حامت حولهم شبهة المعارضة للخليفة، فأمر يحيى بن محمد البحرياني الزنج بالإحاطة بهم، وقال: من كان من آل المهلب، فليدخل دار إبراهيم بن يحيى، فدخلت جماعة قليلة تلك الدار وأغلقوا الباب دونهم، ثم قيل للزنج اقتلوا من بقي خارجها من المعارضين ولا تبقو منهم أحداً، ثم

(١) ابن خلكان، وفيات، ج١، ص٣٥١.

(٢) م.ن، ج١، ص٣٥١.

خرج إليهم محمد بن عبد الله المعروف بأبي الليث الأصفهاني، ونطق بما يشبه كلمة السر المطلوبة في المعسكرات لتمييز المعادي من المناصر، قائلاً (كيلوا)، وهذه الكلمة كانت بمثابة إشارة لمباشرة تنفيذ الأمر عند سماعه. وما إن سمعوا تلك الكلمة حتى أعلموا السيف في الرقاب، وحلقت على تلك البقعة التي حصلت فيها أشباح الموت التي غمستهم في خضم الدماء التي سالت حماية لأركان حصن الخليفة المنينع من التضعضع والتزحزح^(١).

تلك الحادثة كمثيلاتها تزييل أدنى التباس عن قدرة صاحب الخبر على لعب دوره في خدمة الخليفة، وذلك بإيصال الأخبار إليه، لتفادي مخاطر المعارضة لسلطته.

ومن الأنباء التي حفلت بها كتب التاريخ عن أنشطة المعارضة للخلفاء، ما جرى عام (٩٢٥هـ / ١٣٢م) زمن الخليفة المقتدر، ففي تلك الفترة كان الوزير أبو القاسم الخاقاني يبحث عن رجل من أهل بغداد يدعى الكعكي قيل عنه إنه كان يكاتب القرامطة، ويذهب مذهب الإماماعيلية في القصيدة، ولما توالت الأخبار المرفوعة إليه عن طريق صاحب الخبر، بعد اتساع دائرة نشاطه المعارض للخلافة، كلف نازوك بإلقاء القبض عليه، وحين أحس المعارض الكعكي بقرب التفاف الطوق حول جيده تسلق الجدار وفرّ هارباً، وبعد اقتحام الدار وجد من ينوب عنه، وبصحبته عدد من الرجال يسيرون على منوال رئيسهم القرمطي، فبدأ بعقاب نائب القرمطي وذلك بضربه ثلاثة سوط والتشهير به على جمل، ونادي المنادي هذا جراء الم المتعلمين المنحرفين عن سوء السبيل وحبس من هم أدنى رتبة منه^(٢).

ثم ورد عن طريق صاحب الخبر نبأ آخر أفاد أن جماعة معارضة أخرى تجتمع في مسجد براثا، تغالي في شتم الصحابة، فأمر الخليفة بالقبض

(١) الطبرى، تاريخ، ج ٩، ص ٤٨٦.

(٢) مسکویه، تجارب، ج ١، ص ص ١٤٥ - ١٤٦.

عليهم، ولما داهم نازوك ومن معه المسجد وجدوا فيه ثلاثة رجالاً، ومع كل واحد خاتم من الطين الأبيض مكتوب عليه أن محمد بن إسماعيل الإمام المهدي ولد الله، وبعد نيل كل منهم ما يستحق من عقوبة، ثم هدم المسجد بناءً على فتوى صدرت من فقهاء ذلك الزمان، تباع الهدم لكونه يشيع الفرقة بين المسلمين^(١).

ومن أخبار صاحب خبر الخليفة على العامة ما أشار إليها البيهقي في رواية ذكر فيها مسرور الخادم، قال له الخليفة المأمون: إن أصحاب الأخبار قد أثروا القول في أن شيئاً يأتي خرابات البرامكة في يكن ويتحب طويلاً ثم ينشد أشعاراً يرثي فيها البرامكة، وعليك أن تذهب مع دinar بن عبد الله للتثبت من صحة أقوالهم، فانطلق إلى حيث أشار الخليفة المأمون واختفي وإذا بشيخ قد أقبل معه خادم يحمل كرسياً حديدياً، وبعد وصوله جلس وشرع يفعل ما رفع عنه فقبضاه عليه وأحضراه بين يدي الخليفة المأمون، ولما سأله عن سبب البكاء والانتساب وإنشاد المراثي^(٢)، أجابه الشيخ أنه يفعل ذلك وفاء للآباء والنعيم التي كان البرامكة يغدقونها عليه فتعجب الخليفة المأمون، من شدة إخلاصه ووفائه لأولياء نعمته، فخلل سبيله قائلاً: اذهب فأنت طليق لأن الوفاء مبارك وحسن العهد من الإيمان^(٣).

ومن الأخبار العامة التي رفعت إلى الخليفة ما ذكرته إحدى الروايات التاريخية أن رجلين تنازعا بباب الجسر في مدينة السلام أحدهما من الوجاه، والآخر من السوق فأوغل الوجه في أذى العامي، فصرخ من حدة الأذى واعمراه، لقد ذهب العدل منذ ذهبت، فالتحقق صاحب الخبر وهو إبراهيم بن السندي خبر التنازع فأوصله إلى الخليفة المأمون، الذي

(١) ابن الجوزي، المتنظم، ج٦، ص ١٩٥.

(٢) المحاسن، ج١، ص ص ١١٦ - ١١٨.

(٣) سبط قنيتو الأربلي، خلاصة، ص ص ١٥٤ - ١٥٠.

استدعي العامي واستفسر عن سبب النزاع، وحين فرغ من الاستماع إلى شهادته أحضر خصميه الوجيه واستنطقه على نمط ما فعل مع الأول، فأجابه الوجيه بأنه كان ماراً بباب الجسر، وإذا بالعامي أخذ بزمام فرسه وطالبه بما ادعاه حقاً له، ولم يكتف بهذا القدر بل تمادى في سوء المعاملة، فوجّه الخليفة السؤال إلى العامي عما إذا كان ما أدلّى به الوجيه صحيحاً، لكن العامي طعن في أقواله ووصفها بالكذب والباطل، لكن الوجيه انبرى يقول: إن بوسعي إحضار عدد من الشهود الذين رأوا بأم أعينهم وسمعوا ملء أسمائهم سبب الشجار، وبعد التتحقق من أسباب الحادثة ونتائجها توصل إلى المناخ التوافقي وحسم النزاع بينهما على أساس تحديد إفرازاتها ثم تقيد هداها بالانقضاض الذي تمّ خصّ عنه القرار باعتبار الخليفة يمثل أعلى رمز بيده صنع القرار^(١).

وذكر ابن حمدون النديم قال: «كان له أصحاب أخبار يرفعون إليه كل ما يجري في الأسواق، فرفع إليه بعض أصحاب الأخبار أن إسکافياً قال لقطان: وقد طالبه بدین كان له عليه وكان يماطله: ما بقى للمسلمين من ينظر في أحوالهم». فقد أخبر صاحب الخبر الخليفة المعتصم الذي أمر بإحضار الإسکافي وأن يتتصف له من خصميه^(٢).

ومن العجب العجاب أن أصحاب الأخبار لم يفوتوا أمراً مهما كان تافه الشأن إلا أولوه بالغ رعايتهم كي لا يتعرضوا للتأنيب أو التقرير من قبل الخلفاء يوماً من الأيام، ومن ذلك ما روتة إحدى الروايات التي جاء فيها أن الخليفة الرشيد حبس يحيى بن خالد مع ولده الفضل، وضيق الخناق على الوالد والولد بحجب الناس عنهما وحجبهما عن الناس، وذات يوم لاحظ الخبر الموكّل بهما استغراقهما في ضحك مفرط، فأنهى الموكّل

(١) ابن طيفور، تاريخ، ص ٤٣.

(٢) ابن العمراني، الأنباء في تاريخ الخلفاء، ص ص ١٤٢ - ١٤٣.

خبرهما إلى الخليفة الرشيد، الذي بعث مسرور الخادم للوقوف على حقيقة أمرهما، وقال لهما ما سبب تماديكم في هذا الضحك، الذي لا ينسجم مع غضب الخليفة الرشيد عليكم وإنني أخشى عليكم مغبة إفراحكم فيه من غير سبب مبرر لكنهما فسرا له السبب بقولهما: إنهم غلبت عليهما إلى طعام السكباح لكن لم يكن لديهما ما يلبى رغبتهما وبعد جهد جهيد توفرت لهما اللوازم المطلوبة لإعداد ذلك الطعام، ولما نضج الطبع هم الفضل بإذن الله القدر غير أنه لم يكن من نصيبيهما لسقوط القدر وتبدل الطعام وهذا السبب هو الذي أثار الضحك لعلمهما بالحرمان منه بعدما كانوا يشتاهيانه^(١) أشد الاشتاء، وبعد أن وقف الخليفة الرشيد على المبرر بكى ثم أوصى مسرور الخادم بتزويدهما بمائدة يومية لائقة بهما.

تلك الحادثة تحمل المتتبّع على أن أصحاب الأخبار كانوا يحيطون بكل صغيرة وكبيرة ثم يعلمون الخليفة بها من جهة وتبهرن على الرّصانة والرّزانة التي يتسم بها الخليفة بعيداً عن السذاجة والسماجة التي لا تليق بأصحاب الهم العالية^(٢).

ومن الحوادث المتصلة بيعي ونجله (الفضل) ما رواه ابن المعتز ذاكراً أن الخليفة الرشيد وجّه مسرور الكبير إلى السجن لمعرفة ما هما عليه من حال، ولما وصل وجد الفضل ساجداً فهتف به إلا أنه لم يجب ودنا منه ورأه يغط في نوم عميق وواصل شأنه إلى الخليفة الرشيد الذي استفسر عن حالهما، كيف وجدت الفضل قال: كان في ثوب نمل، مع أن الموسم كان شتاء والبرد قد بلغ غايته في الشدة؛ فقال الخليفة خذ هذا الدّواج فألق به عليه دون إيقاظه، ففعل ما أمر به، ولما انبلج فجر صباح اليوم التالي زارهما سعيد

(١) ابن المعتز، طبقات الشعراء، تحقيق، عبد الستار أحمد فرج (القاهرة: ١٩٥٦م) ص ١٢٩.

(٢) الجهشياري، الوزراء، ص ص ١٩٧-١٩٨.

ابن وهب الشاعر الذي كان تناوله نعمهما، وينهل منها ما يشاء، ومن باب الإخلاص لهما ومشاطرتهما محتتها، بادرهما بالسؤال عن الدواج بقوله كنت عندكما بالأمس ولم ألحظه عندكما، فأخبره بالأمر متفائلاً بأن يكون ذلك علامة دالة على حسن رضا الخليفة عنهما^(١).

ولما كان الجود من الموجود هم الفضل بمنح سعيد ذلك الدواج إقراراً منه بالرضا عن جميل موقفه المتمثل في زيارتهما المتكررة غير أنه أبى لعدم حاجته إليه من جهة وخشيته من عدم موافقة السُّجَان على إخراجه، وعندما بلغ الأخذ والرد متنهما استقر الرأي على مفاتحة السُّجَان بالأمر، فكان ردّه عدم الممانعة على أن يكتب بالخبر إلى مسورو الخادم الذي أنهى الخبر بدوره إلى الخليفة الرشيد، الذي أطرق مليأً برهة ثم قال: ما وهبته ذلك الدواج يهديه إلى من شاء وهذا اعتراض صريح من الخليفة على ما أراد به الفضل^(٢).

يستخلص مما سلف أن صاحب الخبر لم يدع شيئاً ولم يغفل عن أمر أينما حدث وأياً كان سبب حدوثه إلا عجل بالكتابة عنه إلى الخليفة.

(١) ابن المعزت، طبقات، ص ص ٢٥٦-٢٥٨.

(٢) م.ن، ص ص ٢٥٦-٢٥٨.

الفصل الرابع

العيون والتّجسس

أولاً : تعریف العيون والتّجسس

أ - تعریف العيون

ب - تعریف التّجسس

١- التّجسس لغة

٢- مفهوم التّجسس

ثانياً : أ - العيون والتّجسس على العامة

ب - العيون والتّجسس على رجالات الدولة

ومنتسباتها

ج - العيون والتّجسس على مناصب الدولة

ثالثاً : وسائل أخرى لنقل الأخبار

أ - المراصد والمسالح

ب - التّنكر وأساليب أخرى

الفصل الرابع

العيون والتجسس

أولاً: العيون والتجسس

أ- تعريف العيون:

العيون عناصر قتالية فعالة وهي وإن لم تباشر القتال الفعلي ، فهي تقاتل العدو داخل صفوفه من خلال كشف نوایاه وخططه. ويتوقف على المعلومات التي تقدمها العيون عند وضع الخطط الحربية.

فالعيون عناصر عسكرية تؤدي خدمات لا غنى للقيادة عنها^(١). وبالنظر لأهمية العيون وخطوره واجباتهم لذلك وضعوا شروطاً ومواصفات لمن توكل إليه هذه المهمة وهي :

١ - أن يكونوا أوثق الجنود نصيحة وأكثراهم صدقاً^(٢) ، لأن المتهم لا ينفع بخبره وإن كان صادقاً.

٢ - أن يكون كثوماً للسر حافظاً له فيتجنب كل فلتة قد يفلت بها لسانه فينكشف ما يحاول أن يضممه أو يخفيه من سر^(٣).

(١) خالد جاسم الجنابي، تنظيمات الجيش العربي الإسلامي في العصر الأموي، ص ١٣٧.

(٢) الهرثمي، مختصر سياسة الحروب، تحقيق، عبد الرؤوف عوني، (القاهرة: ١٩٦٤م) ص ٢٤.

(٣) م.ن، ص ٢٢.

٣- أن تكون له خبرة وإلمام بجميع مناطق البلاد التي يتوجه إليها، وأن يكون عارفاً بلغة أهلها، كي لا يفطن له العدو وينكشف أمره^(١).

٤- أن يكون صبوراً على العقوبة والتعذيب إذا ظفر العدو به حتى لا يخبر بأحوال قواته وتنكشف نواحي الضعف فيها^(٢).

ب- تعریف التّجسس:

١- التّجسس لغة:

التّجسس لغة من الجسّ وهو اللمس باليد^(٣). وجس الشيء بيده يجسه جسًا: جسّه بيده ليتعرفه^(٤). وجس الشخص بعينه: أحدق النظر إليه ليستبينه ويستبينه^(٥) ومنه جاء جس الخبر والتّجسس الذي هو التفتيش عن بواطن الأمور^(٦).

وجس الخبر وتجسسه: بحث عنه وفحص^(٧) أو البحث عما يكتب

(١) خالد جاسم، تنظيمات الجيش، ص ١٣٧.

(٢) الهرثمي، مختصر سياسة الحروب، ص ٢٤. خالد جاسم، تنظيمات الجيش، ص ١٣٧.

(٣) الخليل أحمد الفراهيدي، كتاب العين، تحقيق، محمد المخزومي، إبراهيم السامرائي، (بغداد: ١٩٨٦م)، ج٦، ص ٥؛ الفيروز آبادي، القاموس المحيط، (بيروت: د.ت)، ج٢، ص ٢١١.

(٤) الرازى، مختار الصحاح، ص ١٠٤؛ ابن منظور، لسان العرب، ج٧، ص ٣٣٦؛ سعيد الجزائري، ملف الثمانينات عن حرب المخابرات، (دمشق: ١٩٨٨م)، ص ١٠-٩.

(٥) ابن منظور، لسان العرب، ج٧، ص ٣٣٦؛ سعد إبراهيم الأعظمي، جرائم التجسس في التشريع العراقي، (الموصل: ١٩٨١م)، ص ١١.

(٦) ابن منظور، لسان العرب، ج٧، ص ٣٣٧؛ الزبيدي، تاج العروس في جواهر القاموس، (بيروت: د.ت)، ج٤، ص ١١٩.

(٧) الزمخشري، أساس البلاغة، تحقيق، عبد الرحيم محمود، (القاهرة: ١٩٥٣م) ص ٦٠؛ الفراهيدي، كتاب العين، ج٦، ص ٥؛ الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ج٢، ص ٢١١.

عنك^(١). والتجسس بالجيم، والتحسّس بالحاء معاهم واحد، وأن كلاً منها يعني البحث عن الأخبار وتفحصها بصورة خفية، ومعرفة الأمور والبحث عنها وطلبها، فالتجسس بالجيم هو أن تفحص عنها بخبرك والتحسّس بالحاء أن تتسمع الأخبار بنفسك^(٢).

والجاسوس: هو صاحب السر كالناموس، غير أن الأول أكثر ما يقال لصاحب سر الشر بخلاف الثاني، إذ أنه يطلق على صاحب سر الخير^(٣).

والجاسوس: هو العين التي تتجسس الأخبار ثم يأتي بها، وذلك لأن عمله بعينه أو لشدة اهتمامه بالرؤيا واستغراقه فيها، فكان جميع جسده صار عيناً^(٤)، لذلك فإن كلمتي الجاسوس والعين متلازمان، ولا يمكن التمييز بينهما، لأن كلمة الجاسوس تستعمل للدلالة على العين الذي يرسل إلى صفوف العدو يتتجسس الأخبار^(٥).

٢- مفهوم التجسس :

يقترن مفهوم التجسس في أذهان الناس بأفعال الإفشاء والتبلیغ والذي يعد ماساً بالكرامة، فالجاسوس في نظرهم هو من يتبع عيوب الآخرين ليطلع

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، (بيروت: د.ت)، ج٦، ص ص ٣٣٢-٣٣٣.

(٢) ابن منظور، لسان العرب، ج٧، ص ٣٣٧؛ الزبيدي، تاج العروس في جواهر القاموس، ج٤، ص ١١٩؛ الزمخشري، الكشاف عن حقيقة التنزيل وعيون الأقاويل في وجود التأويل، (بيروت: د.ت)، ج٣، ص ٥٦٨؛ السهيلي، الروض الأنف في تفسير السيرة النبوية لابن هشام، (د.م: ١٩٧٨م)، ج٣، ص ٤٣.

(٣) الفيروزآبادي، قاموس المحيط، ج٢، ص ٢١١؛ الزبيدي، تاج، ج٤، ص ١١٩.

(٤) ابن منظور، لسان العرب، ج٧، ص ٣٣٧.

(٥) أحمد شتناوي وآخرون، دائرة المعارف الإسلامية، مادة جاسوس، مج ١٠، ص ٤٠١.

على أسرارهم^(١)، أو البحث عن العورات^(٢)، وذلك لما جاء من ذكر التّجسس في القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ مَأْمُوا أَجْتَبْنُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّكُمْ بَعْضَ الظَّنِّ إِنَّمَا وَلَا يَعْتَبِرُونَ لَا يَغْتَبُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَانْفَوْا اللَّهُ أَنَّ اللَّهَ تَوَابٌ رَّحِيمٌ﴾^(٣).

وبما أننا لا نقصد في تناولنا لهذا الموضوع، ذكر التّجسس بهذا الشكل الذي يؤدي إلى الوقوف على عورات الناس كأفراد، لأن ذلك نهى عنه الإسلام، ولا يدخل ضمن نطاق بحثنا، لأن مفهوم التّجسس تتبع أخبار المناهضين والأعداء بأية وسيلة كانت، منها استخدام الجواسيس وهذا جائز شرعاً^(٤)، بل واجب على الحكام الاهتمام به لمعرفة أخبار العدو حين يلزم الأمر^(٥).

وبذلك يكون التّجسس نوعاً من أنواع العمل الاستخباري هدفه البحث والحصول على المعلومات المتعلقة بشخص أو جماعة ما ونقلها بطرق سرية خاصة من مكانها إلى مكان آخر^(٦) إلى حيث مقر الدولة الإسلامية لتلافي الأخطار التي قد تقع بها.

وعرف بيرونبي التّجسس بأنه «ال فعل الذي يحصل عليه الشخص أو

(١) طنطاوي الجوهري، الجوهر في تفسير القرآن الكريم، (مصر: ١٣٥٠هـ)، ج ١١، ص ١٤٢. محمد جواد مغنية، التفسير الكاشف، (بيروت: ١٩٧٠م)، ج ٧، ص ١٢٠.

(٢) ابن منظور، لسان العرب، ج ٧، ص ٣٣٧. الزبيدي، تاج، ج ٤، ص ١١٩.

(٣) سورة الحجرات، الآية: ١٢.

(٤) العسقلاني، الفتح الباري، (القاهرة: ١٣٠٠هـ)، ج ٦، ص ٣٩.

(٥) الماوردي، الأحكام السلطانية، (بغداد: ١٩٨٦م)، ص ٧٢؛ ابن تيمية، السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية، تحقيق، محمد إبراهيم البنا ومحمد أحمد عاشور، (القاهرة: ١٩٧٠م)، ص ١٣٥.

(٦) الهيثم الأيوبي، الموسوعة العسكرية، (بيروت: ١٩٧٧م)، ج ١، ص ٢٥.

يحاول أن يحصل عليه بطريقة ما من معلومات سرّية، فيسلّمها لدولة أخرى»^(١).

ثانياً:

أ- العيون والتّجسس على العامة:

وقد شملت العيون الاهتمام بشؤون عامة الناس ومراقبتهم ونشر العيون بين ظهارنيهم لجمع الأخبار عنهم، لأنّ عامة الناس تشتمل على شرائح واسعة لها شؤونها وشجونها الخاصة بها، ولا بد لل الخليفة من الإللام بها، ليفكر فيما عساه فاعلاً في مقبل من الوقت، حين تدق ساعة العمل بمضمون ما تناهى لديه من ذلك الرصيد، ما روي عن الخليفة الرشيد وما حصل مع الطبيب (جبرائيل بن بختشيوع)^(٢) الذي يروي محتواه، انه كان يدخل على الخليفة يومياً وقت الغداة، لمعرفة ما كان منه في سابق ليلته مع جواريه وما عمل في مجلسه وساعات جلوسه، وبعد استيفاء كفایته من الاستماع إلى المعلومات من الخليفة الرشيد، كان ينتقل إلى دور مسمى لل الخليفة استجابة لسؤاله عن أخبار وأحوال الرعية العامة، فيبدأ جبرائيل بسرد ما يحمله من الأخبار في جعبته لل الخليفة^(٣) وبعد الاستماع كان يفرز بعضها عن بعض ويهمل ما لا ضرر من ورائها، وأما ما يستشف فيه شبح الضرر فيتخذ بشأنه الحيطة والحذر وذلك عام ١٩٣ هـ / ٨٠٨ م^(٤).

Pierre Hugueny: Droit Penal étude procédure pénal militaires, Paris, 1940, (١) p.760.

(٢) ابن أبي أصيبيع، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، (القاهرة: ١٨٨٢م) ج١، ص ١٢٥. رمزية الأظرفجي، الحياة الاجتماعية في بغداد منذ نشأتها حتى نهاية العصر العباسي الأول، (بغداد: ١٩٨٢م)، ص ١٠١.

(٣) الطبرى، تاريخ، ج٨، ص ص ٣٤٢-٣٤٣.

(٤) ابن الأثير، الكامل، ج٥، ص ١٢٩.

وفي سياق الحديث عن أخبار العاًمة ، تذكر رواية تأريخية مفادها ، رفع إلى الخليفة الرشيد خبر عن رجل من بقايا الأمويين في دمشق معروف بكثرة المال ، وعظمة الجاه وكرم الضيافة وإجزاء العطاء فعظم أمره على الخليفة الرشيد ، وأرسل منارة في طلبه والمجيء به من دمشق إلى مركز الخلافة . وبعد إظهار السمع والطاعة نفذ ما أنيط به ، وحين اقترب من مشارف الكوفة ، تلقى خبرهما الجواسيس المنتشرون هنا وهناك^(١) وأسرعوا إلى الخليفة الرشيد وأخبروه بعودة منارة ومعه الرجل الأموي الذي لم يلهم لسانه إلا بقراءة القرآن الكريم والإكثار من التسبيحات ، وما هو إلا وقت حتى وقف بين يدي الخليفة ، ولما أمعن النظر في حاله ، وأمعن في قراءة ملامحه قال : ما هذا إلا رجل محسود على النعمة ، ومكذوب عليه ، ثم أسف على إزعاجه وتروعه أهله ، وأمر منارة بإعادته إلى المكان الذي جاء فيه منه ، ففعل ما أمر به الخليفة الرشيد^(٢) .

توالصلت عمليات بث العيون والأرصاد في صفوف عامة الناس ، ففي ز من الخليفة المأمون ، خيمت على الناس الفتنة ودب سعار الاضطراب في كل مكان ، لا سيما بعد قتل الخليفة الأمين ، وما كان من علي بن موسى بن جعفر بن محمد الرضا ، إلا أن حمل إلى الخليفة ما استطاع إليه سبيلاً من الأخبار ليكون على علم بها ، ويرجح بعض المؤرخين سبب الفتنة كان بسبب قيام (الفضل بن سهل) بتستره على المعلومات وحجبها عن الخليفة عام (٨١٧هـ / ٢٠٢م)^(٣) .

(١) الحموي ، ثمرات الأوراق ، صححه وعلق عليه ، محمد أبو الفضل إبراهيم ، (القاهرة : ١٩٧١م) ، ص ص ٤٥٤-٤٥٧.

(٢) الهرئمي ، تاريخ سياسة الحروب ، تحقيق ، عبد الرؤوف عونى (القاهرة : ١٩٦٤م) ص ٣٤ ؛ خالد جاسم الجنابي ، تنظيمات الجيش العربي الإسلامي في العصر الأموي (بغداد : ١٩٨٤م) ، ص ١٣٩ . نه به ز مجید أمین ، الاستخبارات في عهد صلاح الدين ، رسالة دكتوراه ، (جامعة صلاح الدين : ١٩٩٧م) ص ٢١٧.

(٣) مسکویه ، تجارب ، ج٦ ، ص ٤٤١ . ابن العبری ، تاريخ مختصر ، ص ١٣٨ .

وفي نفس الفترة كان الخليفة المأمون يستعين بمحمد بن الخليل الذي كان يتردد عليه كثيراً، لأنه كان يستطرف به ويأنس بحديثه، وغالباً ما كان يسأله بقوله ما تقول العامة، وعمّاذا يتحدث الناس فيخبره بكل ما سمعه من قبل مقدمه^(١).

إن قائمة التجسس طويلة وروادها المتعددة تصب في مصبٍ واحد، بالرغم من اختلاف منابعها ومصادرها، ألا وهو الأخبار والأسرار للاستفادة منها، حينما تحين ساحة جني الثمار، ومن هذه الأغراض التجسس على العامة، رواية تاريخية مجملها متجلسة في أن أحمد بن طولون بنى جاماً كبيراً من الكنز الذي عثر عليه، ولدى اكتمال البناء أقدم على ما يثير بعض الغرابة في النفوس إذ أمر جواسيسه بجمع المعلومات عن ردود أفعال الناس وأقوالهم في بناء الجامع، فأنبأه الجواسيس بجميع الآراء التي كانت تطرح أثناء التجمع في ذلك الجامع، منها برأيهم صغر المنبر، وعدم وجود السارية والميضاء، وكلما تلقى رأياً من آراء الناس عن طريق جواسيسه أسرع إلى تنفيذه بتأسيس مبرره على الدعائم المنطقية التي يستعصي على الناس الخوض في دحض حججه المستندة إليها^(٢).

ومن أمثلة التجسس على العامة، رواية فحواها، أن المعز لدين الله ث في الأرض جواسيسه عام (٩٧٥هـ / ١٥٦٥م) ثم استغفل الناس لحملهم على الاعتقاد بأنه الخليفة المهدي الذي يملك الدنيا، وبنى استغفاله على الاحتجاب عن الأنوار ردحاً، ثم فاجأ الناس بالظهور ليحقق الفكرة التي أشاعها فيهم، وقد بلغ بالناس رسوخ الاعتقاد بكونه المهدي أنهم إذا رأوا طائراً، خرّوا له سجداً لظنهم في أن روح المعز فيه، وقد خلق هذا الفعل جواً

(١) ابن طيفور، تاريخ، ص ١٣١.

(٢) القلقشندي، مآثر الإنابة في معالم الخلافة، تحقيق، صلاح الدين المنجد، (بيروت: د.ت)، ج ١، ص ٢٥٨.

نفسياً مشحوناً بالإجلال للمعز مؤسسين سلوكهم على الارهاسات التي تستمد قوتها من الجواسيس الذين كانوا يوفون المعز بما يقوله ويفعله الناس أولاً بأول^(١).

وفي مجال اعتماد الخلفاء على العيون للتزود بأخبار عن عامة الناس، ما جرى في عام (١٠٠٤ هـ / ٢٩٥ م) إذ دخل المعز إلى القاهرة، واحتجب عن الناس في القصر يتلذذ بالنعم الوفيرة، ويستمع بلاه الغزيرة ملتهماً ما لذ وطاب من أجود أنواع الطعام، وفوق ذلك طلاء الوجه بالدهان، طمعاً في زيادة الرونق والبهاء، وبينما هو على تلك الحالة من الترفة والترفيه، أطلق عيونه في أرجاء القاهرة، للإنتصات على ما يتناوله العامة من الأقوال عنه، والعودة بما نقلت به الكنانة من معلومات ثم إفراها بين يديه ليتصرف وفق ما تملية عليه^(٢).

وفي سياق إيراد أخبار التجسس على العامة، لا بأس من ذكر ما ذهب إليه أحد المؤرخين بصدق الكلام على الحاكم بأمر الله، إذ قال ما مجمله إن الحاكم بأمر الله، كان كثير الانتقال من حال إلى حال، ويميل النسج على نسق واحد على أي منوال، من ذلك أنه اقتدى بآثار آبائه التي ألفاها مثل ارتداء الثياب الفاخرة، وركوب السروج ثم العدول عن ذلك إلى التقىض، وكان قد نشر الجواسيس من كلا الجنسين في طول البلاد وعرضها، وكانت الأخبار تنهال عليه انهيالاً، بحيث لم يكن يخفى عليه رجل ولا امرأة من حواشيه ورعايته وذلك عام (٤١١ هـ / ١٠٢٠ م)^(٣).

إن آفاق بث العيون التي توسيع أرجاءها وترامت أطرافها، لم تستثن ظاهرة أو ناحية من نواحي الحياة المتشعبه إلا وقد أحاطت بها، واكتنفت

(١) ابن سبط الجوزي، مرآة الزمان، ص ١٩٣.

(٢) ابن الأثير، الكامل، ج ٧، ص ٦٧.

(٣) الحنبلي، شذرات، مج ٢، ج ٣، ص ١٩٤.

جوانبها ل تستقصي عنها الأخبار والمعلومات من ذلك حقل الإداريين والشعراء والأتقياء الذين لم ينجوا هم كذلك من الانحسار ضمن دائرة رصد الأخبار، ففي زمن الخليفة الرشيد كان الفضل بن يحيى ضليعاً في الأدب متضللاً في العلم والفقه متفتناً في تربية الأولاد، ولرسوخ قدميه في حقل التأديب والتربية، كلفه الخليفة بتولي أمر نجله الأمين^(١)، وتعهد بعودة النصر بستقي الأدب والعلم والخلق وحسن التربية، ومع تأكده من بالغ عنایة المؤدب بالمتآدب تلبية لطلب ووفاء بالأمانة، فإنه وضع عليه العيون ليكون على بيّنة مما يلقى على ولده، ومن يسامره منبني هاشم من أهل الأدب وغيرهم من ذوي الخبرة في هذا الحقل، كي يتجنب ابنه ضلال المؤثرات التي قد تنسحب آثارها عليه يوم يستقيم عوده وتصلب شكيمته لأن العود غير المستقيم يأبى ظله الاستقامة أيضاً^(٢).

ومن الفعاليات التي ظهرت فيها بصمات العيون بجلاء ما أورده، يزيد ابن مزيد من حوار ما جرى بينه وبين الخليفة الرشيد، حول أبيات من الشعر بلغت مسمعه وأثارت حفيظته، إذ لما مثل بين يدي الخليفة الرشيد سأله عن قائل هذان البيتين^(٣):

وَمَنْ يَفْتَقِرُ مِنَا يَعْشُ بِحَسَامِهِ وَمَنْ يَفْتَقِرُ مِنْ سَائِلِ النَّاسِ يَسْأَلُ
 وَإِنْ يَكُ جَدُّ الْقَوْمِ فَهُرُبْنَ مَالِكٍ فَجَدِّي لِجِيمِ قَرْمِ بَكْرِ بْنِ وَائِلَ
 وَهِنْ فَرَغُ مِنْ إِنْشَادِهِمَا أَقْسَمُ يَزِيدَ بْنَ أَكْرَمَهُ وَأَشْرَفَهُ بِالخِلَافَةِ، عَلَى
 أَنَّهُ يَجْهَلُ قَائِلَهُمَا، فَرَدَّ عَلَيْهِ لَا وَالَّذِي أَكْرَمَنِي وَشَرَفَنِي بِالخِلَافَةِ «إِنَّكَ لَتَعْرِفُ

(١) الطبرى، تاريخ، ج٨، ص ص ٢٩٥، ٢٩٦؛ ابن الأثير، الكامل، ج٦، ص ص ١٧٦ - ١٧٧.

(٢) الطبرى، تاريخ، ج٨، ص ص ٢٩٥، ٢٩٦؛ ابن الأعثم الكوفي، فتوح، مج ٨، ص ص ٢٧٠ - ٢٧١.

(٣) الأصفهانى، الأغانى، مج ١٩، ص ص ٣٨ - ٣٩.

قائلهما : ثم عاتبه قائلاً : أتظن يا يزيد إذا أوطأتك بساطي وشرفتك بصنعيتي
أني أحتملك على هذا؟ أو تظن أني لا أراعي أمورك وأتقاصاها وتحسب أنه
يخفى علي شيء منها؟ والله إن عيوني لعليك في خلوتك ومشاهدك^(١) ثم
وصف الشاعر بكونه جلفاً من أجلاف ربيعة وخارج على سلامة الطور والبشر
إ بالحاقه قريشاً بربيعة، وألح على إحضاره، وبعد انصراف يزيد عن مقام
ال الخليفة أخذ يبحث عن قائل البيتين، إلى أن وجد شفاء غليله في رجل
يسمى بكر بن النطاح، أحد أصحابه فدعاه وأنذره بما يخترن في صدر
ال الخليفة الرشيد من سخط عليه، وأمره بعدم الظهور ما دام الخليفة حياً،
وأسقط اسمه في الديوان، والتزم الشاعر بما أملى عليه صديقه إلى أن
توفي الخليفة الرشيد، وعندما ذاع نعي الخليفة في الآفاق مزق الشاعر
حجب الاختفاء وخرج من مخبئه^(٢).

وفي عام (٢٠٢ هـ / ٨١٧ م) أشارت المصادر إلى وجود الجواسيس على
الفقهاء وأهل الدين، إذ يذكر أن إبراهيم بن المهدى ظفر بسهل سلامة
الأنصاري، فحبسه وبالغ في معاقبته، ويعود سبب حبسه إلى قيامه بالأمر
بالمعرف والنهي عن المنكر ونشر الفضيلة بين أهالي مدينة السلام، فالتف
حوله جمع غفير من المسلمين^(٣)، وكان من بين الملتفين عدد من العيون
المكلفة بمراقبته ونقل الأحاديث والأحداث التي تجري في مجالسه إلى مقام
ال الخليفة، وحينما حان وقت الحساب أوقعته العيون في الفخ وأسلمته إلى
إسحاق بن الهادى الذى استجوبه عما كان يشير به الناس فلم يظفر منه
 بشيء، وقال إنما كانت دعوة عباسية لأنها مبنية على الكتاب والسنة،
 وأردف قائلاً : إنه ما زال على دعوته ويدعو إليها، حتى هذه الساعة، ولم

(١) م.ن، مج ١٩، ص ص ٣٨-٣٩.

(٢) الأصفهانى، الأغاني، مج ١٩، ص ص ٣٨-٣٩.

(٣) الطبرى، تاريخ، ج ٨، ص ص ٥٦٢-٥٦٣؛ مسكويه، تجارب، ج ٦، ص ٤٤٠.

يقبل إسحاق منه ذُكْر وطلب منه أن يخرج إلى الناس ، ويقول لهم إنما كان يدعوه إليه باطلًا ، فخرج ولم يصف دعوته بما طلب منه ، فضرب على وجهه وأرسل إلى المدائن للمثول بين يدي إبراهيم بن المهدي لمعاقبته^(١) .

بــ العيون والتجسس على رجالات الدولة ومنتسبيها:

لقد توغلت آثار الجاسوسية في النفوس توغلًا يثير العجب ، ومن ذلك لجوء الوالد إلى الاستعانة بالجوايس لمعرفة نوايا ولده وكذلك اعتماد الولد الدَّس على والده لتحقيق أغراضه.

ففي عام (١٦٩ هـ / ٧٨٥ م) خرج الخليفة المهدي إلى بعض المنازل مع أهله وبنيه ، وكان قد عزم على استخراج ابنه عبد الله ، إِلَّا أنه أهمله وتركه ، وحين أحس ابنه بذلك ، غالٍت مراجل الحقد في نفسه ، فكلَّف بعض الجواري ، المتمكنات بدسِّ السم في طعامه وقطع لهن عهداً على بذل أموالاً طائلة لهن ، إن نجحنا في المهمة ، وتمكنت إحداهن من إمرار الخطة عليه ، وذلك باسمه الذي سرى في أحشائه ومات بسيبه^(٢) .

وفي عام (١٩٤ هـ / ٨٠٩ م) ، اختار الفضل بن سهل قواماً للمهمة بناءً على زيادة الثقة بهم ، ودسَّهم بين الموالين للخليفة الأمين ، ولما هم الخليفة بخلع أخيه المأمون ، وبعث الخليفة الأمين الفضل بن الربيع إلى أحد هؤلاء الرجال ، ليشاوره في الأمر ، لكن الرجل عظم عليه أمر نقض العهد للخليفة المأمون ، واستعظام شأنه واستقبح كل غدر أو مبرر لهذا الفعل غير المستساغ بالقياس إليه^(٣) .

لقد أخذ الخليفة المتكَلَّب البيعة لأولاده عام (٢٣٥ هـ / ٨٤٩ م) وقدم المعتر على المتصر الذي كان أسن من أخيه المعتر ، فدسَّ على والده من

(١) مسکویه ، تجارب ، ج٦ ، ص ٤٤٠؛ ابن الأثير الكامل ، ج٥ ، ص ١٩١.

(٢) الطبرى ، تاريخ ، ج٨ ، ص ٢٠٦؛ الجهشيارى ، الوزراء ، ص ١٠٧.

(٣) الطبرى ، تاريخ ، ج٨ ، ص ٣٨٥؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج٥ ، ص ١٤١.

قتله غيلة لمجرد تقديم أخيه عليه فيأخذ البيعة. وحين هم المدسوس بقتله ثارت ثائرة الوزير، وانطلاقاً من الإخلاص له رمى بنفسه عليه، لكن ذلك الفعل لم ينقذ الخليفة بل طواهما القتل معاً، فدفنا في قبر واحد استناداً إلى الروايات التاريخية^(١).

ومن الجلي أن بث العيون بين الصنوف كان يأتي بثمار حلو مذاقها، وبنتائج محمودة محببة، لذلك استنجد بالعيون كل فريق لمعرفة الفريق المرتات في نوایاه، كوضح الخليفة العيون على العسكر والقادة على القاعدة، وما شاكل ذلك، ففي سنة (٢٨٧هـ / ٩٠٠م)^(٢)، أخذ الخليفة العباسي المعتصم^(٣) بالبحث عن وصيف الخادم لمعاقبته على سوء تصرف منه، ثم رحل صوب المصيصة^(٤) لنفس الغرض، وبينما هو يبحث الخطى نحو هدفه، وإذا بالعيون أخبرته بتوجه وصيف الخادم نحو عين زربة^(٥)، فسأل أهل الخبرة عن أقصر السبل المؤدية إلى هناك، وبعد حين قبض عليه، وسلم إلى مؤنس الخادم وهو يومئذ صاحب الشرطة، وهكذا لعبت العيون دورها في القبض على المناهض للخليفة وتسليمه إلى العدالة لنيل استحقاقه من الجزاء^(٦).

(١) الطبرى، تاريخ، ج ٩، ص ١٧٥ وما بعدها؛ القلقشندى، مآثر الإنابة، ج ١، ص ٢٢٨.

(٢) الطبرى، تاريخ، ج ٨، ص ص ٤٤٢-٤٤٣. المسعودى، مروج، ج ٣، ص ٤٠٩.

(٣) المعتصم بالله، هو أبو العباس أحمد بن الأمير الناصر لدين الله، أبي أحمد، طلحة بن جعفر المتوكّل على الله، بويع للخلافة سنة (٢٧٩هـ / ٨٩٢م)، انظر: ابن العمري، الأنباء في تاريخ الخلفاء، ص ١٤٠.

(٤) المصيصة: وهي مدينة على شاطئ جيحان من ثغور الشام بين أنطاكية وبلاد الروم.
انظر: ياقوت، البلدان، ج ٥، ص ١٤٥.

(٥) عين زربة: وهو بلد بالشغر من نواحي المصيصة. انظر: ياقوت، البلدان، ج ٤، ص ١٧٧.

(٦) الطبرى، تاريخ، ج ١٠، ص ٧٩.

لقد اعتمد الخلفاء العباسيون على وسائل متعددة لحماية الخلافة من المخاطر، ومن تلك الوسائل بث الموالين لهم في صفوف المرتب فيهم، للوقوف على ميلولهم وأرائهم والمذاهب التي يذهبون إليها، فقد لجأوا في كثير من الأحيان إلى دس من يأتمن بأوامرهم من الأنصار بين الذين يشك في ولائهم، كما جرى لأبي سلمة الخلال أول وزير استوزره العباسيون، ولم يطل به المكوث في وزارته حتى دفع الخليفة أبو مسلم الخراساني إلى قتله متوهماً من أنه ميال إلى آل علي^(١). إذ دسه في مجلسه يتربّط أفعاله ويلتقط أقواله إلى أن حانت ساعة التنفيذ، فقتل برغم كونه فاضلاً لدى الخليفة السفاح لحسن معاشرته وطيب مسامرته^(٢).

وفي عام (١٣٢هـ / ٧٤٩م) قدم أبو جعفر المنصور على أبي مسلم الخراساني وسايره عبيد الله الأعرج بن الحسين الأصغر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب رض بمعية سليمان بن كثير الذي قال له، يا هذا إننا نرجو إتمام أمركم، فإذا شئتم فادعونا إلى ما تريدون، وظن (الأعرج) في أنه مندس من قبل أبي مسلم الخراساني، وخاف منه وأمسك عن القول^(٣).

ومن الأمثلة على استثمار العسكريين للعيون ضد مثيلهم ما حدث عام (١٦١هـ / ٧٧٧م)^(٤) ففيه غزا الصائفة (ثمامنة بن الوليد) فنزله دابق^(٥)، وعندما تناهت الأخبار إلى عسكر الروم ثارت ثائرتهم وحملت العيون

(١) الطبرى، تاريخ، ج٧، ص ص ٤٥٠-٤٥١؛ ابن كثير، البداية، ج١٠، ص ٥٦.

(٢) ابن قتيبة الدينوري، الإمامة، ج٢، ص ١٢٥؛ الطبرى، تاريخ، ج٧، ص ٤٥٠.

(٣) ابن قتيبة، الإمامة، ج٢، ص ١٢٥؛ الطبرى، تاريخ، ج٧، ص ٤٥٠؛ ابن الأثير، الكامل، ج٤، ص ٣٣٦.

(٤) الطبرى، تاريخ، ج٨، ص ٤٤٣؛ المسعودى، مروج، ج٣، ص ٤٠٩.

(٥) دابق: قرية قرب حلب من أعمال عزاز، بينها وبين حلب أربعة فراسخ، انظر: ياقوت معجم البلدان، ج٢، ص ص ٤١٦.

أخبار تحركات العسكر الرومي نحو المسلمين بيد أن ثمامنة لم يحفل بما سمع وركن إلى الاغترار، واستغل الروم تلك الفرصة، فهاجموا المسلمين وأصابوا منهم عدداً غير يسير^(١)، والنتيجة الملفتة للنظر، هي أن (ثمامنة بن الوليد) لم يتتفع بنشاطات العيون ولم يحسن توظيف المعلومات التي كانت تأتيه من قبل هؤلاء، وترتبط على ذلك بلغ الضرر الذي نجم عن مداهمة الخطر، ولم يكن القائد مستعداً للمنازلة والمطاولة بسبب إهماله دور العيون^(٢).

لقد ذهب عدد غير يسير من الخلفاء والوزراء ضحية الدس والاندساس، ففي عام (٨١٧هـ / ٢٠٢م) قتل الخليفة المأمون الوزير الفضل بن سهل المعروف بذى الرئاستين، ويريوي ابن الأحدل، أنه حين أغمض الحنف ناظريه بفعل عملية الدس^(٣)، وجد في تركته ما يرتقي إلى مستوى التنبؤ على غرار الذين اشتهروا بصدق بعض تنبؤاتهم مثل نوسترادموس، ومن على شاكلته، إذ قال في تنبئه أنه سيموت بين الماء والنار بعد بلوغه الثامنة والأربعين وحين دخل عمره المرحلة التي حددتها دسّ عليه خال الخليفة المأمون «جماعة فقتله في الحمام»^(٤) ومما هو معلوم أن النار والماء كلاهما من لوازم الحمام وقتله فيه يحقق تنبؤه بلا غموض.

ومن أبجديات المنطق التي تقوم عليها سلامة النتائج أن الجيش هو السُّور المنيع للدولة والسيّاج الشائك الذي يدمي أعين الأعداء، وهو العمود الذي ترتكز عليه حماية الدولة قديماً وحديثاً. ومن هذا المنطلق مد الخلفاء

(١) الطبرى، تاريخ، ج. ٨، ص ١٣٦؛ البيهقى، المعافى، ج. ١، ص ص ٢٣١-٢٣٢؛ ابن الأثير، الكامل، ج. ٥، ص ٦٠.

(٢) الطبرى، تاريخ، ج. ٨، ص ١٣٦؛ ابن الأثير، الكامل، ج. ٥، ص ٦٠.

(٣) الطبرى، تاريخ، ج. ٨، ص ٥٦٤-٥٦٥.

(٤) الحنبلى، شذرات، مج ١، ج ٢، ص ٤.

هيمنتهم على الجيش، في معسكراته وخارجها أثناء السُّلْم والحرب عن طريق الجواسيس بين صفوفه لمعرفة خبایاہ. وإن كان للعدو لتشتیت أهدافه^(۱).

وقد ذكر أن الخليفة الأمين أرسل عدداً من القواد لمحاربة طاهر بن الحسين عام (١٩٦هـ / ٨١١م)، وكان أحد القواد في خانقين حينئذٍ وهو عبد الله بن قحطبة، ودسَّ الخليفة الأمين عدداً من الجواسيس في معسكر طاهر مهتمهم بإطلاق الأراجيف والإشاعات لتشييط عزائم جنوده، ومن تلك الإشاعات، أن الخليفة قد أغدق العطايا على جنوده وأكثر لهم الأرزاق وشملهم الهبات السخية، فأثرت تلك الإشاعات على معنويات جيش طاهر ابن الحسين^(۲).

وفي عام (٢٢٢هـ / ٨٣٧م) أقبلت الخرمية^(۳) في ثلاثة كراديس^(۴) على سور خندق الأفشنين وهم يطلقون صرَاخهم العالي إلى عنان السماء لإرعب

(۱) أحمد عبد العزيز محمود، الأمان في بغداد خلال العصر العباسي الأول، ص ١٨٩.

(۲) الطبرى، تاريخ، ج ٨، ص ص ٤١٨ - ٤٢٠؛ ابن الأثير، الكامل، ج ٦، ص ٣٢٤ وما بعدها.

(۳) الخرمية: وخرم، لفظ أعمجى يقال لهم الخرمدينة. وهم يدينون بما يريدون ويستهون، وإنما لقبوا بذلك لإباختهم المحرمات من الخمر وسائر اللذات ونكاح المحارم و فعل ما يتلذذون به، مشابهين المانوية في أمرهم. انظر: الطبرى، تاريخ، ج ٨، ص ٣٨؛ السمعانى، الأنساب، ج ٥، ص ٩٦؛ ابن الجوزى، تلبیس إبليس، (بغداد: ١٩٨٣م)، ص ١٠٥؛ الدينوري، الأخبار الطوال، تحقيق عبد المنعم عامر، (القاهرة: ١٩٦٢م)، ص ص ٣٩١ - ٣٩٢؛ عبد القاهر البغدادي، الفرق بين الفرق، (بيروت: ١٩٧٧م)، ص ص ٢٥١ - ٢٥٢.

(۴) نعمان ثابت، الجندي، ص ص ٢٢٩ - ٢٣١.

Reuben Levy, The Social Structure of Islam Cambridge: 1965), p.434.

موفق سالم نوري، العلاقات العباسية البيزنطية، ١٣٢-١٤٧هـ / ٨٦١-٧٥٠م، (بغداد: ١٩٩٠م)، ص ٩٣.

جيشه، لكن الأفشين منع جنده من النطق ولو بكلمة واحدة، وظلوا لائذين بالصمت بضع ليال، والخرمية على ظهور الجياد يركضون بها محدثين الصخب والجلبة والضوضاء، بقصد إثارة كل من خلف السور، لكنهم لم يظفروا بما أرادوا، وفي تلك الأثناء هيأ لهم الأفشين أربعة كراديس من الفرسان والمشاة. وكمن لهم في الأودية التي تعتبر أمنع المكامن الموقعة بغرض التصدي للخصم، فضلاً عن بث العيون هنا وهناك، بغية اصطياد الأنباء والانتفاع بها قبل التقاء الجمعين، وقد جاءت النتيجة ملبيّة للأهداف التي رسمت من أجلها الخطة، وذهب الصراخ والضجيج كالهباء المنبعث في الهواء^(١).

ومن الواضح أن التجسس كان خلال العصر العباسي ظاهرة مائلة للعيان يستعين بها البعض على البعض الآخر، من ذلك ما أداه الجواسيس تجاه الأفشين قائد الخليفة المعتصم، ففي عام (٨٣٦ هـ / ٢٢٢ م) كتب ذلك القائد إلى ملوك أرمينية وبطارقتها يخبرهم بأن بابك الخرمي قد لاذ بالفرار وهو في طريقه صوب أرمينية، وطلب من كلِّ منهم حماية المناطق الخاضعة لنفوذه، وأن يجعل إلقاء القبض عليه، نصب عينيه وبعد فترة حمل الجواسيس إلى الأفشين خبر اختفائه في وادي كثير الزرع والماء، يتذرع اجتيازه لمنعه وكثرة الأشجار ذات الأغصان المختلفة والمتشابكة ووفرة المياه المتدفقة التي تخلق حاجزاً طبيعياً يصعب على الخيل اختراقها^(٢).

وقد أكد الأفشين على عدم قتل الجواسيس الذين كانوا يقعون في الأسر أثناء خوض غمار المعركة مع بابك الخرمي، وكان يحاول استمالتهم عن طريق إغداق الأموال عليهم، بعد السؤال عن المقادير التي كانوا يستلمونها منه، وعند الحصول على الإجابات كان يغريهم ببذل ما

(١) الطبرى، تاريخ، ج، ٨، ص ١٣٦. ابن الأثير، الكامل، ج، ٥، ص ٦٠.

(٢) الطبرى، تاريخ، ج، ٩، ص ٤٥. مؤلف مجهول، العيون، ج، ٣، ص ٣٨٣.

يُفوق القدر الممنوح لهم من قبل بابك الخرمي^(١) ويقول للجاسوس: «كن جاسوساً لنا»^(٢).

ومن الأدلة الأخرى على استفحال ظاهرة التجسس في المعسكيات، ما يروى عن أن رافع بن هرثمة أنه توجه إلى جرجان^(٣) لازحة محمد بن زيد عنها عام (٨٨٨هـ / ٢٧٥م) وعند إحساسه بالخطر الداهم تزحزح محمد بن زيد عنها^(٤) واتجه نحو استرباذ^(٥) فتابعه رافع إلى هناك وعندما أدرك أن الخطر قادم غادرها باتجاه سارية، وهكذا كان نصيب محمد بن زيد الحل والارتحال متقدلاً من مدينة إلى أخرى، وحظ رافع متمثلاً في تعقبه عسى أن ينال الصيد الثمين، وعندما استقر به المسير في (شالوس)^(٦)، انقطعت أخباره، فأرسل رافع جاسوساً يستطلع له خبره، ثم غادر محمد بن زيد نحو الدليل، ولما وطأت قدماه تلك الأرض، جد رافع في طلبه وضيق عليه الخناق بقصد الظفر به والانتقام منه، وحين توفي الخليفة الموفق عام (٨٨٩هـ / ٢٧٦م) عاد إلى الري^(٧) وأقام بها، بعد أن نجا من الموت^(٨).

(١) ابن أعثم الكوفي، الفتوح، مج ٣، ص ٣٤٨-٣٤٩. ابن الأثير، الكامل، ج ٦، ص ٦٥.

(٢) الطبرى، تاريخ، ج ٩، ص ١٣.

(٣) جرجان، مدينة مشهورة عظيمة بين طبرستان وخراسان، انظر: ياقوت، معجم البلدان ج ٢، ص ١٤٩.

(٤) الطبرى، تاريخ، ج ٩، ص ١٣. مسکویه، تجارب، ج ٦، ص ٤٧٤.

(٥) استرباذ، بلدة كبيرة مشهورة وهي من أعمال طبرستان بين سارية وجرجان، انظر: ياقوت، معجم البلدان، ج ١، ص ١٧٤-١٧٥.

(٦) شالوس، مدينة بجبال طبرستان وهي أحد ثغورهم، بينها وبين الري ثمانية فراسخ. انظر: ياقوت، معجم البلدان، ج ٣، ص ٣١١.

(٧) الري، مدينة مشهورة بينها وبين نيسابور مائة وستون فرسخاً، انظر: ياقوت، البلدان ج ٣، ص ١١٦.

(٨) الطبرى، تاريخ، ج ٩، ص ١٣. ابن الأثير، الكامل، ج ٦، ص ٦٥. ابن خلدون، تاريخ، مج ٣، ص ٢٥٨-٢٦٠.

ومن السّهام التي ما تزال موجودة في الكنانة الخاصة بالتجسس سهم تمثل في عملية تجسسيّة ارتكزت إلى الكذب، فأودت برأس من الرؤوس التي طالما بحثت عن سبيل للنجاة من الهلاك، وملخص قصة هذه العملية نشير إليه اقتباساً من رواية تاريخية عام (٩٥٧هـ / ١٩٥٧م) موجزها أن ياقوت الحاجب^(١) عجز عن مجابهة أبي عبد الله البريدي^(٢)، ولما أدرك أصحابه مبلغ ضعفه أخذوا يلتحقون بعسكره طائفة بعد أخرى، واستمر الحال على هذا المنوال إلى أن بقي عدد ضئيل لا يزيد عن ثمانمائة رجل^(٣)، وعندها ألقى الخليفة الراضي القبض على ابن ياقوت وسجن فترة ثم أطلقه للحق بأبيه، وعند التقائه بوالده أشار عليه بالعودة إلى مدينة السلام، فإن فعل ذلك فلسوف يظفر ببغيته هناك. لكنه أبي فاغتاظ الولد من والده، والتحق بخصمه البريدي، الذي أكرمه وضمن حمايته، ثم خاف البريدي من انقلاب أنصار ياقوت الملتحقين به يوماً فوجّه إليه كتاباً جاء فيه، إن الخليفة الراضي يأمره بعدم تركه يقيم حيث هو، بل عليه اختيار أمرين لا ثالث لهما، أولهما الاستسلام للخليفة، وثانيهما الرضى بتولية بعض الأعمال في بلاد الجبل محذراً إياه من رفضه لأمره^(٤).

ولما تأكد ياقوت مما وطن البريدي العزم عليه، وتسير العساكر نحوه أرسل جاسوساً لاصطياد الأخبار، غير أن البريدي ظفر به قبل تحقيق مرامه وأغراه بمقادير من المال، على أن يتتجسس لصالحه ضد ياقوت، وقد فعل ذلك، وأوقع ياقوت في حيلة دبرها البريدي تمثلت في مخادعته، وذلك

(١) ياقوت كان حاجاً أيام الخليفة المقتدر بالله سنة (٩٥٧هـ / ١٩٥٧م - ٩٣١هـ / ١٩٣١م).

انظر: ابن العمراني، الأنباء في تاريخ الخلفاء، ص ص ١٥٣، ١٥٩، ١٦٠.

(٢) أبو عبد الله بن البريدي كان عاماً على واسط أيام الخليفة المتقي (٩٤٠هـ / ١٩٤٠م -

٩٤٤هـ / ١٩٣٣م) ثم استوزره. انظر: ابن العمراني، المصدر السابق، ص ١٦٨.

(٣) ابن الأثير، الكامل، ج ٦، ص ص ٢٥٢-٢٥٣.

(٤) ابن الأثير، الكامل، ج ٦، ص ص ٢٥٢-٢٥٣.

بإيعاهه أن عسکر البريدي في مكرم^(١)، ولم يكف الأمر كذلك، ولما ورد ياقوت ومن معه من الجندي لم يجد مما قيل له وبعد وقوعه في الشرك بفترة قصيرة داهمه البريدي وقبض عليه، ولما ثبتوا من هويته قطعوا رأسه^(٢).

جـ- العيون والتجسس على مناوي الدولة:

لم يعجز الخلفاء من رمي شباكهم ونشرها بقصد مراقبة المعارضين لسلطتهم، فقد دسوا العيون في أرجاء شتى من المناطق الخاضعة للخلافة، وأخذوا عن طريقهم يتبعون مناهضيهم عن كثب، ففي عهد الخليفة أبي العباس السفاح، ازداد الوجل والخوف من نشاطات الأخوين محمد وإبراهيم ابني عبد الله بن الحسن، إذ كان محمد نسيطاً في بث الدعوة لنفسه في الحجاز والعراق والأحواز ومناطق أخرى^(٣)، لكن هذه الدعوة لم تحظ بالستر الكافي نظراً لكثره العيون المنتشرة هنا وهناك، وكانت على درجة عالية من التيقظ والتأهب للطوارئ، فإذا حصل ما يستوجب التحرك كانوا يسارعون إلى إعلام الخليفة به على الفور^(٤).

وفي زمن الخليفة السفاح حاول أبو سلمة الخلال^(٥) عقد الأمر لعبد الله بن الحسن، ممثل العلوين لاتفاقه بمزايا تجعله متقدماً على غيره كغزاره علمه، وروعته بيانه، وتمكنه من فن الخطابة الملهمة للعواطف

(١) مكرم، لم أثر له على ترجمته في المصادر.

(٢) ابن الأثير، الكامل، ج٦، ص ص ٢٥٢-٢٥٣.

(٣) ابن الأثير، الكامل، ج٥، ص ٢٤٥؛ ابن القوطي، الحوادث الجامدة والتجارب النافعة في المائة السابعة، تحقيق، مصطفى جواد (بغداد: ١٩٣٢م) ج١، ص ٩٩.
ابن خلدون، تاريخ، مج ٣، ص ١٨٧.

(٤) الطبرى، تاريخ، ج٧، ص ٦٢٣؛ ابن عبد ربه، العقد، ج٥، ص ٣٣٤.

(٥) أبو سلمة الخلال هو (حفص بن سليمان) مولى السبع يقال له وزير آل محمد. انظر:
الطبرى، تاريخ، ج٧، ص ٤٤٨.

والمشاعر ، فاستجاب لدعوة أبي سلمة دون الالتفات إلى تحذيرات جعفر بن محمد الذي أعلمته أن أهل خراسان ليسوا من أنصاره . كما أن أبو سلمة مخدوع ومقتول لا محالة قبل عقد الأمر له^(١) ، وقد وقعت بعض الكتب الموجهة إلى عبد الله بن الحسن من قبل أنصاره تعلن له الإسناد والمؤازرة بيد المنصور عن طريق جواسيسه ، فاتخذها عليه ، وأسرع إلى إلقاء القبض عليه وإيداعه السجن^(٢) .

لقد اعنى العباسيون بالجاسوسية لأغراضهم الخاصة حتى كادت تمتزج بالأمزجة وتتأصل في الأفئدة ، وصار كل فريق ينشر الجواسيس ضد الفريق الآخر للوقوف على أخباره وأسراره ، ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد بل إلى أبعد مدى تظهر صورته في قيام الخلفاء أنفسهم بالتجسس على أصحاب المناصب الرفيعة^(٣) .

وقد نهج الخليفة المنصور حين تسلم مقاليد الخلافة ، نهج سلفه في استئمار جهود العيون المبذولة لرصد الناشطين ضد العباسيين^(٤) إذ ملا الجزيرة بالعيون والأرصاد ، وبذل لهم الأموال بسخاء ، وكان هؤلاء يتلقون التعليمات الدقيقة من الخليفة المنصور تخط لهم منهجه العمل بشكل مستمر^(٥) .

هذا وقد حج الخليفة المنصور الناس عام (١٤٤هـ / ٧٦١م) ، وعندما تبين من أن ولدي عبد الله بن الحسن وهو معارض لسلطته ، لم يكونا بين الحجاج ، اغتم غمًا شديداً لعدم الظفر بيعيته ، لكنه لم يتوسد ذراع الهموم ،

(١) ابن قتيبة الدينوري ، الإمامة ، ج ١ ، ص ١٤٥ ؛ ابن خلكان ، وفيات ، ج ١ ، ص ٣٣٢ .

(٢) المسعودي ، مروج ، ج ٣ ، ص ٣٢٦-٣٢٧ ؛ التوحيد ، البصائر والذخائر ، تحقيق ، عبد الرزاق محي الدين ، (بغداد: ١٩٥٤م) ، ج ١ ، ص ١٢٨ .

(٣) للمزيد من التفاصيل يراجع: الحموي ، ثمرات ، ص ٤٥٧-٤٥٩ .

(٤) مؤلف مجهول ، العيون ، ج ٣ ، ص ٢٣٤ ؛ الحموي ، تجريد ، ق ٢ ، ص ٢٢٨ .

(٥) الذهبي ، العبر ، ج ١ ، ص ١٩٦ ؛ الحنبلي ، شذرات ، مج ١ ، ج ١ ، ص ٢١٣ .

بل شحد سيف الهمم، وذلك بوضع العيون عليهم، وإلقاء القبض على والدهما وإيداعه في السجن الذي بقي فيه إلى أن طوى المنون صفحات عمره^(١)، واستمر محمد يستقطب الناس حوله فبايده عدد كبير من الناس، وحين دانت له بعض الأوصار استعمل عليها عملاً من قبله مثل مكة المكرمة واليمن^(٢).

ومما يدل على دور التجسس في القضاء على إخماد الفتنة والاضطرابات والثورات، ما حدث أيام الخليفة المنصور عام (١٤٥ هـ / ٧٦٢ م)، بخصوص إخماد ثورة الأخوين محمد في الحجاز وإبراهيم في البصرة، وبرغم تفاوت أقوال المؤرخين في قدرة الخليفة على إخماد الثورتين بهذه السرعة، فإن الفضل في ذلك يعود إلى الجواسيس الذين استطاعوا إخبار الخليفة المنصور، بما كان عليه الحال في الحجاز من حيث قلة الذخائر والمؤن التي تديم ماكنة الثورة من جهة، وعدم إمامهم بفنون الحرب والقتال، بخلاف ما يمتاز به العباسيون ولا سيما الخليفة المنصور في العراق^(٣)، وهناك رأي آخر يتمثل في أن أحد الأخوين لم يتلزم بالموعد المحدد للثورة، مما تم خض عنه افتضاح السر، واستعداد الخليفة للتصدي لها، وجاءت النتيجة حاسمة لصالح الخليفة^(٤).

أما الخليفة المهدي فلم ينفصم عن السلسلة التي تتابعت في وضع الأرصاد والعيون على المناهضين، بل بقي حلقة محكمة فيها، وسار ينسج على نفس المنوال الذي نسج عليه أسلافه، وإثباتاً لهذا الرأي نورد ما رواه علي بن جعفر الأحمر عن أبيه الذي كان يجتمع مع جمع من الزيدية مثل

(١) الطبرى، تاريخ، ج ٧، ص ص ٥٢٧-٥٢٨؛ ابن خلدون، تاريخ، مج ٣، ص ١٨٧.

(٢) الذهبي، العبر، ج ١، ص ١٩٦؛ الحنبلي، شذرات، مج ١، ج ١، ص ٢١٣.

(٣) الطبرى، تاريخ، ج ٧، ص ٦٤٦ وما بعدها؛ المسعودي، التنبية والأشراف، (بيروت: ١٩٦٥ م)، ص ٣٤١.

(٤) الطبرى، تاريخ، ج ٧، ص ٦٤٨؛ المسعودي، التنبية والأشراف، ص ٣٤١.

عيسى بن زيد والحسن وعلي ابنا صالح بن حي وإسرائيل بن يونس بن أبي إسحاق رخباب بن قسطاس، في إحدى الدور بالковة، وبلغ الخليفة المهدى وذلك عن طريق عيونه، فكتب إلى عامله هناك، يأمره بوضع العيون عليهم حتى إذا حان حين الاجتماع وحضر المشاركون فيه، كبسهم بغتة وهم لا يستطيعون الدفاع عن أنفسهم، وذات ليلة انتظم العقد مرة أخرى، وبينما هم كذلك باغتتهم العيون، غير أنهم لاذوا بالفرار ما خلا أبا علي بن جعفر لكونه قد بلغ من الكبر عتيّاً، فأرسل إلى الخليفة، وحين مثوله بين يديه انهال عليه بالشتم والطعن الجارح، ووجه له من الكلام أعنفه، ثم قال: كيف تجتمع مع أناس من الزيدية وتحثهم على الخروج علي وتدعوا الناس إلى المعارضة، ولكن الشيخ لم يكترث بالموقف، بل أبدى امتعاضه على أسلوب المواجهة، وبعد مداولته المسألة أدخله السجن، ولم يخرجه إلا بعد وفاة عيسى بن زيد بن علي المعارض^(١).

ونشر الخليفة الرشيد الجواسيس لرصد تحركات العلوين كيحيى بن عبد الله سنة (١٧٦هـ / ٧٩٢م)، فهرب الأخير بسبب انكشاف نوایاه المعارضة للعباسيين وكان يعمل لصالح العلوين، وتمكن الخليفة من خلال جواسيسه وبمساعدة رجالات أمنه الآخرين من اعتقاله^(٢).

وأما ما يتصل بال الخليفة الرشيد على صعيد وضع العيون على المعارضة، فإنه ما حاد عن منهج سالفيه بل حداه نفس المنهج إلى ما انتهجه من سبقوه. فقد أخذ أحمد بن يحيى بن زيد العلوى وحبسه عام (١٨٨هـ / ٨٠٣م)، إلى أن الهرب أنجده، فتوجه شطر البصرة، وبدأ من هناك ب McCormick الشيعة يدعوهם إلى مناصرته ضد الخلافة العباسية، فتقل

(١) الأصفهاني، مقاتل، ص ص ٢٧٥-٢٧٦.

(٢) الطبرى، تاريخ، ج٨، ص ص ١٣٦، ١٥٨، ١٥٩؛ ابن الطقطقى، الفخرى، ص ١٤٩.

ذلك على الخليفة الرشيد الذي بادر إلى إذكاء العيون عساه يغفر به يوماً، وعزز أنشطتهم بمباغع كبيرة من الأموال لدعم أهدافه^(١).

عندما استقر زمام الخلافة بين يدي الخليفة الأمين، وجّه عدداً من قواد بغداد إلى اليسارية والكوثيرية، وزودهم بما يكفيهم من المؤن، وفرق الجواسيس بين صفوف جيش طاهر بن الحسين، ودسَّ إلى رؤساء الجند الكتب بالإطماء^(٢) والترغيب. فشغبوا على طاهر بالصخب والضجيج وقمع الطبول، فانبعثت الأصوات العالية مرعدة محدثة الجلبة والضوضاء، وحين رأى طاهر بن الحسين ما رأى، نظم جيشه على شكل كراديس وقال لهم: لا يغرنكم ما ترون من كثرة العدد، فالنصر مع الصدق والثبات، والفتح مع الصبر، وحثّهم على الاستمساك برباطة الجأش، وتلى عليهم قوله تعالى: ﴿كُمْ مِنْ فِتَنَةٍ قَلِيلَةٌ غَلَبَتْ فِتَنَةً كَثِيرَةً إِذَا نَهَى اللَّهُ وَآتَاهُ مَعَ الظَّاهِرِينَ﴾^(٣).

وكان الخليفة المأمون قبل أن يتوجه نحو مدينة السلام، قادماً من خراسان قد بث جواسيسه الثقات لاستطلاع أحوال الناس فيها، وموافقتهم من الأحداث العنيفة التي شهدتها خلال الصراع بين الأخوين، وما إن دخل المدينة، حتى بدأ في البحث عن إبراهيم بن المهدي الذي كان قد أعلن عن نفسه خليفة فيها لفترة من الزمن^(٤). غير أن جواسيس ورجالات الخليفة المأمون الثقات كانوا له بالمرصاد، فضلاً عن تخصيصه الأموال والجوائز السخية التي رصدتها الخليفة، وقد أتت أكلها بالقبض عليه، وهو متزوج بزوج امرأة تصحبه امرأتان عند رأس الجسر في بغداد^(٥).

(١) اليعقوبي، تاريخ، ج٢، ص٤٢٣؛ الأصفهاني، مقاتل، ص٥٠٥. عبد الكريم الأشتر، دعبد بن علي، ص ٦٨-٦٩.

(٢) الطبرى، تاريخ، ج٨، ص٤٤٢؛ المسعودى، مروج، ج٣، ص٤٨٨.

(٣) الطبرى، تاريخ، ج٨، ص٤٤٢.

(٤) المسعودى، مروج، ج٤، ص ٣٤-٣٥.

(٥) الطبرى، تاريخ، ج٨، ص ١٥٨-١٥٩؛ التنوخى، الفرج، ج٣، ص ٣٣٤ - ٣٣٥.

وألح الخليفة المأمون على بعض إخوته الذين أرادوا حمله على الاقتناع بميل عبد الله بن طاهر إلى العلوين عام (٢١١ هـ / ٨٢٦ م)، فدشن الخليفة رجلاً يتتجسس عليه، وقال له: سر إلى مصر في زي النساء وادعوا جماعة من كبارها إلى القاسم بن هارون بن إبراهيم بن طباطبا، واذكر مناقبه ومبلغه في العلم، ثم اذهب إلى بطانة عبد الله بن طاهر، والبحث عن مكونات أسراره ونواياه الدفينة بحثاً شافياً، واثنتي بما تسمع منه، ففعل ذلك ولم يحصل على شيء يدل على سوء نيته^(١).

وقد استمر دعم العيون والتّجسس لما له من أهمية كبيرة، ففي عام (٣٥٧ هـ / ٩٦٧ م) هلّ هلال دعوة جديدة في مدينة السلام في سماء الخاصة والعامة لرجل يدعى محمد بن عبد الله القائم، وهو من أهل بيت رسول الله ﷺ، وكان محور دعوته الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ومجاهدة أعداء المسلمين، وتجديد ما عفا من رسوم الدين فسعى الخاص والعام في مدينة السلام مبaitته رجلاً بعد رجل، فمن كان منهم يذهب مذهب السنة^(٢)، قيل له إنه علوي، وبذلك توسيع دائرة مبaitته التي تعاضد عليها الفريقان، ثم تعاظم أمره حتى تجاوز نطاق المشافهة إلى تحرير الرسائل المتضمنة جوهر الدعوة، فوُقعت نسخة منها بيد الوزير أبي الفضل الذي ذكّر العيون بدوره على الدعاة ورؤسهم فضلاً عن ترق له قلوبهم أو تميل إليه نفوسهم، غير أنه لم يصب إلا الوفاص الخالية^(٣)، فطلب الإنجاد من خليفته أبي العلاء صاعد بن ثابت لمؤازرته على الجد في طلبهم، لكنهما عجزاً عن الوقوف بوجه الرياح التي هبت بعد مفارقتها

= ٣٣٦؛ المقدسي، البدء والتاريخ، باعتناء كلمان هوار، (بغداد: د.ت)، ص ١١١؛ رمزية الأطروجي، الحياة، ص ٥٩.

(١) الطبرى، تاريخ، ج ٨، ص ٦١٥؛ مسکویه، تجارب، ج ٦، ص ص ٤٦٢-٤٦١.

(٢) مسکویه، تجارب، ج ٢، ص ص ٢٤٧-٢٤٨.

(٣) م.ن، ج ٢، ص ص ٢٤٧-٢٤٨.

السكون، وذلك بانتظام مجموعات واسعة من مختلف الفئات في سلك الدعوة، كالدّيلم والأتراك ومنهم سبكتيكن العجمي أحد أكابر القادة المعروف بالشجاعة والجود والمروءة، وكان مطاعاً من جنوده نازلاً عند الأتراك منزلة من لا يخاف في الرضاء والسخاء^(١).

ثالثاً: وسائل أخرى لنقل الأخبار:

أ- المراصد والمسالح:

ومن السُّبُل الأخرى التي سلكها الخلفاء للحصول على الأخبار (المسالح^(٢) والمراصد) والمثال الناطق بصحة الاستعانة بهذه الوسيلة، نقتبسه من عهد الخليفة الأمين، إذ أسقط أخوه المأمون، اسمه من الطرد وقطع البريد عام (١٨٣هـ / ٨٠٨م)، ولدى علم الخليفة الأمين بإجراءات أخيه، أرسل إليه ثلاثة من أصحابه بغية تقديم ابنه موسى عليه في العهد، وعندما بلغ المأمون ذلك استشار الوجاهء من ذوي البصيرة والرأي، فقالوا له إنما يبعثنا لك أن لا تخرج من خراسان، وبعد ذلك أرسل أحد قادة جيشه وهو طاهر الحسين إلى الري، فانضم إليه عدداً من القواد مع جنودهم بعد وصوله إلى هناك وحين كثر الجمع بتضاعف عدد المنضمين إليه من القادة والجنود، وضع المسالح والمراصد عند النقاط الحساسة ذات التحكم بمفترقات الطرق بحثاً عن الأخبار الصاعدة والهابطة من وإلى الخليفة الأمين^(٣).

(١) م.ن، ج٢، ص ص ٢٤٩-٢٤٨.

(٢) المساحة، مسلحة الجندي خطاطيف لهم بين أيديهم وينفضون الطريق ويتجسسون خبر العدو ويعملون لهم عمليات لثلا يهجم عليهم ولا يدعون أحداً من العدو يدخل بلاد المسلمين وإن جاء جيش أنذروا المسلمين. انظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٥، ص ١٢٨.

(٣) الطبرى، تاريخ، ج٨، ص ص ٣٧٤-٣٧٦؛ ابن خلدون، تاريخ، مج ٣، ص ٢٣٢.
بسام العсли، فن الحرب، ج١، ص ٣١٠؛ نهاد عباس شهاب، تدابير الأمن العسكري =

ونتيجة لاشتداد الصراع الناشب بين الأخوين عام (١٩٤٥هـ / ١٩٠٩م) لجأ كل منهما إلى تعزيز ثغور وحدود مناطق نفوذه بوسائل عديدة، منها المسالح والمراسد على أن يتولى تسيير شؤونها الحراس الموثوق بولائهم ووفائهم^(١)، ولم يكن بمقدور أحد احتياز السبل، دون أن يتعرض للتفتيش، وقد تصاعدت عمليات التفتيش والبحث عن الأخبار بحيث لم تستشف حتى البضائع والسلع التجارية ناهيك عن الكتب المختلفة الصادرة من الخليفة والواردة عليه^(٢).

ومما لا ينبغي الاستغناء عن ذكره، هو أن بابك الخرمي كان من المتمردين على سلطة الخلافة زمن الخليفة المعتصم، وجرت بينهما اشتباكات أسفرت عن قتل عدد من أفراد جيش الطرفين، وفي عام (٢٢٠هـ / ٨٣٥م) تفاقم دور بابك الخرمي، إذ صارت الغلبة لجيشه في بعض المناطق، فأطلق يد التخريب، تناول من الحصون المقاومة، وعندما أفضت تلك الأخبار إلى المعتصم، وجّه قائده أبا سعيد بن يوسف إلى أربيل^(٣)، وأمره بإعادة بناء الحصون المخرابة على أن يضع المسالح والمراسد، بين زنجان^(٤) وأربيل لإحكام الهيمنة وتمتين أركان الاستحواذ بلا منازع، فبدأت هذه المسالح والمراسد تؤدي دورها المنشود

= في صدر الإسلام، (بغداد: ١٩٨٩م) ص ٤٠.

(١) الطبرى، تاريخ، ج ٨، ص ٣٧٩؛ مؤلف مجهول، العيون، ج ٣، ص ص ٣٢٢-٣٢٣.

(٢) الطبرى، تاريخ، ج ٨، ص ٣٧٩. ابن الأثير، الكامل، ج ٥، ص ص ١٤٣-١٤٤؛ عطا

سلمان جاسم، الاستفار للجهاد والاستجابة له في الدولة العربية الإسلامية حتى نهاية

القرن الثالث الهجري، أطروحة دكتوراه (بغداد: ١٩٩٠م) ص ١٩٧.

(٣) أربيل: وهي مدينة كبيرة، بينها وبين تبريز سبعة أيام. انظر: ياقوت، معجم البلدان، ج ١، ص ١٤٤-١٤٥.

(٤) زنجان: بلد كبير مشهور في نواحي الجبال بين أذربيجان وبينها وهي قرية من بحر قزوين. انظر: ياقوت، معجم البلدان، ج ٣، ص ١٥٢.

على أكمل وجه، الأمر الذي حق الغاية المطلوبة المتجلسة في نيل رضى الخليفة عن الكيفية التي كانت تدار بها شؤون تلك المناطق^(١).

ومن أساليب استقصاء الأخبار أسلوب التنّكُر، وهو الأسلوب الأول والعام الذي لولاه لفشل التجسس ويدرك أن عقبة بن مسلم، استدعي من قبل الخليفة المنصور وسائل عن اسمه وبعد ما تبين هويته كلفه بما رأه أمراً هاماً يعنه، يتلخص في التنّكُر والتخفّي، ثم الذهاب إلى أولئك الذين يكيدون للدولة، وكان في خراسان بعض المناصرين من المعارضة يكتابونهم، وتجري المراسلات بينهم لتخطيط ما يرونـه ضروريًّا لإنجاح مشاريعهم، وكلفه تحرير كتاب بخط يديه يداعب مضمونه ميلهم، للوقوف على آرائهم فإن كانت معارضة للخليفة لزم الحذر منها، وإن كانت موالية له اطمأن إليها^(٢)، كما أمره بلقـاء عبد الله بن الحسن واستدراجه بقصد معرفة نواياه، وتم ذلك فعلاً وبعد استئناس عبد الله، بعقبة بن مسلم المتنـكر الذي طلب تحرير كتاب إلى مناصريه، أبي ذلك، وقال له: أنت كتابي إليهم فسر نحوهم، وإذا وصلت فاقرأهم السلام، وقل لهم: إن ابني (محمد وإبراهيم) خارجـان في وقت كذا وكذا، ولما حظـي المتنـكر بالسـر المكنـون عاد به إلى الخليفة المنصور^(٣).

كذلك فقد كان الخليفة المهدى العباسي يتنكر ويصطحب معه بعض حراسه وثقاته لمعرفة بعض الأمور، فقد روى الحسن بن الفضل بن الربع، أن المهدى خرج علينا متنكراً، ومعه الربع الوزير والمسيب بن زهير صاحب

(١) الطبرى، تاريخ، ج ٩، ص ص ١٢-١١؛ ابن الأثير، الكامل، ج ٦، ص ص ٤٧٧-٤٧٨.

(٢) الأصفهاني، مقاتل، ص ص ١٤٤-١٤٥.

(٣) مؤلف مجهول، العيون، ج٣، ص٢٣٤.

الشرطة، طائفاً بالأسواق ويستفسر عن أحوال الناس بدون إثارة الارتياب حول شخصيته^(١). إن اصطحاب الخليفة لوزيره وصاحب شرطته^(٢)، وعدد من رجالاتأمنه، يدل على الأهمية القصوى التي كان يوليه الخليفة لأجل سيادة الأمن والنظام في مدينة بغداد، وإلى مساءلة المعينين، إذا وجد منهم تقصيرًا قد تكون نتائجه الإخلال بالأمن العام^(٣).

كما كان الخليفة الرشيد يطوف في الأسواق ليلاً، وهو متخفِ ويصطحب معه بعض ثقاته، ويسأله عن أخبار العامة لضبط الحالة الأمنية^(٤).

وفي نص آخر يورده ابن قتيبة مشيراً إلى أن الخليفة الرشيد ضاقت نفسه في إحدى الليالي، فاصطحب معه جعفر البرمكي ومسرور السيف، وعدها من حراسه بعد أن تزيوا جميعاً بملابس التجار^(٥) والأطباء^(٦)، وقاموا بجولات عديدة في أنحاء مدينة بغداد، وركب هؤلاء زورقاً طاف بهم في النهر، ثم عاد الخليفة وصحبه وهم أكثر معرفة بأخبار الرعية وأمنها^(٧).

وفي مضمار التنكر نورد نموذجاً آخر يتمثل في أن الخليفة الرشيد

(١) الطبرى، تاريخ، ج ٨، ص ١٧٥؛ البهقى، المحسن، ص ٤١٠.

(٢) أحمد محمد الشحاذ، الملامح السياسية في حكايات ألف ليلة وليلة، (بغداد: ١٩٧٧م)، ص ٧٧، ٨٢.

(٣) الجاحظ، التاج في أخبار الملوك، (القاهرة: ١٩١٤م)، ص ١٧٠؛ ابن طيفور تاريخ، ص ١٩.

(٤) ألف ليلة وليلة، (بغداد: ١٩٧٩م)، مج ١، ص ٨١-٨٢، مج ٢، ص ٢٨٤؛ أحمد محمد الشحاذ، ملامح، ص ٧٧، ٨٢.

(٥) الجاحظ، المحسن والأضداد (بيروت: ١٩٦٠م)، ص ١٧٣؛ الإمامة والسياسة ج ٢، ص ١٩٢.

(٦) طلال عامر المختار، التاريخ العسكري من ٤٧٠-١٩٤٥م، ص ١٤٢.

(٧) الجاحظ، المحسن والأضداد، ص ١٧٣؛ ألف ليلة وليلة، مج ١، ص ٨١-٨٢.

استدعي رجلاً يدعى يحيى بن خالد يلقب ابن الكردية، وولاه الضياع بالковة وأمره بتوزيع الأموال على الشيعة هناك لتمحیص آرائهم، وفحص مواقفهم من أحمد بن عيسى بن زيد وموافقة الخليفة الرشید بها^(١)، وفعل ذلك، وعند انعقاد المجالس كان الحديث يدور حول رجل آخر هو أبو غسان الخزاعي، وكانت الأوصاف والسبايا الحميدة تطلق عليه بسخاء، فقال المتنكر ابن الكردية إني لمشتاق إليه، وتحدوني الرغبة الشديدة إلى ملاقاته فقيل إنه في البصرة. فكتب إلى الخليفة بذلك، وكلف بالذهاب إليه على أن يفعل ما فعله في الكوفة، فأخذ ينشر الأموال بلا تكلف وذكر في مجلسه رجل معارض يدعى حاضر فأجزل له العطاء تلو العطاء^(٢)، ثم طلب اللقاء بحاضر، لكنه رفض لتأكده من أنه رجل محتال، وبعد إلحاح متواصل أذن لابن الكردية المرسل من قبل الرشید إلى البصرة بلقائه لكن حاضراً ظلّ مصرًا على موقفه من نوايا المتنكر، فطلب من أحمد بن عيسى أن يغيّر مكانه والمتنكر لا يعلم ذلك، وقد أرسل إلى أمير البصرة يطلب منه جنداً (المعارض العلوي) والقبض عليه، وقد تم الهجوم المباغت عليه فوق حاضر بين أيديهم، وأرسل إلى مركز الخلافة غير أنهم لم يظفروا بأحمد بن عيسى بفضل حسن التدبير^(٣).

ومع كل ما سلف ذكره من وسائل رصد الأخبار وطرق الحصول عليها، لجأ الخلفاء إلى الاطلاع على شؤون الرعية عن طريق الاستطلاع للوقوف على ما يتصل بهم من أخبار بتفقد الأحوال ومعرفة المطالبين، كما فعل الخليفة الرشید مرة، على ما يرويه التاريخ قائلاً: إن الخليفة العباسي والفضل بن الربيع خرجا يوماً متنكرين لمشاهدة الناس والوقوف

(١) اليعقوبي، تاريخ، ج٢، ص٤٢٣؛ أحمد بن يحيى بن المرتضى، كتاب طبقات، ص٥٢.

(٢) الأصفهاني، مقاتل، ص٤١٠-٤١١.

(٣) المسعودي، مروج، ج٤، ص٢٩. الأصفهاني، مقاتل، ص٤١٠-٤١١.

على أخبارهم^(١)، وبعد التَّجُول قليلاً ساقهما القدر إلى دار كبيرة في دهليزها حِبَابٌ وجرار لطافٌ وشَغَفٌ سمعيهما صوت غناء وشدٍ شجي يأخذ بشغاف القلوب ويبعث الطرب في النفوس، فدخلوا بعد أن صعب عليهما تمالك نفسيهما، وإذا بشاب بيديه ثوب نسائي يقبله ويكيي من البكاء، ويعيد هذه العملية مراراً وتكراراً، فتحير الخليفة من أمر الشاب مع الثوب، فأكَد العزم على معرفة السبب، وبعد الاستفسار منه عن معاناته قال بسر: مات والدي ورفع خبره إلى الفضل بن الربيع لعنه الله، فرفعه إلى الخليفة الرشيد، وكانت لي جارية اسمها عتبة شغفت بها شغفاً شديداً لا مزيد عليه، وقد أخذت مني عنوة إلى دار الخلافة، فاستولى عليها الفضل بالقوة، وعندما علم الخليفة الرشيد بالقصة من مصادرها جعل الأمور في نصابها، وأقام الوزن بالقسط من غير أن يخسر الميزان^(٢).

فضلاً عن الرواقد التي كانت تردد الخليفة بذخائر زاخرة من الأخبار، على اختلاف منابعها وتبالين أحجامها وأقدارها، لا بأس من توجيهه مجرى بعض الرواقد الأخرى صوب نفس المصب لنفس الهدف، من دورها الفعال في تغيير مسارات الأحداث، من هذه الرواقد تقارير الوفود الواقفة على الخليفة من مختلف الأنصار والولايات، وهي تتضمن معلومات وأخبار على جانب غير يسير من الأهمية بخصوص العمال والولاة وغيرهم من ذوي الرتب الرفيعة والمناصب الحساسة^(٣)، فعلى سبيل المثال كان الخليفة المنصور يلجأ إلى استنطاق الوفود القادمة بعد جلوسه معهم وجهاً لوجه بغية الحصول على معرفة بشأن ما يجري في أرجاء خلافته^(٤).

(١) الصابي، الهدوات، ص ص ١٧٦-١٧٩. ألف ليلة وليلة، مج ١، ص ص ١٩٥-١٩٦.

(٢) م.ن، ص ص ١٧٧-١٧٩.

(٣) الأشبي، المستطرف في كل فن مستطرف، ج ٢، ص ٩٢.

(٤) الجهمي، الوزراء، ص ١٣٧.

فضلاً عن توظيف الوفود في موكب جمع المعلومات، كان الخلفاء قد وظفوا التجار في نفسه، السلك، بقصد الاطلاع على الأخبار^(١)، ففي عام ٣٠٢ هـ ورد كتاب محمد بن علي الماذري إلى السلطان من مصر يقول فيه: إن قتالاً وقع بين أصحاب السلطان، وجماعة من المعارضين في قيروان، وبعد ما قتل من قتل وأسر من أسر نتيجة احتدام المعركة بين الطرفين ووصل بعض المعارضين إلى برقة، وأحدثوا فيها ما لم يرض السكان عنه، ووصلت أخبار تلك الأحداث إلى السلطان عن طريق التجار^(٢).

وقد تفنن الخلفاء في تجنيد عناصر متباعدة الأقدار والإمكانات لصالحهم، عن طريق تزويدهم بالأخبار التي تعتبر ذات أهمية بالقياس إلى طول عمر الخليفة أو قصرها من جهة أخرى، وديمومة سلطته أو تقليل فرصتها من جهة أخرى، ومن هذه العناصر المسخرة لجمع الأخبار الموالي، إذ قام هؤلاء كغيرهم بتلبية رغبات الخلفاء في الإحاطة بكل ما يهمه من الأسرار والأخبار على سبيل المثال، نذكر مولى الخليفة أبي جعفر المنصور الذي أرسله إلى المكان الذي كان يتربّد عليه محمد بن عبد الله العلوي، يسمع ما ي قوله عند إلقائه الخطب في الناس على المنبر عام (١٤٤ هـ / ٧٦١ م)^(٣) وذات يوم صعد العلوي المنبر وأخذ يحاول إثبات هويته بقوله إنه المهدى، وكان يجهد نفسه وهو يلح على إقناع من حوله بصدق دعوته، فأخبر المولى خليفته بما سمعته أذناه وعند سماع الخليفة المنصور خبره، قال: كذب عدو الله إنه لا يمت بما يزعمه بصلة^(٤).

(١) عبد العزيز الدوري، العصر العباسي الأول (بغداد: ١٩٤٥ م) ص ١٣٢.

(٢) القرطبي، صلة تاريخ، مج ١١، ص ٤٨. مسكونيه، تجارب، ج ١، ص ٣٥ هامش رقم ١.

(٣) الأصفهاني، مقاتل الطالبين، بغداد: ١٩٧٩، ص ١٦٢؛ وللمزيد من التفاصيل انظر: الطبرى، حوادث سنة ١٤٤ هـ، الطبرى، تاريخ، ج ٧، ص ٥١٧ وما بعدها.

(٤) الطبرى، تاريخ، ج ٧، ص ٥٣٤ وما بعدها؛ المسعودي، مروج، ج ٣، ص ٣٥٦.

هذا وقد توسيع دائرة العاملين على جمع الأخبار لل الخليفة بحيث شملت الخدم والجواري أيضاً، لا سيما أنهم يعتبرون من المقربين إليه بحكم أعمالهم، من ذلك ما يروى عن أن اليزيدي كان يتولى تعليم ابني الخليفة الرشيد الأمين والمأمون، وإذا صعب عليهم شيء حاول تيسيره وتبسيطه لتمكينهما منه وحملهما على اكتساب أسرار فصاحة اللغة العربية على صعيد الاستيعاب والأداء، ولم يكن يعلم أن الخليفة الرشيد قد وَكَلَ به خادماً ينقل إليه ما يكون منه مع ولديه، وفي يوم من الأيام تصرف بعض الألفاظ بغية التبسيط، فظن الخادم أنه يعلمهمما الزنوجية جهلاً منه بما تنطوي عليه أساليب العربية من فنون بدعة ورائعة تتراصراً عن بلوغها اللغات الأخرى، فكيف به وهو ينصلح إلى المؤدب المعلم يتضمن في تمكين ولدي الرشيد من نطق الألفاظ، ليستجيب هذا النطق لد الواقع السليقة والفطرة، وتنتفي عنه مظاهر ظاهرة الاكتساب، فأخبر الخليفة بما توهם فيه، فاستدعى الخليفة الرشيد المؤدب، وقال له: ما عهدت إليك تعليم ولدي الزنوجية لأننا لسنا بحاجة إليها، فاستغرب المعلم المؤدب من قول الخليفة، ونفى ما نسب إليه جهلاً^(١).

ومع إيلاء الخلفاء كامل الرعاية لتلك العناصر التي تم تسخيرها لجمع الأخبار وإيفاء الخليفة بها، فإن هنالك من كان يترصد الخلفاء ويستقصي الأخبار عنهم لتوظيفها ضدهم، من ذلك ما روى عن أن رجلاً يدعى أبا العود كان يحاول تحريض الخليفة الرشيد على البرامكة، وذات ليلة انعقد المجلس وكان أبو العود^(٢) بحاثاً عن فرصة تسنج له للإيقاع بهم فوجد صيده الشمين ممثلاً في بيتهن من شأنهما إثارة الخليفة الرشيد إذ أنشد يقول عمر بن أبي ربيعة:^(٣)

(١) ابن سبط الأربلي، خلاصة الذهب المسبوك، ص ٢٠٦.

(٢) المسعودي، مروج، ج ٣، ص ٤٥١؛ ابن الأثير، الكامل، ج ٦، ص ١٧٥.

(٣) الطبرى، تاريخ، ج ٩، ص ١٢٧؛ مؤلف مجهول، العيون، ج ٣، ص ٣٠٧.

وَعَدْتُ هَنْدًا وَمَا كَانَتْ تَعِدْ لَيْتَ هَنْدًا أَنْجَرْتَنَا مَا تَعِدْ
وَاسْتَبَدَّتْ مَرَّةً وَاحِدَةً إِنَّمَا الْعَاجِزُ مِنْ لَا يَسْتَبِدْ

فَفَعَلَ إِنْشادَهُمَا مَا كَانَ يَرْجُوهُ الْمُنْشِدُ فَعْلَهُ فِي نَفْسِ الْخَلِيفَةِ الرَّشِيدِ،
وَقَالَ أَجْلَ وَاللَّهِ إِنَّمَا الْعَاجِزُ مِنْ لَا يَسْتَبِدْ، وَكَانَ يَحْيَى الْبَرْمَكِيُّ قَدْ غَرَّ بِخَادِمِ
مِنْ خَدِيمِ الْخَلِيفَةِ الرَّشِيدِ لِصَالِحِهِ يَأْتِيهِ بِأَخْبَارِ الْخَلِيفَةِ بِاسْتِمْرَارِ، وَلَمَّا بَلَغَ
يَحْيَى الْبَرْمَكِيُّ جَاءَ إِلَى الْخَلِيفَةِ وَتَظَاهَرَ بِأَنَّهُ يَمَازِحُهُ فَأَنْشَدَهُ الْبَيْتَيْنِ^(١)،
وَفَطَنَ الْخَلِيفَةِ الرَّشِيدِ بِقُوَّةِ فَطْنَتِهِ لِمَا انْطَوَتْ عَلَيْهِ إِشَارَتِهِ الَّتِي كَانَتْ أَبْلَغَ
مِنْ عَبَارَةٍ ثُمَّ عَادَ يَحْيَى الْبَرْمَكِيُّ إِلَى مَنْزِلِهِ وَسَأَلَ الْخَادِمَ عَمَّنْ أَنْشَدَهُمَا،
فَقَالَ لِهِ الْمُنْشِدُ هُوَ أَبُو الْعُودِ فَاسْتَدْعَاهُ وَاعْتَذَرَ لَهُ عَنْ تَأْخِيرِ الْإِلْتِفَاتِ إِلَيْهِ،
وَكَافَأَهُ بِمُبْلَغٍ مِنِ الْمَالِ وَبَعْدَ فَتْرَةٍ وَثَبَ عَلَيْهِمِ الْخَلِيفَةِ الرَّشِيدِ وَعَاقِبَهُمْ فِي
الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ شَرْ عَقْوَبَةِ^(٢)، لِتَصْرِفَهُمْ بِأَمْوَالِ الْخَلِيفَةِ لِصَالِحِهِمْ دُونَ
إِذْنِ مِنْهُ فَضْلًاً عَنِ التَّآمِرِ وَقُتِلُّ مَنْ لَا يَرْغُبُ بِهِمْ مِنَ الْمُعَارِضِينَ.

هَذَا وَقَدْ وَرَدَ عَلَى لِسَانِ بُوكِلِرِ مَا يَبْرُهُنَّ عَلَى دورِ التَّجَسُّسِ عَلَى
مَسْتَوَيَاتِ مُتَبَايِنَةٍ، تَقْوُمُ بِهَا عَنَاصِرٌ مُنْتَمِيَّةٌ إِلَى أَجْنَاسٍ مُخْتَلِفَةٍ، كَالْيَهُودِ
الَّذِينَ تَوَاجَدُوا فِي الْبَلَاطِ الْعَبَاسِيِّ إِبَانِ حُكْمِ الْخَلِيفَةِ هَارُونَ الرَّشِيدِ
وَشَارِلَمَانَ الْمُتَزَامِنِينَ، وَأَسْهَمُوهُمَا فِي تَنشِيطِ الْمِبَادَلَاتِ التِّجَارِيَّةِ بَيْنِ
الْطَّرَفَيْنِ، وَبَعِيدًاً عَنِ التَّرْدُدِ وَالتَّخُوفِ مِنْ إِبْدَاءِ مَا تَحْقَقَ ثِبَاتُهُ، نَقُولُ إِنَّ
الْيَهُودَ الْمُنْخَرِطِينَ فِي مَمارِسَةِ الْأَنْشَطَةِ التِّجَارِيَّةِ كَانُوا يَسْتَغْلُلُونَ تَرَدُّدَهُمْ
عَلَى عَاصِمَةِ الْخَلِيفَةِ الْعَبَاسِيَّةِ لِلتَّجَسُّسِ وَيَنْقُلُونَ الرَّصِيدَ الْمُجَمِعَ مِنْ

(١) البَيْهَقِيُّ، الْمُحَاسِنُ، ج١، ص٣٧٣؛ ابْنُ تَغْرِيْ بَرْدِيُّ، النَّجُومُ، ج١، ص١٢١؛ نَادِيَةُ حَسَنِيُّ صَفَرُ، السَّلْمُ فِي الْعَالَمَاتِ الْبِيْزَنْتِيَّةِ فِي الْعَصْرِ الْعَبَاسِيِّ الْأَوَّلِ (مَكَّةُ الْمُكَرَّمَةُ: ١٩٨٥م)، ص٤٧.

(٢) الطَّبَرِيُّ، تَارِيخُهُ، ج٩، ص٢٢٧. ابْنُ الأَثِيرِ، الْكَاملُ، ج٦، ص١٧٥.

الأخبار إلى ملوك الغرب، ولربما أدى هذا الأمر إلى لجوء هؤلاء الملوك إلى تشكيل الوفود إلى الخلفاء العباسيين في اللاحق من الأيام^(١).

إضافة إلى ما أسلفنا لا بد من إيراد نموذجاً آخر من السعاية، ليكون شاهداً على صحة ما ذهب إليه البحث. فنقول قدم يحيى بن عبد الله على الفضل الذي يصطحبه معه لمقابلة الخليفة الرشيد في مدينة السلام، ولما تحقق الوصول أكرمه إكراماً يفوق ما حال في صدره من تكهنات ، أنزله منزلة يليق به ، وبعد أن استطاب به المقام ودان له المرام ، بادر الفضل إلى السعاية به عند الخليفة ، قائلاً: إنه يجهد نفسه في إفساد الجندي أو الدعوة إلى مبايعته ، وإن أناساً كثيرين قد أجابوه إلى دعوته^(٢). فاستعظم الخليفة الرشيد ذلك وأمر بحبسه ، وبعد مضي وقت غير طويل ، استدعاه الخليفة ودفعه إلى المواجهة مع أناس منهم بكار بن مصعب بن ثابت بن عبد الله بن الزبير ، المعروف بعداوته له ، وكان يجذب في طلب الأخبار الخاصة بهم وإيصالها إلى الخليفة الرشيد ، وبعد انتهاء المواجهة الكلامية أمر الخليفة بالتشديد وتضيق الخناق عليه وعلى أتباعه ، لمنعهم عن ممارسة أي نشاط معاِد للخلافة^(٣).

إنه لا يعد باعثاً من بواعث إثارة الغرابة ، إذ قيل إن النساء قد انخرطن في سلك المراقبة والترصد ، وجمع الأخبار شأنهم شأن الرجال العاملين في الحقل ذاته. لقد أقدم الخليفة المأمون بتكليف نحو ألف وسبعمائة امرأة^(٤) ، كلفهن بالاندساس بين الناس لمعرفة الساقطين على الخليفة

(١) Bucker (F.W) M.A: Harun, L. Rashid and Charles the great Massa Chusetts, 1931, p.44.

(٢) الأصفهاني ، مقاتل ، ص ١٦٢ .

(٣) الطبرى ، تاريخ ، ج ٨ ، ص ٢٤٤ ؛ الأصفهانى ، مقاتل ، ص ١٦٢ .

(٤) ابن دحية الكلبي ، النبراس في تاريخ خلفاء بنى العباس ، تحقيق عباس العزاوى ، بغداد ، ١٩٤٦ م ، ص ٤٨ ؛ أحمد محمد الشحاذ ، الملامح السياسية في حكايات ألف ليلة وليلة ، ص ٧٥ ؛ أحمد عبد العزيز محمود ، الأمن في بغداد خلال العصر العباسي =

والمحظتين لقلب نظام الحكم العباسي والاقتراض من المؤيدين له، وبالطبع فإن أولئك النساء كن يقدمن الأخبار من خلال اختلاطهن بالناس^(١)، وهو أمر جديد في تاريخ الخلافة العباسية.

وفي عام (٤٠٥هـ / ١٠١٤م) كان حاكم مصر قد لهج بالركوب في الليل، ويطوف بالأأسواق، ورتب في كل درب أصحاب أخبار يطالعونه بما يعرفونه ويسمعونه ويعطيهم العطاء الكثير، ورتب عجائز يدخلن البيوت، لجمع المعلومات ولم يكن يخفى عليه من أسرار الناس شيء^(٢).

= الأول، ص ١٨٦.

- (١) السكتاري، محاضرة الأوائل ومسامرة الأواخر، (القاهرة: ١٣٠٠هـ)، ص ص ٨٤-٨٥؛ صلاح الدين المنجد، بين الخلفاء والغلمان (القاهرة: ١٩٥٧م) ص ١٣؛ واجدة مجید عبد الله الأطرقجي، المرأة في أدب العصر العباسى، (بغداد: ١٩٨١م) ص ٦٦. رمزية الأطرقجي، الحياة، ص ٢٠٧.
- (٢) ابن سبط الجوزي، مرآة، ص ص ٢٩٣-٢٩٤.

الخاتمة

أثناء استعراضي للمعلومات التي يتحتم على الإمام بها والاستزادة، توصلت إلى بعض الحقائق منها، أن منصب صاحب الخبر كان من المناصب الهامة والحساسة التي كانت تمثل صمام الأمان لأمن الخليفة والخلافة معاً لكونه محيطاً بحكم وظيفته بكل صغيرة وكبيرة، وقلما كان يغادر شاردة أو واردة دون إحصاء.

وهذا المنصب لم يكن يجدر به في رأي الخلفاء، إلا من تميز بالبصرة الثاقبة والفكر النافذ والعقل النير إضافة إلى الصدق والأمانة والدراءة بالمستجدّات، فضلاً عن الخبرة المستقة من شتى مناحي الحياة، ولا ننسى أن صاحب الخبر كان على اتصال مباشر بال الخليفة.

ومما ينبغي الإشارة إليه هو أن صاحب الخبر كان يتولى تزويد الخليفة بالأخبار المختلفة في حين أن صاحب البريد كان يقتصر دوره على نقل الأخبار الواردة من الأطراف والأوصاف الإسلامية إلى الخليفة.

وفضلاً عما سبق فإن لصاحب الخبر مهام أخرى ينفرد بها ليس لصاحب البريد دور فيها، منها مراقبة الخاصة والوزراء والشعراء والقضاة والولاة والمعارضة والعامة وغيرهم، ورفع الحصيلة المتجمعة من الأخبار عنهم

إلى الخليفة للتحوط والحذر والتصرف ب شأنها حسب ما تملية الظروف والضرورات.

ومن المصادر التي كان صاحب الخبر يستقصي منها أخباره لإعلام الخليفة بها النساء والجواري والغلمان والخدم، مضافاً إليها ما يتعلّق بالعدو على صعيد القضايا العسكرية كالمسالح والمراصد. تلك هي المهام التي كان صاحب الخبر منفرداً بها دون صاحب البريد، وكلاهما ذو شأن لحماية الخلافة والخليفة كل في دائرة عمله.

المصادر وال SOURCES

المصادر والمراجع

المصادر المطبوعة:

- القرآن الكريم.
- الأَبْشِيهِي: شهاب الدين محمد بن أحمد أبي الفتح (ت: ٨٥٠ هـ / ١٤٤٦ م).
- المستطرف في كل فن مستطرف، دار إحياء التراث العربي، (بيروت: ١٩٨٠ م).
- ابن الأثير: عز الدين أبي الحسن علي بن محمد بن عبد الكريم الجوزي (ت: ٦٣٠ هـ / ١٢٣٣ م).
- الكامل في التاريخ، دار صادر، دار (بيروت: ١٩٦٦ م).
- ابن الإخوة القرشي: محمد بن محمد بن أحمد القرشي (ت: ٧٢٩ هـ / ١٣٣٨ م).
- معالم القرابة في أحكام الحسبة، مطبعة دار الفنون، كمبردج، ١٩٣٧ م.
- الإربلي: عبد الرحمن سبط ابن إبراهيم بن قنيتو (ت: ٧٢٩ هـ / ١٣٣٨ م).
- خلاصة الذهب المسبوك في مختصر سير الملوك، تحقيق، مكي السيد جاسم، مكتبة المثنى، (بغداد: ١٩٦٢ م).

- الأزدي: أبو زكريا بن محمد بن إياس (ت: ٩٤٥هـ / ٣٣٤م)
- تاريخ الموصل، تحقيق، الدكتور علي حبيبة، دار التحرير (القاهرة: ١٩٦٧م).
- ابن الأزرق: محمد بن علي بن محمد (ت: ٨٩٦هـ / ١٤٨٩م)
- بدائع السلوك في طبائع الملوك، تحقيق، الدكتور سامي النشار، دار الحرية للطباعة (بغداد: ١٩٧٧م).
- الأشعري: أبو الحسن علي بن إسماعيل (ت: ٣٢٠هـ / ٩٤١م)
- مقالات إسلاميين واختلاف المصلين، تحقيق، محمد محبي الدين، مكتبة النهضة المصرية (القاهرة: ١٩٥٠م).
- ابن أبي أصبيعة: موفق الدين أبي العباس أحمد بن القاسم بن خليفة بن يونس السعدي الخزرجي (ت: ٦٦٨هـ / ١٢٧٠م).
- عيون الأنبياء في طبقات الأطباء، تحقيق، الدكتور نزار رضا، دار مكتبة الحياة، (بيروت: ١٨٨١م).
- الأصفهاني: أبو الفرج علي بن الحسين بن محمد القرشي الأموي (ت: ٣٥٦هـ / ٩٦٧م).
- الأغاني، تحقيق عبد السلام أحمد فرج (بيروت: ١٩٦١م)، وتحقيق، حمزة حسين وإبراهيم الآبياري، ١٩٥٧م.
- مقاتل الطالبين، مطبعة الديوانى، (بغداد: ١٩٧٩م).
- الأصفهاني: حمزة بن الحسن (ت: ٣٦٠هـ / ٩٧٠م)
- تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء، مكتبة الحياة (بيروت: ١٩٦٦م).
- الأصفهاني: عماد الدين محمد بن صفي الدين الكاتب (ت: ٥٩٧هـ / ١٢٠٠م)
- الفتح القسي في الفتح القدسى، تحقيق، محمد محمود صبيح، الدار الفخرىة، (القاهرة: ١٩٦٢م).

- **الأبناري** : أبو البركات كمال الدين عبد الرحمن بن محمد ابن الأبناري
(ت: ١١٨١ هـ / ٥٧٧ م)
- نزهة الألباء في طبقات الأدباء ، تحقيق ، الدكتور إبراهيم السامرائي ،
مكتبة الأندلس (بغداد: ١٩٧٠ م).
- **الأندلسي** : أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي (ت:
١٠٦٣ هـ / ٤٥٦ م)
- جمهرة أنساب العرب ، تحقيق ، عبد السلام محمد هارون ، دار المعارف
(القاهرة: ١٩٨٢ م).
- **ابن الأعثم الكوفي** : أبو محمد أحمد بن الأعثم (ت: ٣١٤ هـ / ٩٢٦ م)
- كتاب الفتوح ، دار الندوة الجديدة ، (بيروت: د.ت).
- ألف ليلة وليلة ، مؤسسة الزين للطباعة والنشر ، طبع الدار العربية (بغداد:
١٩٧٩ م)
- **البحترى** : أبو عبادة الوليد بن عبيد بن يحيى البحترى (ت: ٢٨٥ هـ / ٨٩٨ م)
- ديوان البحترى ، تحقيق ، حسن كامل الصيرفى ، دار المعارف بمصر
(القاهرة: ١٩٦٣ م).
- **البغدادي** : أبو منصور عبد القادر بن طاهر بن محمد (ت: ٤٢٩ هـ / ١٠٣٧ م).
- الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية منهم ، دار الآفاق الجديدة (بيروت:
١٩٧٧ م)
- **البلاذري** ، أحمد بن يحيى بن جابر (ت: ٢٧٩ هـ / ٨٩٢ م)
- فتوح البلدان ، نشره ووضع ملحوظه ، الدكتور صلاح الدين
المنجد ، مكتبة النهضة المصرية ، مطبعة لجنة البيان العربي ، (القاهرة:
١٩٥٦ م).

- **البيهقي**: أبو الفضل محمد بن حسين دبیر (ت: ٤٧٧ هـ / ١٠٧٧ م).
- **تاريخ البيهقي**، ترجمة يحيى الخشاب وصادق نشأت، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، (بيروت: ١٩٨٢ م)، وطبعه (القاهرة: د.ت).
- **البيهقي**: إبراهيم بن محمد (ت: ٣٢٠ هـ / ٩٣٢ م).
- **المحاسن والمساوئ**، تحقيق، محمد أبو الفضل إبراهيم، دار صادر، (بيروت: ١٩٦٠ م).
- **التنوخي**: المحسن بن علي (ت: ٣٨٤ هـ / ٩٩٤ م).
- **كتاب الفرج بعد الشدة**، تحقيق، عبود الشالجي، دار صادر، بيروت: ١٩٧٨ م.
- **نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة**، تحقيق، عبود الشالجي (بيروت: ١٩٧٣ م).
- **ابن تغري بردي**: جمال الدين أبو المحاسن يوسف (ت: ٨٧٤ هـ / ١٤٧٠ م).
- **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**، مطبعة دار الكتب المصرية، (القاهرة: ١٩٢٩ م - ١٩٧٢ م).
- **التوحيدی**: أبو حیان علی بن محمد (ت: ٣٨٧ هـ / ٩٩٧ م).
- **البصائر والذخائر**، تحقيق، عبد الرزاق محیی الدین، مطبعة النجاح، (بغداد: ١٩٥٤ م).
- **ابن تیمیة**: أبو العباس أحمد (ت: ٧٢٨ هـ / ١٣٢٧ م).
- **السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية**، تحقيق، محمد إبراهيم البنا، ومحمد أحمد عاشور، مكتبة دار الشعب، (القاهرة: ١٩٧٠ م).

- **الشاعلي**: أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل (ت: ٤٢٩هـ / ١٠٣٧م)
- لطائف المعارف، تحقيق، الأبياري، وحسن كامل الصيرفي، مطبعة عيسى البابي الحلبي، (القاهرة: ١٩٦٠م)، وتحقيق، ثروت عكاشه (القاهرة: ١٩٦٠م).
- كتاب خاص الخاص، دار مكتبة الحياة (بيروت: ١٩٦٦م).
- ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، تحقيق، محمد أبو الفضل، دار نهضة مصر للطباعة والنشر (القاهرة: ١٩٦٥م).
- **الجاحظ**: عمرو بن بحر (ت: ٢٥٥هـ / ٨٦٨م).
- الحيوان، تحقيق، عبد السلام محمد هارون، مكتبة ومطبعة مصطفى الحلبي وأولاده (القاهرة: ١٩٦٥م).
- التاج في أخبار الملوك، تحقيق، أحمد زكي باشا، المطبعة الأميرية، (القاهرة: ١٩١٤م).
- **ابن الجوزي**: جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي (ت: ٥٩٧هـ / ١٢٠٠م).
- المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، مطبعة دار الوطنية للنشر والتوزيع، (بغداد: ١٩٩٠م).
- تلبيس إبليس، مكتبة الشرق الجديد، (بغداد: ١٩٨٣م).
- **الجهشياري**: أبو عبد الله محمد بن عبدوس (ت: ٣٣١هـ / ٩٤٢م).
- الوزراء والكتاب، بعناية السقا والأبخاري وشلبي، (القاهرة: ١٩٣٨م).
- **ابن أبي الحديد**: أبو حامد عز الدين عبد الحميد المدائني (ت: ٦٥٦هـ / ١٢٥٨م).
- شرح نهج البلاغة، تحقيق، محمد أبو الفضل إبراهيم، مطبعة عيسى البابي الحلبي، (القاهرة: ١٩٦٣م).

- الحموي : تقي الدين أبو بكر بن علي بن محمد بن حجة (ت: ٨٣٧هـ / ١٤٣٣م)
- ثمرات الأوراق ، صححه وعلق عليه ، محمد أبو الفضل إبراهيم ، مكتبة الخانجي بمصر ، الطبعة الأولى ، (القاهرة: ١٩٧١م).
- الحموي : ابن واصل (ت: ٦٩٧هـ / ١٢٩٧م)
- تجريد الأغاني ، تحقيق ، الدكتور طه حسين وإبراهيم الأبياري ، ق ١، ج ٣ ، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر (القاهرة: ١٩٥٧م)
- الحميري : أبو عبد الله محمد بن عبد المنعم الصنهاجي (ت: ٧٢٧هـ / ١٣٤٤م)
- الروض المعطار في خبر الأقطار ، تحقيق ، الدكتور إحسان عباس ، مكتبة لبنان ، (بيروت: ١٩٧٥م).
- ابن حوقل : أبو القاسم بن حوقل النصيبي (ت: ٣٦٧هـ / ٩٧٧م).
- صورة الأرض ، دار مكتبة الحياة ، (بيروت: ١٩٧٩م).
- ابن خرداذبة : أبو القاسم عبد الله بن عبد الله الخراساني (ت: ٢٨٠هـ / ٨٩٧م)
- المسالك والممالك ، طبعة بريل ، باعتناه (دي غويه، ١٨٨٩م)، أعادت مكتبة المثنى ببغداد طبعها بالأوفسيت.
- الخطيب البغدادي : الحافظ أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت الخطيب (ت: ٤٣٦هـ / ١٠٧٠م)
- تاريخ مدينة بغداد أو مدينة السلام ، دار الكتاب العربي ، (بيروت: د.ت)، وطبعه (القاهرة: ١٩٣١م).
- ابن خلدون : أبو زيد عبد الرحمن بن محمد (ت: ٨٠٨هـ / ١٤٠٦م)
- العبر وديوان المبتدأ والخبر (تاريخ ابن خلدون) ، دار البيان ، (بغداد: د.ت).

- ابن خلkan: أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد أبي بكر بن خلkan
(ت: ٦٨١ هـ / ٢٨٢ م).
- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق، الدكتور إحسان عباس، دار الصادر، (بيروت: ١٩٧٢ م و ١٩٧٧ م).
- الخوارزمي: أبو عبد الله محمد بن أحمد بن يوسف الكاتب
(ت: ٣٨٧ هـ / ٩٩٧ م)
- مفاتيح العلوم، مطبعة الشرق، (القاهرة: ١٩٢٣ م)
- ابن الداية: أبو جعفر أحمد بن يوسف الكاتب (ت: ٣٤٠ هـ / ٩٥١ م)
- المكافأة، المطبعة الأميرية، (القاهرة: ١٩٤١ م).
- ابن دحية الكلبي: أبو الخطاب عمر بن أبي علي حسن بن علي البلنسي
(ت: ٦٣٣ هـ / ١٢٣٥ م)
- النبراس في تاريخ خلفاءبني العباس، تحقيق، عباس العزاوي، مطبعة المعارف (بغداد: ١٩٤٦ م).
- الدميري: كمال الدين محمد بن موسى (ت: ٨٠٨ هـ / ٨٩٥ م)
- حياة الحيوان الكجرى، دار الفكر للطباعة والنشر، (بيروت: د.ت)
- الدينوري: أبو حنيفة أحمد بن داود (ت: ٢٨٢ هـ / ٨٩٥ م)
- الأخبار الطوال، تحقيق عبد المنعم عامر، (القاهرة: ١٩٦٢ م).
- الدينوري: ابن قتيبة عبد الله بن مسلم (ت: ٢٧٦ هـ / ٨٨٩ م)
- الإمامة والسياسة، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر (القاهرة: ١٩٦٣ م).
- عيون الأخبار، الهيئة المصرية العامة، (القاهرة: ١٩٧٣ م).

- الذهبي : أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز التركماني (ت: ١٣٤٨هـ / ١٧٤٨م)
- العبر في خبر من غبر ، تحقيق ، صلاح الدين المنجد ، دار المطبوعات والنشر في الكويت والتراث العربي ، (الكويت: ١٩٦٠م).
- الرازي : محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي (ت: ١٢٦٦هـ / ١٩٨٣م)
- مختار الصحاح ، دار الرسالة (الكويت: ١٩٨٣م).
- ابن أبي الربيع : شهاب الدين أحمد بن محمود بن أبي الربيع (ت: ٢٧٢هـ / ٨٨٥م)
- سلوك الممالك في تدبير الممالك ، تحقيق ، الدكتور سامي النشار ، (بغداد: ١٩٧٧م) وطبعه أخرى تحقيق ، ناجي التكريتي ، (بيروت: ١٩٧٨م).
- شيخ الربوة : شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي طالب الأنصار الدمشقي (ت: ٧٢٧هـ / ١٣٢٦م)
- نخبة الدهر في عجائب البر والبحر ، باعتناء ، أ.ف. ميهرن ، (لايزك: ١٩٢٣م).
- ابن رسته : أبو علي أحمد بن عمر (ت: بعد سنة ٢٩٠هـ / ٩٠٣م)
- الأعلاق النفيسة ، طبعة ليدن ، (بريل: ١٨٩١م) ، أعادت طبعه بالأوفسيت مكتبة المثنى ، بغداد.
- الزبيدي : محمد مرتضى الحسين الواسطي (ت: ١٢٠٦هـ / ١٧٩١م)
- تاج العروس في جواهر القاموس ، منشورات دار مكتبة الحياة (بيروت: د.ت.).
- الزمخشري : أبو القاسم جار الله محمد بن عمر (ت: ٥٣٨هـ / ١١٤٤م)
- أساس البلاغة ، تحقيق ، عبد الرحيم محمود ، مطبعة أولاد أورفائد ، (القاهرة: ١٩٥٣م)

- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجود التأويل ، دار الفكر للطباعة والنشر (بيروت : د.ت).
- ابن الساعي : أبو طالب علي بن أنجب تاج الدين ابن الساعي الخازن (ت : ٦٧٤ هـ / ١٢٧٥ م)
- مختصر أخبار الخلفاء ، المطبعة الأميرية ، (القاهرة : ١٨٩١ م).
- سبط ابن الجوزي : شمس الدين المظفر يوسف قزهاؤغلي التركي (ت : ٦٥٤ هـ / ١٢٥٦ م)
- مرآة الزمان في تاريخ الأعيان ، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر أباد الدكن : (١٩٥١ م).
- السبكي ، تاج الدين عبد الوهاب بن تقى الدين (ت : ٧٧١ هـ / ١٣٦٩ م)
- معید النعم ومبید النقم ، تحقيق ، محمد علي النجار وآخرين ، دار الكتاب العربي (القاهرة : ١٩٤٨ م)
- ابن سعد : محمد بن سعد (ت : ٢٣٠ هـ / ٨٤٤ م)
- الطبقات الكبرى ، دار صادر ، (بيروت : ١٩٦٠ م) وطبعه (اليدن : ١٩٠٠ م).
- السكتواري : علاء الدين علي دده (ت : ١٠٠٧ هـ / ١٥٩٨ م)
- محاضرة الأوائل ومسامرة الآخر ، بولاق ، (القاهرة : ١٨٨٢ م).
- السمعاني : أبو سعد عبد الكريم بن محمد بن منصور (ت : ٥٦٢ هـ / ١١٦٦ م)
- الأنساب ، تحقيق ، الشيخ عبد الرحمن بن يحيى المعلمي اليماني ، الناشر محمد أمين (بيروت : ١٩٨٠ م).

- ابن سيده: أبو الحسن علي بن إسماعيل النحوي اللغوي الأندلسي (ت: ١٠٦٦ هـ / ١٥٤٥ م) .
- كتاب المخصص ، المكتب التجاري للطباعة والتوزيع والنشر ، (بيروت: د.ت).
- السهيلي: عبد الرحمن بن أحمد (ت: ١١٨٥ هـ / ٥٨١ م).
- الروض الأنف في تفسير السيرة النبوية لابن هشام ، دار المعرفة (د.م: ١٩٧٨ م).
- السيوطي: جلال الدين عبد الرحمن السيوطي (ت: ٩١١ هـ / ١٥٠٥ م).
- تاريخ الخلفاء ، تحقيق ، محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار الفكر العربي ، (القاهرة: ١٩٧٥ م).
- الوسائل إلى مسامرة الأوائل ، تحقيق ، الدكتور أسعد طلس ، مطبعة النجاح ، (بغداد: ١٩٥٠ م).
- أبو شجاع: الوزير محمد بن الحسين ظهر الدين الروذراوري (ت: ١٠٩٥ هـ / ٤٨٨ م).
- ذيل كتاب تجارب الأمم ، الجزء الثالث في سياق توارييخ طبعة ، هـ.ق ام دروز ، شركة التمدن الصناعية ، (القاهرة: ١٩٢٦ م).
- الشهرستاني: أبو الفتح محمد بن عبد الكريم (ت: ١١٥٣ هـ / ٥٤٨ م).
- كتاب الملل والنحل ، دار المعرفة للطباعة والنشر ، (بيروت: ١٩٧٥ م).
- الصابئ: أبو الحسين هلال بن المحسن بن إبراهيم (ت: ٤٤٨ هـ / ١٠٥٦ م).
- رسوم دار الخلافة ، تحقيق ميخائيل عواد ، مطبعة العاني (بغداد: ١٩٦٤ م).
- تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء ، تحقيق ، عبد الله مخلص ، (القاهرة: ١٩٥٨ م).

- الصابي: أبو الحسن محمد بن هلال الصابي (ت: ٤٨٠ هـ / ١٠٨٧ م).
- الھفوات النادرة، تحقیق، الدكتور صالح الأشتر، مطبوعات مجمع اللغة العربية، (دمشق، ١٣٨٧ هـ / ١٩٦٧ م).
- الصفدي: صلاح الدين خليل ایيك (ت: ٧٦٤ هـ / ١٣٦٣ م).
- نکت الھمیان فی نکت العینان، المطبعة الجمالية (القاهرة: ١٩١١ م).
- الواfi بالوفیات، باعتناء س. دیدرینتیغ، فرانز شتایز، (القاهرة: ١٩٧٤ م).
- الصولی: أبو بكر محمد بن يحيى الصولی (ت: ٣٣٥ هـ / ٩٤٦ م).
- أخبار الراضي بالله والمتقى لله من كتاب الأوراق، عني بنشره، ج. هیورث، دن، دار المسیرة، (بیروت: ١٩٧٩ م).
- الظاهري: غرس الدين خليل بن شاهين (ت: ٨٧٣ هـ / ١٤٦٧ م).
- زبدة کشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، اعتنی بتصحیحه، بولس راولیس، المطبعة الجمهورية، (باریس: ١٨٩٤ م).
- الطبری: أبو جعفر محمد بن جریر (ت: ٣١٠ هـ / ٩٢٢ م).
- تاريخ الرسل والملوك، تحقیق، محمد أبو الفضل، دار المعارف، (القاهرة: ١٩٦٦ م).
- ابن الطقطقی: محمد بن علي بن طباطبا (ت: ٧٠٩ هـ / ١٣٠٩ م).
- الفخري في الآداب السلطانية والدولة الإسلامية، مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح وأولاده بالأزهر، (القاهرة: ١٩٦٢ م).
- ابن طیفور: أبو الفضل أحمد بن أبي طاهر (ت: ٢٨٠ هـ / ٨٩٣ م).
- تاريخ بغداد، صححه وعلق عليه الشيخ محمد زاہد الحسن الكوثری، نشر وطبع السيد عزت العطار الحسينی، (بغداد: ١٩٤٩ م).

- أبو العتاهية: أبو إسحاق إسماعيل بن القاسم المعروف بأبي العتاهية الشاعر (ت: ٢١٣ هـ / ٨٢٨ م).
- أشعاره وأخباره، شكري فيصل، مطبعة جامعة دمشق (دمشق: ١٩٦٥ م).
- العباسى: الحسن بن عبد الله بن محمد بن عمر بن العباس (بدأ بتأليفه سنة ٧٠٨ هـ / ١٣٠٨ م).
- آثار الأول في تاريخ الدول، مطبعة بولاق، (القاهرة: ١٨٧٨ م).
- ابن عبد ربه: أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسى (ت: ٣٢٨ هـ / ٩٣٩ م).
- العقد الفريد، تحقيق، محمد سعيد العريان، دار الفكر، (القاهرة: ١٩٥٣ م).
- ابن العبرى: أبو الفرج غريغوريوس أهرون السلفي (ت: ٦٨٥ هـ / ١٢٨٦ م).
- تاريخ مختصر الدول، الطبعة الثانية، المطبعة الكاثوليكية، (بيروت: ١٩٥٨ م).
- ابن عساكر: كمال الدين أبو القاسم عمر بن أحمد بن هبة الله (ت: ١١٧١ هـ / ٥٧١ م).
- تهذيب تاريخ دمشق الكبير، تحقيق، تهذيب عبد القادر بدران، دار المسيرة، (بيروت: ١٩٧٩ م).
- العسقلانى: الحافظ أبو الفضل شهاب الدين أحمد بن حجر (ت: ٤٤٨ هـ / ٨٥٢ م).
- فتح الباري، بشرح صحيح الإمام البخاري، المطبعة الكبرى الأميرية بولاق، (القاهرة: ١٨٨٢ م).

ابن العماد الحنبلي: أبو الفلاح عبد الحي بن العماد الحنبلي
(ت: ١٠٨٩ هـ / ١٦٧٨ م).

شذرات الذهب في أخبار من ذهب، حيدر أباد، (الدكن: ١٩٣١ م).

- **ابن العمري**: محمد بن علي بن محمد (ت: ٥٨٠ هـ / ١١٨٤ م)

الأنباء في تاريخ الخلفاء، تحقيق، الدكتور قاسم السامراني، (ليدن: ١٩٧٣ م).

- **العمري**: شهاب الدين أحمد بن فضل الله العمري (ت: ٧٤٩ هـ / ١٣٤٩ م)

- التعريف بالمصطلح الشريف، مطبعة العاصمة، (القاهرة: ١٨٩٤ م).

- **الفراهيدي**: الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت: ١٧٥ هـ / ٧٨٢ م).

-- كتاب العين، تحقيق، مهدي المخزومي، إبراهيم السامراني، دار الحرية للطباعة (بغداد: ١٩٨٦ م).

- **ابن الفوطي**: أبو الفضل كمال الدين عبد الرزاق البغدادي (ت: ٧٢٣ هـ / ١٣٢٢ م)

- الحوادث الجامعية والتجارب النافعة في المائة السابعة المنسوب إلى ابن الفوطي، تحقيق، الدكتور مصطفى جواد، مطبعة الفرات، (بغداد: ١٩٣٢ م).

- **الفيلوز أبيادي**: مجذ الدين محمد بن يعقوب (ت: ٧٢٩ هـ / ١٣١٨ م).

- القاموس المحيط، دار الجليل، (بيروت: د.ت).

- **الفيومي**: أحمد بن محمد بن علي المقربي (ت: ٧٧٠ هـ / ١٣٦٨ م).

- المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، صححه مصطفى السقا، المطبعة الأميرية (القاهرة: ١٩٥٠ م).

- قدامة بن جعفر: أبو الفرج الكاتب البغدادي (ت: ١٩٣١ هـ / ٢٠٥٣ م).
- الخراج وصنعة الكتابة، شرح وتعليق، الدكتور محمد حسين الزبيدي، دار الحرية (بغداد: ١٩٦٠ م).
- القرطبي: أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أحمد الأنصاري (ت: ١٢٧٧ هـ / ٧٦٢ م).
- الجامع لأحكام القرآن، دار الفكر، (بيروت: د.ت).
- القرطبي: عریب بن سعید القرطبي (ت: ٢٦٦ هـ / ٨٧٩ م).
- صلة تاريخ الطبری، تحقيق، محمد أبو الفضل، دار المعارف، (القاهرة: ١٩٨٢ م).
- القزوینی: ذکریا بن محمد بن محمود (ت: ٢٨٢ هـ / ١٢٨٣ م).
- آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر، دار بيروت، (بيروت: ١٩٦٠ م).
- القفطی: جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف (ت: ٤٦٦ هـ / ١٢٤٦ م).
- إنباء الرواۃ على أبناء النهاة، تحقيق، محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الكتب المصرية (القاهرة: ١٩٥٠-١٩٥٥ م).
- أخبار العلماء بأخبار الحكماء، (لیزک: ١٩٠٣ م).
- القلقشندی: أبو العباس أحمد بن علي (ت: ٨٢١ هـ / ١٤١٨ م).
- صبح الأعشى في صناعة الإنسا، نسخة مصورة عن الطبعة الأميرية، (القاهرة: ١٩٦٣ م).
- مآثر الإنابة في معالم الخلافة، تحقيق، عبد الستار أحمد فراج، تراث العربي، (الكويت: ١٩٥٦ م).
- ابن الكارزوني: ظهیر الدین علی بن محمد (ت: ٦٩٧ هـ / ١٢٩٧ م).
- مختصر التاريخ من أول الزمان إلى منتهی دولة بنی العباس، تحقيق، الدكتور مصطفی جواد، (بغداد: ١٩٧٠ م).

- الكتبى : محمد بن شاكر بن أحمد الحلبي (ت: ١٣٦٣هـ / ٧٦٤).
فوات الوفيات ، تحقيق ، الدكتور إحسان عباس ، دار صادر ، (بيروت: ١٩٧٣م).
- ابن كثير : عماد الدين إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي
(ت: ١٣٧٢هـ / ٧٧٤).
- البداية والنهاية في التاريخ ، مطبعة السعادة ، (القاهرة: ١٩٣٢م).
- الكلبي : أبو المنذر هشام بن محمد بن السائب الكلبي (ت: ٢٠٤هـ / ٨١٩).
- جمهرة النسب ، تحقيق ، ناجي حسن ، مكتبة النهضة المصرية ،
(القاهرة: ١٩٨٦م).
- الماوردي : أبو الحسن علي بن محمد حبيب البصري البغدادي (ت:
١٠٥٨هـ / ٤٥٠).
- الأحكام السلطانية والولايات الدينية ، مطبعة السعادة ، مصطفى البابي
الحلبي ، (القاهرة: ١٩٦٦م).
- المرتضى : أحمد بن يحيى (ت: ١٤٣٦هـ / ٨٤٠).
- كتاب طبقات المعتزلة ، تحقيق ، سوستة ريفلد ، فلزر ، نشر فرانزشتايز ،
فيسبادن ، (بيروت: ١٩٦١م).
- ابن المعتز : عبد الله بن المعتز بن المتوكل بن المعتصم بن هارون الرشيد
(ت: ٢٩٦هـ / ٩٠٨).
- طبقات الشعراء ، تحقيق ، عبد الستار أحمد فراج ، دار المعارف
(القاهرة: ١٩٨١م).
- المسعودي : أبو الحسن علي بن الحسين بن علي (ت: ٣٤٦هـ / ٩٥٦).
- مروج الذهب ومعادن الجوهر ، تحقيق ، محمد محبي الدين
عبد الحميد ، مطبعة السعادة (القاهرة: ١٩٤٨م).

- التنبيه والاشراف، مكتبة خياط، (بيروت: ١٩٧٥م و ١٩٨١م).
- مسکویه: أبو علي محمد بن أحمد بن يعقوب (ت: ٤٢١ هـ / ١٠٣٠ م).
- تجارب الأمم وتعاقب الهمم، (ليدن: ١٨٧١م)، أعادت طبعه مكتبة المثنى ببغداد.
- المقدسي البشاري: أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أحمد (ت: ٣٨٧ هـ / ٩٩٧ م)
- أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، مطبعة بريل (ليدن: ١٩٠٦م)،
أعادت طبعه بالأوفسيت مكتبة المثنى ببغداد.
- المقدسي: مظهر بن طاهر (ت: ٣٥٥ هـ / ٩٦٧ م)
- البدء والتاريخ، باعتماء، كلمان هوار، بغداد، أوڤسيت، د.ت.
- المقرizi: تقى الدين أحمد بن علي (ت: ٨٤٥ هـ / ١٤٤٢ م)
- الموعظ والاعتبار بذكر الخطوط والآثار، دار صادر، طبعة مصورة
 بالأوفسيت عن طبعة بولاق، (بيروت: ١٨٥٣م).
- المناوي: الشيخ عبد القادر (ت: ١٠٢٢ هـ / ١٦١٣ م)
- الكواكب الدرية في تراجم السادة الصوفية، نشره وصححه وعلق عليه،
 محمود ربيع، مطبعة الأزهر (القاهرة: ١٩٣٨م).
- ابن منظور: أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم (ت: ٧١١ هـ / ١٣١١ م)
- لسان العرب، دار صادر، (بيروت: ١٩٥٦م).
- مؤلف مجهول:
- كتاب العيون والحدائق في أخبار الحقائق، نشر دغویه، طبعة بريل،
(ليدن: ١٨٧١م)، وأعادت طبعه مكتبة المثنى ببغداد.

- ابن النديم: محمد بن إسحاق (ت: ٩٩٤هـ / ١٣٨٣ م).
- تاريخ بخاري، ترجمة، أمين عبد المجيد بدوي، نصر الله مبشر الطرازي، (القاهرة: ١٩٦٥م).
- الكندي: أبو عمر محمد بن يوسف الكندي (ت: ٣٥٠هـ / ٩٦١م).
- كتاب الولاية والقضاة، مهذباً ومصححاً بقلم رفن گست، طبع بمطبعة الآباء اليسوعيين (بيروت: ١٩٠٨م).
- الهرثمي: أبو سعيد الشعرياني صاحب المأمون (من القرن الثالث الهجري).
- مختصر سياسة الحروب، تحقيق، عبد الرؤوف عوني، (القاهرة: ١٩٦٤م).
- الhero: علي بن أبي بكر الhero (ت: ٦١١هـ / ١٢١٤م).
- تذكرة الheroية في الحيل الحربية، تحقيق مطيع مرابط، منشورات وزارة الثقافة، (دمشق، ١٩٧٢م).
- الهمداني: محمد بن عبد الملك (ت: ٥٢١هـ / ١١٢٧م).
- تكميلة تاريخ الطبرى، تحقيق، محمد أبو الفضل، دار المعارف، (القاهرة: ١٩٨٢م).
- ورام الاشتري: أبو الحسين ورام بن أبي فراس المالكي (ت: ٦٠٥هـ / ١٢٠٨م).
- تنبيه الخواطر ونزهة النواظر، عنى بنشره، الشيخ محمد الأخوندي، چایخانه حیدری، (تهران: د.ت.).

- ابن الوردي : الشيخ زين الدين عمر بن الوردي (ت: ٧٤٩ هـ / ١٣٤٨ م)
- تاريخ ابن الوردي المسمى (تمة المختصر في تاريخ البشر)، تحقيق، أحمد رفعت البداري ، دار المعارف ، (بيروت: ١٨٤٢ م).
- اليافعي : عفيف الدين عبد الله بن أسعد اليافعي اليمني (ت: ٧٦٨ هـ / ١٣٦٦ م)
- مرآة الجنان وعبرة اليقطان في معرفة حوادث الزمان ، تحقيق ، عبد الله الجبوري ، مؤسسة الرسالة ، (بيروت: ١٩٨٤ م).
- ياقوت الحموي الرومي : شهاب الدين أبو عبد الله (ت: ٦٢٦ هـ / ١٢٢٨ م)
- معجم الأدباء المسمى (إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب) ، دار إحياء التراث العربي ، (بيروت: ١٩٣٨ م).
- معجم البلدان ، دار المستشرق ، (بيروت: د.ت).
- المشترك وضعاً والمفترق صقعاً، طبعة (جونتجهن: ١٨٤٦ م)، أعادت طبعه بالأوقيت مكتبة المثنى (بغداد).
- اليعقوبي : أحمد بن يعقوب بن جعفر بن وهب (ت بعد: ٢٩٢ هـ / ٩٠٥ م)
- تاريخ اليعقوبي ، دار صادر ، دار بيروت ، (بيروت: ١٩٦٠ م).
- أبو يوسف : يعقوب بن إبراهيم (ت: ١٩٢ هـ / ٨٠٨ م)
- كتاب الخراج ، المطبعة السلفية ، (القاهرة: ١٩٦٢ م).
- اليونيني : موسى بن محمد بن أحمد بن قطب الدين (ت: ٧٢٦ هـ / ١٣٢٦ م)
- ذيل مرآة الزمان ، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية ، حيدر آباد ، (الدكن: ١٩٥٤ م).

المصادر الفارسية:

- الملك: خواجه نظام الملك (ت: ١٥٣٥ هـ / ١٩٤٢ م)
- كتاب سياسة نامة (سير الملوك)، باعتناء عطاء الله تدين، انتشارات تهران، (تهران: ١٩٥٣ م).
- ميرخوند: محمد بن خاوند شاه بلخي (ت: ٢٤٠ هـ / ٨٥٤ م)
- تهذيب وتلخيص دکر عباس زریان، چابخانه‌ی مهارات، تهران: ١٩٥٠ م.

المراجع العربية والمصرية الحديثة:

- إبراهيم العدوی (الدكتور): السفارات الإسلامية إلى أوروبا، مكتبة النهضة المصرية، (القاهرة: ١٩٥٧ م).
- أحمد أمين: ظهر الإسلام، دار الكتاب العربي، (القاهرة: ١٩٦٢ م).
- أحمد زكي صفت: جمهرة خطب العرب في عصور العرب الظاهرة العصر العباسي الأول، مكتبة ومطبعة البابي الحلبي وأولاده بمصر، (القاهرة: ١٩٦٢ م).
- أحمد محمد الشحاذ: الملامح السياسية في حكايات ألف ليلة وليلة، منشورات وزارة الإعلام، الجمهورية العراقية، (بغداد: ١٩٧٧ م).
- أحمد فريد الرفاعي (الدكتور): عصر المأمون، مطبعة دار الكتب المصرية، (القاهرة: ١٩٢٨ م).
- أحمد شلبي (الدكتور): التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية، مكتبة النهضة المصرية (القاهرة: ١٩٧٨ م).
- أحمد مختار العبادي (الدكتور): قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام، (الإسكندرية: ١٩٨٢ م).

- ارسن موسى رشيد (الدكتور): الشرطة في العصر الأموي، مكتبة السنديس للطباعة والنشر والتوزيع، (الكويت: ١٩٩٠م).
- بارتولد (فاسيلي فلاديمير فتش): تاريخ الحضارة الإسلامية، ترجمة حمزه طاهر (القاهرة: ١٩٦٨م).
- بخش (خودا): الحضارة الإسلامية، ترجمة د. علي حسني الخربوطي، دار الكتب الحديثة، (القاهرة: ١٩٦٠م).
- بدري محمد فهد (الدكتور): العامة في بغداد في القرن الخامس الهجري، مطبعة الإرشاد، (بغداد: ١٩٦٧م).
- بروكلمان، كارل: تاريخ الشعوب الإسلامية، ترجمة، نبيه أمين فارس ومنير البعليكي، دار العلم للملايين، (بيروت: ١٩٧٧م).
- جب، هاملتون: دراسات في حضارة الإسلام، ترجمة إحسان عباس، دار العلم للملايين (بيروت: ١٩٦٤م).
- جرجي زيدان (الدكتور): تاريخ التمدن الإسلامي، مطابع مؤسسة دار الهلال، (القاهرة: ١٩٦٨م).
- جرنفيل، فريمان: التقويمان الهجري والميلادي، ترجمة، د. حسام الدين الألوسي، الطبعة الثانية، مطبعة الجمهورية، (بغداد: ١٩٨٦م).
- جهادية القره غولي (الدكتورة): العقلية العربية في التنظيمات الإدارية والعسكرية في العراق والشام خلال العصر العباسي الأول ١٣٢-٢٣٢هـ، دار الحرية للطباعة (بغداد: ١٩٨٦م).
- حسن إبراهيم حسن (الدكتور): تاريخ الإسلام السياسي والديني والاجتماعي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٧٤م، (بيروت: ١٩٦٧م).
- حسين علي المسرى (الدكتور): تجارة العراق في العصر العباسي، ذات السلسل، والكويت: ١٩٨٢م).

- خالد جاسم الحنابي (الدكتور): تنظيمات الجيش العربي الإسلامي في العصر الأموي، دار الحرية للطباعة، (بغداد: ١٩٨٤م).
- أبو زيد شلبي: تاريخ الحضارة الإسلامية والفكر الإسلامي، مطبعة الاستقلال الكبرى، (القاهرة: ١٩٦٤م).
- رمزية محمد الأطرقجي (الدكتورة): الحياة الاجتماعية في بغداد منذ نشأتها حتى نهاية العصر العباسي الأول، مطبعة الجامعة، (بغداد: ١٩٨٢م).
- سامي مكي العاني (الدكتور): معجم ألقاب الشعراء، مطبعة النعمان، (النجف: ١٩٧١م).
- سعد إبراهيم الأعظمي: جرائم التجسس في التشريع العراقي، جامعة الموصل، (الموصل: ١٩٨١م).
- سعيد الجزائري: ملف الثمانينات عن حرب المخابرات، مطبعة الشام، دار دمشق الكبير للنشر والتوزيع (دمشق: ١٩٨٨م).
- سعيد عبد الفتاح عاشور (الدكتور): دراسات في تاريخ الحضارة الإسلامية، منشورات ذات السلسل، الطبعة الثانية، (الكويت: ١٩٨٦م).
- سميرة مختار الليثي: الزندقة والشعوبية وانتصار الإسلام والعربية، المطبعة الفنية الحديثة، (القاهرة: ١٩٣٨م).
- سهام عبد الوهاب الفريح (الدكتورة): الجواري والشعر في العصر العباسي الأول، شركة الريان للنشر والتوزيع (الكويت: ١٩٨١م).
- صلاح الدين المنجد (الدكتور): بين الخلفاء والخلعاء، دار الحياة، (بيروت: ١٠٥٧م و ١٩٧٤م).

- عبد الجبار الجومرد (الدكتور): داهية العرب أبو جعفر المنصور، مطبعة دار الكتب، (بيروت: ١٩٥٦م).
- هارون الرشيد، المكتبة العمومية، (بيروت: ١٩٥٦م).
- عبد العزيز الدوري (الدكتور): تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري، مطبعة المعارف، (بغداد: ١٩٤٨م).
- العصر العباسي الأول، دراسة في التاريخ السياسي والإداري والمالي، مطبعة التفيف الأهلية، (بغداد: ١٩٤٥م).
- عبد الكريم الأشتر (الدكتور): دعبد بن علي الخزاعي شاعر آل البيت، دراسة تحليلية لحياته وشعره، دار الفكر، (دمشق: ١٩٦٤م).
- عبد المنعم ماجد (الدكتور): تاريخ الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى الإسلامية، دار الشؤون الثقافية العامة، (بغداد: ١٩٨٤م).
- عبد النعيم محمد حسين (الدكتور): دولة السلاجقة، مكتبة الأنجلو المصرية، (القاهرة: ١٩٧٥م).
- عجمي محمود خطاب الجنابي (الدكتور): هارون الرشيد ومؤسسات الخلافة في عهده، ١٧٠-١٩٣هـ، بيت الحكم، (بغداد: ١٩٨٩م).
- فخرى الزبيدي: الموجز المنتخب من حوادث وأخبار هارون الرشيد، مطبعة أركان (بغداد: ١٩٨٨م).
- فرا، غود. م: النظم الإسلامية، ترجمة، د. فيصل السامر، د. صالح الشمام، (بيروت: ١٩٦١م).
- فروبنباوم، غوستاف فون: شعراء عباسيون، ترجمتها الدكتور محمد يوسف، وراجعها الدكتور إحسان عباس، دار مكتبة الحياة، (بيروت: ١٩٥٩م).
- فيليب حتى وأخرون: تاريخ العرب، مطبعة التفيف، (بيروت: ١٠٧٤م).

- قحطان عبد الستار الحديسي (الدكتور): أربعاء خراسان، مطبع دار الحكمة للطباعة والنشر، (البصرة: ١٩٩٠م).
- متز، آدم: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ترجمة عبد الهادي أبو ريدة، مطبعة لجنة التأليف، (القاهرة: ١٩٥٧م).
- محمد حسين الأعرجي: جهاز المخابرات في الحضارة الإسلامية، دار المدى للثقافة والنشر، (دمشق: ١٩٩٨م).
- محمد جابر عبد العال (الدكتور): حركات الشيعة المتطرفين وأثرهم في الحياة الاجتماعية والأدبية لمدن العراق إبان العصر العباسي الأول، مطبعة السنة المحمدية، (القاهرة: ١٩٥٤م).
- محمد عبد الستار عثمان (الدكتور): المدينة الإسلامية، مراكز الكتب الثقافية، مطبع الرسالة، (الكويت: ١٩٨٨م).
- محمد جمال الدين سرور (الدكتور): تاريخ الحضارة الإسلامية في المشرق، دار الثقافة العربية للطباعة، (القاهرة: ١٩٦٥م).
- محمد حسين الزبيدي (الدكتور): العراق في العصر البويهي ٣٣٤-٤٤٧ هـ، دار النهضة العربية، المطبعة العالمية (القاهرة: ١٩٦٩م).
- محمود إسماعيل (الدكتور): تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، مكتبة الفلاح للنشر والتوزيع، (الكويت: ١٩٩٠م).
- مجموعة المؤلفين: حضارة العراق، دار الحرية للطباعة، (بغداد: ١٩٨٥م).
- محسن محمد حسين (الدكتور): الجيش الأيوبي في عهد صلاح الدين، تركيبة، تنظيمه، بحريته وأبرز المعارك التي خاضها، مؤسسة الرسالة، (بيروت: ١٩٨٦م).
- منير العجلاني: عبقرية الإسلام في أصول الحكم، (دمشق: ١٩٦٣م).

- موفق سالم نوري: العلاقات العباسية البيزنطية ١٣٢-٢٤٧ هـ / ٧٥٠ م. دار الشؤون الثقافية العامة، (بغداد: ١٩٩٠ م).
- مولود حسيني: الإدارة العربية، ترجمة، إبراهيم أحمد العدوى، (القاهرة: ١٩٥٨ م).
- نادية حسني صقر (الدكتورة): السلم في العلاقات العباسية البيزنطية في العصر العباسي الأول، جامعة أم القرى: ١٩٨٥ م).
- نظير حسان سعداوي: نظام البريد في الدولة الإسلامية، (القاهرة: ١٩٥٣ م).
- نعمان ثابت: الجندي في الدولة العباسية، مطبعة أسعد، (بغداد: ١٩٥٦ م).
- العسكرية في عهد العباسين، (بغداد: ١٩٦٣ م).
- نهاد عباس شهاب الجبوري: تدابير الأمن العسكري في صدر الإسلام، دار الحرية للطباعة، (بغداد: ١٩٨٩ م).
- واجدة مجید عبد الله الأطرقجي (الدكتورة): المرأة في أدب العصر العباسى، دار الرشيد (بغداد: ١٩٨١ م).
- يوسف حسن غوانمة: التاريخ الحضاري لشرق الأردن في العصر المملوكي، دار الفكر للنشر والتوزيع، مطبعة الشرق، (عمان: ١٩٨٢ م).

الموسوعات:

- دائرة المعارف الإسلامية، المطبعة الجديدة، ترجمة إبراهيم زكي، الطبعة الثانية، مطبعة دار الشعب، (القاهرة، مجل ٧، ١٩٦٩ م).
- هارتمان، مادة بريد.
- دائرة المعارف الإسلامية، دار الشعب، (القاهرة، مجل ١٠، د.ت).
- أحمد ستناوي وأخرون، مادة جاسوس.

الرسائل والأطارات الجامعية غير المنشورة:

- أحمد عبد العزيز محمود: الأمن في بغداد خلال العصر العباسي الأول ١٤٥-٢٤٧هـ، أطروحة دكتوراه مكتوبة على الآلة الطابعة، كلية الآداب، (جامعة صلاح الدين: ١٩٩٨م).
- عطا سلمان جاسم: الاستنفار للجهاد والاستجابة له في الدولة العربية الإسلامية حتى نهاية القرن الثالث الهجري، أطروحة دكتوراه مكتوبة على الآلة الطابعة، كلية الآداب (جامعة بغداد: ١٩٩٠م).
- نه به ز مجید أمین: الاستخبارات الأيوبيّة في عهد صلاح الدين، أطروحة دكتوراه مكتوبة على الآلة الطابعة، كلية الآداب، (جامعة صلاح الدين: ١٩٩٧م).

الدوريات:

- إبراهيم أحمد العدوي (الدكتور): الحمام الزاجل في العصور، المجلة التاريخية، العدد (٢)، المجلد (٢)، (القاهرة: ١٩٤٩م).
- حسين علي الداقوقى (الدكتور): نظام البريد في الحضارة الإسلامية، مجلة المورد، العدد (١٨)، (بغداد: ١٩٨٩م).
- دريد عبد القادر نوري (الدكتور): الشرطة في العراق في العصر العباسي الأول، مجلة المؤرخ العربي، العدد (٢٩) (بغداد: ١٩٨٦م).
- عبد الواحد ذنون طه (الدكتور): صاحب الخبر وأهل الأخبار، مجلة الشرطة، العدد (٣١)، (بغداد: ١٩٧٥م).
- كامل مصطفى الشيبى (الدكتور): أصحاب الأخبار أو رجال المخابرات في التراث العربي حتى سقوط الدولة العباسية، آفاق عربية، العدد (٧)، (بغداد: ١٩٨٢م).
- محمد مستجاب: البريد، مجلة العربي، (الكويت: ١٩٩٨م).

- Boissannads: Lelra Vall dan L'Europe Chrétienne au Moyen Âge, Paris, 1921.
- Buckler. (R.W.M.A): Harunu, L. Rashid and Charles the Great the Massachusetts, 1931.
- Elipesseds Nikita: Larent Musulman au Moyen Age, bzz, 1260, 1977.
- Hugeney, Pierre: Droit Penal étude Procédure Penale Militaires, Paris, 1940.
- Kremer, J.M: Orient under the Califate, Calcuta, 1920.
- Levy Reuben: The Social Struture of Islam, Cambridge, 1965.
- Mazaheri Ali: Orta Cogda Musulman Larin Yasayis - Lartre, D.R. Bahrye Uook, Istanbul, 1951.

228

فهرس المحتويات

٥٢	ثالثاً: أنواع البريد	٥	الإهداء
٥٢	أ- البريد البري	٩	المقدمة ومنهج البحث
:	ب- البريد الجوي:	١٣	تحليل المصادر
٥٨	(الحمام الزاجل)	١٩	قائمة بالمسافات المستعملة آنذاك
ج- البريد البحري وإشعال		٢١	دليل بالرموز المستخدمة في الرسالة
٦٥	النار	٢٥	الفصل الأول: البريد أنواعه وواجباته
٧١	الفصل الثاني: استخدامات البريد	٢٥	أولاً: معنى البريد وتطوره
٧١	أولاً: استخدامات البريد الخاصة	٢٥	التاريخي
٧٧	ثانياً: نقل أخبار الدولة ومنتشراتها	٣٢	أ- البريد لغةً واصطلاحاً
٨٥	ثالثاً: استخدامات البريد العسكرية	٣٦	ب- معالم البريد
٩٢	رابعاً: استخدامات عامة أخرى	٤٧	ج- التطور التاريخي للبريد ..
		٤٧	ثانياً: صاحب البريد - سماته وواجباته
		٤٨..	أ- سماته الأساسية
			ب- واجباته

الفصل الرابع: العيون		الفصل الثالث: صاحب الخبر	
١٧٣	والتَّجسُّس	١٠٩	واجباته وأنواعها
١٧٣	أولاً: العيون والتَّجسُّس	١٠٩	أولاً: تعريف صاحب الخبر
١٧٣	أ- تعريف العيون	١١٥	ثانياً: أقسام صاحب الخبر
١٧٤	ب- تعريف التَّجسُّس	١١٥	أ- صاحب خبر الوزير
	ثانياً: أ- العيون والتَّجسُّس	١١٩	ب- صاحب خبر الوالي
١٧٧	على العامة		ج- صاحب خبر صاحب
	ب- العيون والتَّجسُّس	١٢١	الشرطة وقائد الجند
	على رجالات الدولة		ثالثاً: أنواع ومهام صاحب
		١٢٣	الخبر
			أ- صاحب الخبر على
		١٢٣	الوزراء والخاصة
			ب- صاحب خبر الخليفة
		١٣١	على الولاة والقضاة ..
			ج- صاحب خبر الخليفة
			على العسكر وصاحب
		١٣٨	الجسر
			د- صاحب الخبر على
		١٤٥	الفقهاء والعلماء
			ه- صاحب الخبر على الشعراء
		١٤٨	والمعارضة والسجون



مكتبة لسان العرب

www.lisanarb.com

lisanerab.com رابط بديل

المؤلفة في سطور

* الاسم: نسرين محمود على

- * أنهت الدراسة الاعدادية سنة ١٩٨٣-١٩٨٤ م في ثانوية زينب المسائية للبنات في أربيل.
- * حصلت على شهادة البكالوريوس في قسم الاجتماع من كلية الآداب / جامعة صلاح الدين في أربيل سنة ١٩٨٨ م.
- * حصلت على الماجستير في التراث العلمي / الاجتماعي من معهد التاريخ العربي والتراث العلمي في بغداد سنة ١٩٩٩ م وعنوان الرسالة (صاحب الخبر في العصر العباسي).
- * حصلت على الدكتوراه من نفس المعهد سنة ٢٠٠٤ م وعنوان الأطروحة (التدابير الأمنية في مصر وبلاد الشام في عهد الناصر صلاح الدين الأيوبي)

الوظائف التي مارستها:

- * بعد التخرج من الكلية سنة ١٩٨٨ م درست في (ثانوية هلمت للبنين) في أربيل المواد (الاجتماعيات - اللغة العربية - الثقافة القومية) كمحاضرة حتى منتصف كانون الثاني من عام ١٩٨٩ م.
- * وفي ١/٢٥/١٩٨٩ م باشرت بوظيفة باحثة اجتماعية في (معهد الرجاء للمتخلفين عقلياً) في أربيل بعدما تم تعيينها في مديرية الرعاية الاجتماعية بشكل رسمي ودامه ستة سنوات (١٩٩٢-١٩٩٦ م) ثم تولت إدارة (دار رعاية الأحداث في أربيل).
- * سنة ١٩٩٢ م قدمت مشروع في (كيفية تأسيس مديرية رعاية الأحداث في أربيل).
- * تعمل حالياً، مدرسة في معهد الفنون الجميلة في أربيل.